

أغنية الفصول

عادل صوما

أغنية الفصول

رواية

دار الفارابي

الكتاب: أغنية الفصول
المؤلف: عادل صوما
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص. ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2008
ISBN: 978-9953-71-321-2

تقديم

علمني السفر كيفية رؤية الأماكن والتفاعل معها، وإقامة علاقة حميمة مع الشوارع والأبنية والميادين والمطاعم، لا تقلّ في تواصلها ودفئها عن علاقتي مع إنسان. لكن عندما رأيت المحيط لأول مرة، بعد ذهابي إلى الولايات المتحدة الأميركية بقصد الهجرة، بعد منعطف مشؤوم صدّع كل ما نشأت عليه إنسانياً واجتماعياً، ولم أفلح في تناسيه أو تجاوزه وقتئذ، أدركت أنني قمت بنقلة غير طبيعية في حياتي وحياة أسرتي.

كان المشهد متسعاً أمامي، بينما كنت أكاد أختنق من ضيق الحيِّز النفسي الذي يبتلعني. ورغم زرقة البحر والمحيط المتشابهة، تيقّنت بعد التدقيق في تشكيلات الغيوم عند الأفق، وقوة الريح وفجوات سطح المياه المتلاعبة، وطيور الساحل وبعض الفقمات البحرية التي تتمرّغ على رماله، إننا بعدنا كثيراً.

ثم دفعتني الشفافية التي أحاول بها العيش في الكوكب، إلى إعادة النظر في مسألة المسافات، وبدأت أستوعب أساليب المجتمع الأميركي، وأحاول الانسجام مع ما يتعارف

الناس عليه، حتى اضطررت للمغادرة لعدم تجديد إقامتي ورفض طلبي، رغم دخولي وتقديمي طلب الجنسية الأميركية بشكل قانوني، بسبب الأجواء التي واجهت العرب هناك مباشرة بعد أحداث 9 أيلول/سبتمبر 2001 الرهيبة، ما جعل كاتبة مقدمة روايتي «الجسر القديم» تستبق الأمور، وتشكر السلطات الأميركية على رفض طلب الجنسية الذي تقدّمت به، ما أعادني إلى منطقة البحر المتوسط التي أنتمي إليها، لأن أحداً لم يتوقّع أن تُعامل قضية استئناف، تخصّ إنساناً عربياً، بشكل حيادي في إدارة الهجرة الأميركية.

لكن أثناء كتابة هذه الرواية، وأنا في بيروت، تلقّيت خبر منحي الجنسية الأميركية، من هذه الدائرة الفدرالية. تكريم معنوي جاء كبلسم لم أحصل عليه من شبكة تلفزيونية فضائية كتبت لها برنامجاً ريادياً في شبكات التلفزة العربية والدولية كافة، وصرفتني أنا وزوجتي الحامل في الأسبوع الثالث من شهرها الأخير، وكانت مقدمة البرنامج إياه، تحت بند خفض عدد موظفي مركز الإنتاج والبث الذي كنا نعمل فيه.

تبلّغ صاحب الفضائية خصوصية حالتنا، بعد أن أقمنا دعوى قانونية مستعجلة، وكان ردّه مثيراً للفزع، إذ تغيّر أول قاض نظر في قضيتنا، وأجّلها لوجود زوجتي في المستشفى في حالة وضع، وقبل الثاني على مضض وجود مترجم في الجلسة لعدم إجادتنا لغة ذلك البلد، ثم دفع بعدم وجود أسس لبناء قضية ورفضها، رغم أن الأوراق التي بين يديه

تثبت تناقضاً ما بين مستندات سفارة الدولة التي سافرنا للعمل فيها في بيروت، وتبيّن أننا ملحقان لبرنامج محدّد، بينما أوراق مركز البث تقول إن عقد عملنا قد انتهى في هذه الدولة، ولا تشير مطلقاً إلى وجوب عودتنا إلى عملنا الأساسي في بيروت، حيث لا إثبات مالياً لديهم يثبت بأننا عاملان في مركز التلفزيون إياه، إضافة إلى أمر غير معقول هو استحالة التخاصم قضائياً أمام شركة، سنعود للعمل فيها مرة أخرى! ما أثار تساؤلات في صحف ذلك البلد، أشارت إلى أن هذه القضية هي الأولى التي تجحف بحق العمال منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية!

كما أسكت صاحب هذه الفضائية بعض وسائل الإعلام العربي، التي أشارت إلى مسألة حقوق الموظفين في مركز البث بشكل علني لا مواربة فيه، بقوله إنهم مجرد ملحقين من مراكز إنتاج شبكته التلفزيونية في العالم العربي، وإنه لا يعلم لماذا تصرفوا بهذه الطريقة، وردّد في مجالسه أنه لم يتوقّع أن يقاضيه أولاده، لكنه لم يذكر بتاتاً الضرر الدائم البالغ الذي وقع على ابني، وأمه حامل به في أسبوعها الأخير!

كانت المسألة برمتها مؤلمة للعقل والقلب، وتثبت بما لا شك فيه عدم جدوى التخاصم أمام شركات عملاقة عابرة للقارات في عصر العولمة، لأن المدّعي فيها سيكتشف في نهاية المطاف أنه يقف أمام وهم لا وجود قانونياً له، يحتاج إلى مشرّع قانوني متضلّع في الأمم المتحدة، وليس مجرد

محامٍ متخصص في قضايا العمال، إضافة إلى مواجهة قوة شبكةً اتصالات رفيعة المستوى، لا قبل له بالوقوف أمامها.

إنّ رواية «أغنية الفصول» بهيكليتها رأيتها بتفاصيلها في مخيلتي وأنا في الولايات المتحدة. وهي عمل أدبي بحت استند إلى ريبورتاج تأثرت به كثيراً، نشر في جريدة أميركية واسعة الانتشار، فأخذت «طبيعة العمل» التي ابتكرها الأشخاص موضوع التحقيق، وبنيت عليها قصة لا تمتّ أحداثها لهؤلاء بأية صلة.

كان هذا العمل الروائي سينشر كما هو، سواء بقيت في لبنان أو غادرته، وأنا غير آسف على أي شيء سوى هدر معظم عمري، في منطقة لم يدرك أهلها بعد ندرة «المحمية الثقافية» التي كانت تشكّل ملامحها، وهشمتها الثورات العسكرية والديكتاتوريات والعقود الاجتماعية المتكاذبة وبائعو الأوطان، ثم أكمل المستقوون بالإسلام سحق ما تبقّى منها هنا وهناك بشكل شبه نهائي.

عادل صوما

الفصل الأول

ـ لكي أكون أمينة معك، لاردّ نهائياً عندي اليوم.

ـ هل أؤجل سماعي لجوابك عدة أسابيع أو أتناساه؟

ـ أجّله، أجّله حتى أستجمع مشاعري وأسأل سكوت وأبلّغك كلامي النهائي.

لم يعقّب جون كارسون على عبارة كات الأخيرة، التي قالتها وهي شاردة العينين وفي حالة انفعال داخلي لم تستطع أن تخفيها، رغم يقينه بأن حواراتهما عن عرضه لها ستتواصل. كان يعرفها ويعلم تماماً ردات فعلها التي تُظهر أنها أخذت بأي أمر. أما كات فلم تدرِ لماذا أحسّت وكأن صوت القدر نفسه يمتزج بكلمات ونبرات صوت جون وهو يتكلم معها هذه المرة، في وقت كانت تعاني القلق الزائد على مستقبلها، والحيرة والتوتر العميقين بسبب عدم مقدرتها على رؤية أي شيء بوضوح، في مفترق الطرق الحياتي الذي تعيش فيه وتشعر أنها لا تستطيع تخطّيه إلى وجهة معينة.

تعرّفت كاترينا أرهارد، وهو الاسم الحقيقي لكات، على جون كارسون وهو لم يزل شاباً يافعاً يقصّ شعره على طريقة تلاميذ كلية الطيران العسكري، وكان واضحاً عليه وقتئذ

اعتزازه بالمستقبل الذي ينتظره، في مهنة لم تكن منتشرة كثيراً في بدايات أربعينيات القرن العشرين. وعلى رغم تخصصه الذي سيجعله دائماً بين قوسي الخطر، استأنست كات بروحه اللطيفة وحبه للحياة، ووجدت فيه الصديق المخلص الوسيم الذي كانت تنتظر الخروج معه بفارغ الصبر أثناء عطلاته نصف الشهرية، التي كانت تمنحه إياها كليته العسكرية.

كما كانت كات تنتظر أن تلمس أنامل الحظ الماسية بابها، وتأخذ بيدها نحو العمل في الأفلام الغنائية، في الوقت الذي كانت ترقص مع إحدى الفرق الاستعراضية التي كانت تؤدِّي لوحاتها الفنية الراقصة في «صن ست بولفار»، وهو الشارع الذي يوحي بعكس اسمه تماماً، لأن معظم نجوم وكواكب هوليوود آنذاك وقّعوا عقودهم المصيرية في مكاتبه، وبدأ شروقهم على الناس في الدنيا من شاشات السينما من «شارع الغروب»، الذي كانت كات تعمل في أحد أفخم مرابعه الليلية.

ـ هل تعتقد أنني سأصل يوماً إلى بطولة فيلم استعراضي؟ سألت كات وكيل الفنانين الذي اكتشفها ونقلها للعمل من أحد ملاهي وسط مدينة لوس أنجلس إلى «صن ست بولفار».

ـ لديك كل المواصفات التي تؤهلك، وصوت لا بأس به لأغاني الاستعراض، والباقي مسألة يلعب فيها الحظ دوره.

ـ وهل تعتقد أنني من اللاتي تملكنه؟

ـ كل ما أعلمه هو أنك جميلة وجذّابة وذكية، لكنه قد يطرق باب الغبيات أو الدميمات أحياناً!

ـ انصحني.

ـ قد تضطرك الظروف للنوم مع أحدهم. كوني واعية واعرفي مع مَن تنامين. الطريق صعب والمدّعون فيه كثيرون، فلا تضيّعي وقتك.

انتقلت كات للعمل إلى «صن ست بولفار» في خريف العام 1940، وأخبار «الحرب الكبيرة» تملأ الدنيا، ومنها الشارع ذو البريق الذي تعمل فيه، ولم تكن كات تهتم كثيراً بالحرب التي بدأت في أول أيلول/سبتمبر 1939، كمشكلة محلية في شرقي أوروبا بين ألمانيا وبولندا، وانتهت في الثاني من أيلول/سبتمبر 1945 بوثيقة تسليم وقّعت عليها اليابان فوق السفينة الحربية الأميركية «ميزوري»، بعد اشتراك العالم بكامله في هذه المحرقة البشرية الهائلة، بشكل مباشر أو غير مباشر، التي اتفق المؤرخون على تسميتها «الحرب العالمية الثانية»، وكان تعاطف الرأي العام الأميركي، منذ بدايتها في أوروبا، مع دول التحالف لشعوره بأن الانتصار النازي سيشكل تهديداً مستقبلياً للولايات المتحدة، التي وقفت على الحياد عسكرياً لعدة أسباب، وإن ظلت غير بعيدة عما يجري من حولها، بسبب تجارتها مع معظم دول أوروبا وآسيا، وسفنها التجارية المنتشرة في جميع بحار الكوكب ومحيطاته.

هاجر فون أرهارد والد كات إلى الولايات المتحدة مع أبويه عام 1889 وعمره سنة واحدة، بعد أن تركت أسرته موطنها الأساسي في درسدن جنوبي شرق ألمانيا. وولدت كات في العام 1920 من أبوين أصولهما ألمانية ومذهبهما الديني بروتستانت، بملامح نساء حوض الراين الشقراء، ذات العينين الزرقاوين، وبنية جسدية متناسقة، أخذت تتحوّل في مرحلة المراهقة إلى تمثال يبلغ مائة وسبعين سنتيمتراً طولاً، يشعّ جمالاً وينبض بالإغراء والحيوية، ويقف على ساقين رائعتي التنسيق، تنتهيان بحوض يشبه ثمرة الكمثرى، يعلوه نهدان مشدودان، تعلوهما رقبة جميلة تحمل وجهاً نسائياً ألمانياً، تعبِّر عيناه عن روح برّية لا أفق واضحاً لطموحها وشهوتها للحياة.

لم تبدِ كات اهتماماً كبيراً بالعلم في المرحلة الثانوية، وكانت تميل إلى الأنشطة الرياضية والفنية والاجتماعية، وبلورت الخبرة ومساعدة معلمة التربية البدنية أداءها وموهبتها المميزة في رقص الباليه الذي بدأته منذ نعومة أظافرها. كانت حيطان غرفتها مغطاة بصور معبودات هوليوود في ثلاثينيات القرن العشرين، وأسطوانات مغنيها ومغنياتها ملقاة على مكتبها، الذي كانت تستخدمه لإعادة قراءة خطابات المراهقين الملتهبة لها، أكثر مما تستخدمه للدرس، وتذهب إلى دور السينما وتتابع الأفلام الاستعراضية بأنفاس مشدودة، وهي راضية عن نفسها تماماً، بينما أبواها لم يكونا على درجة

الرضا نفسه تجاه ابنتهما الصغرى، مثل أختها الكبرى لورا، إذ كانا يوجهان النصح والتحذيرات والتأنيب لها باستمرار.

أنهت كات تعليمها الثانوي في صيف 1939، واتجهت للعمل في إدارة أحد مصانع المياه الغازية الكبرى التي بدأت منتجاتها تغزو أسواق العالم، ورغم عدم تصديق زميلاتها وزملائها لحصولها على هذه الوظيفة في المصنع ذي الاسم المرموق، كانت عينا كات تتجهان نحو هواها المزمن وحلمها الذي لا يفارقها، بالعمل في مجال الاستعراض والسينما، وتحاول بناء صداقات يعمل أصحابها في هذين المجالين، وهي واثقة بنفسها وتحسّ كأن الدنيا يجب أن تعطيها ما تتمنّاه، لقوة الهاجس الساكن فيها الذي يوحي لها بأنها تستحق ذلك.

بلغت ثورة الوالدين المحافظين دينياً على كات ذروتها، يوم أبلغتهما بأنها ستنضمّ إلى فرقة استعراضية تلعب في ملهى ليلي في وسط مدينة لوس أنجلس، وسيكون عملها مساءي السبت والأحد أسبوعياً. وأفهمتهما أن هذه فرصة لا يمكن أن ترفضها أي فتاة تملك طموحها نفسه، وحتى مجرد التردُّد في قبولها قد يجعلها تطير بلا عودة.

ـ ستكون هذه فضيحتنا في المجتمع. قال أبوها لها.

ـ إذا كنت تقصد مجتمع الكنيسة فهذا عمل. لماذا تعتبره فضيحة؟

ـ ماذا تقولين أنت عن فتاة تُظهر نهديها وساقيها للناس؟

ـ جزءاً فقط! ولماذا لم تسمها من قبل فضيحة وأنا أرقص الباليه في حفلات ومناسبات المدرسة؟

ـ كان شيئاً فنياً بعيداً عن الإغراء.

ـ كانت هواية غير مربحة وجاء وقت الحصاد المالي منها الآن، والنساء يستخدمن الإغراء حتى في العمل المكتبي. إنه أحد أساليب المرأة وقوتها.

ـ من علّمك هذا الكلام البذيء؟

ـ علّمتني الحياة العملية استغلال الفرص. هذه فرصتي ولن أتركها تفلت من يديّ.

ـ وماذا أقول للناس وأشرح لهم؟

ـ تقصد المجتمع إياه؟

ـ أكيد.

ـ لا تقل أي شيء. ولو رآني أحدهم هناك دعني أشرح له أنا بنفسي.

ـ إذا كان هذا قرارك النهائي، حاولي المحافظة على نفسك، وأنا وأمك سنظل كما تعرفيننا معك.

تعرّف جون كارسون على كات وهي تؤدّي عملها في الفرقة الاستعراضية، في أحد مرابع الليل الصغيرة نسبياً في «صن ست بولفار» وكانت قبل أن تتكلم معه قد سمعت زميلاتها يصفنه بالطيار المعجب بنفسه، الذي يأتي مع بضعة شبان ينتمون إلى مجتمع راقٍ كما توحي ملابسهم، لكنهم ليسوا طيارين مثله. وربما كان حكمهن عليه لأنهن لم

يشاهدنه ثملاً ولا مرة، أو بملابس غير متناسقة وغير حليق الذقن، أو مشاركاً في أحاديث مبتذلة بصوت مرتفع. كان مظهر جون الخارجي يوحي بأنه يأتي ليتسلى ويرفّه عن نفسه في الملهى، أو ليخرج مع إحداهن بغرض العبث. وعندما حاول الحديث مع كات أفهمته، برقّة بالغة، أنها تعمل كفنانة، لأنها أحسّت أنه قماشة تختلف عن بعض الزبائن، وكانت هي فعلاً ترقص فقط كما قالت له.

ـ هل يمكننا اللقاء بعيداً عن أجواء الملهى؟

سألها جون ذات مساء، بعدما تعوّد كل منهما إلقاء السلام من بعيد على الآخر برفع اليد، أو الحديث المرح وتبادل أخبارهما الشخصية.

ـ بالتأكيد.

ـ ما هو الوقت الذي يناسبك؟

ـ بعد الرابعة دائماً. أعمل في شركة قبل ذلك الموعد.

ـ حقاً؟ ولماذا تعملين هنا؟

ـ أولاً، أقبض من هنا مساءي السبت والأحد أكثر من معاشي الأسبوعي في الشركة.

ـ وثانياً؟

ـ أريد أن أكون نجمة استعراضية تسبح في الأضواء. هل تعرف عظمة الأضواء يا رجل؟ وماذا عنك أنت؟

ـ مستقبلي معروف! سأطير دائماً تحت الشمس.

ـ هل تحب ذلك؟

ـ شعور مختلف فعلاً أن تكوني على المدرج بأقصى سرعة، وهوب! ترتفعين فوق الأرض. هل تحبّين السفر؟

ـ الأمر الثاني الذي أعشقه من كل قلبي، لكنني لم أمارسه.

كانت كات تتحدّث باللكنة الأميركية، بينما كان جون يتكلم الإنكليزية الكلاسيكية التي يتحدّثها أهل لندن، لأنه وُلد من أبوين إنكليزيين، جاءا إلى الأراضي الأميركية في العام 1900، بينما كان والدا كات يتحدثان بالألمانية في المنزل. وعندما كان أحدهم يسأل جون عن أصوله كان يقول:

ـ أنا أميركي.

ـ ولكنتك؟

ـ هذه حكاية قديمة ورثتها عن والديّ.

ورث جون أيضاً عن والده السحنة البريطانية الكلاسيكية ذات البشرة البيضاء والعينين الزرقاوين والقامة المتوسطة الطول والطبع المتأني في اتخاذ القرارات. وعندما قابل كات كان يكبرها بثلاث سنوات، ويعيش يومه وهو ينظر إلى الحرب شاغلة الناس في عملهم وبيوتهم، وبدت في السابع من كانون الأول/ديسمبر 1941 وكأنها لن تنتهي، بعد الهجوم الانتحاري الياباني على جزء من الأسطول الأميركي في بيرل هاربور في هاواي، وإعلان الولايات المتحدة الأميركية الحرب على اليابان إحدى دول المحور. وبالمقابل أعلنت ألمانيا وإيطاليا في الحادي عشر من الشهر نفسه

الحرب على الولايات المتحدة. وهكذا بدأت المرحلة الأشرس والأهم من القتال.

بمجرد دخول الولايات المتحدة الحرب، بدأ الأميركيون من جذور ألمانية وإيطالية ويابانية وأصحاب سحنة سكان الشرق الأقصى، يعانون المضايقات من الأصول العرقية الأخرى، وهي إحدى الآفات التي يعانيها المجتمع الفسيفسائي الأميركي، الذي انتعش اقتصاده بسبب هذه الحرب، لأن المصانع كانت تعمل على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم لمدة سبعة أيام أسبوعياً. كما لم يعانِ هذا المجتمع ويلات الحرب التي كابدتها أوروبا وآسيا وأفريقيا، بسبب عدم وجود تقنية صاروخية أو جوية أو بحرية تطال أراضي الولايات المتحدة في ذلك الوقت، رغم اشتراك قسم من جنودها وأساطيلها وطائراتها في القتال، وكان الساهرون في ملاهي «صن ست بولفار» لا يعكسون سوى الفورة الاقتصادية التي حدثت داخل دولتهم، وقلّة الزوار من السائحين بسبب الحالة المتردية في أوروبا وآسيا.

تعوّد جون الذهاب في إجازاته إلى «باسادينا» حيث تسكن كات، ليصطحبها إلى السينما أو أحد المطاعم ليتناولا عشاءهما، وكان أبوها مندهشاً من حصولها على صديق مثله رغم عملها في الملهى يوميّ السبت والأحد، ولم تبالِ هي بما كان يقوله والدها، لأنها كانت تأنس بصديقها المقتنع بها

وبعملها، والذي تحسدها عليه زميلاتها اللاتي بدا لهنّ أن صداقتهما لن تنتهي، بسبب الانسجام الظاهر عليهما وسعادتهما الغامرة، عكس ما كانت كات تهمس بمخاوفها لإحدى زميلاتها المقرّبات.

ـ أشعر أنني لو فقدته فسأخسر الرجل الوحيد الذي أثق به في حياتي.

ـ ولماذا تشعرين بذلك؟

ـ لا سبب واضحاً عندي.

ـ هل احتمال اشتراكه في الحرب أحد الأسباب؟

ـ ربما.

لم يبح جون كارسون بغرامه لكات بشكل صريح، لكن كل ما كان يفعله أكّد لها حبه. كما لم يطلب منها الزواج، أو يلمّح إلى تمنِّيه العيش معها كصديقين، حتى في جميع رحلاتهما الخلوية التي قاما بها، خصوصاً إلى ماليبو التي كان جون يحبها كثيراً، وطالما لعبا كرة المضرب والكرة الطائرة وحدهما على رمال شاطئها، وتابعته وهو يمارس هواية ركوب الأمواج، وتمشيا على الشريط الرملي الذي تتكسّر عليه أمواج المحيط، وهما يراقبان طيور النورس كبيرة الحجم، ومساحات العقارات الرملية الخالية المجاورة للشاطىء، أو تلك الملاصقة للطريق السريع لمحيط الباسفيك، الذي يقول سكان ولاية كاليفورنيا عنه اختصاراً «بي. سي. آتش»؛ باسيفيك كوست هاي واي.

ـ أين تعتقد أنك ستذهب بعد تخرجك؟ سألت كات جون وموعد تخرجه في أيار/مايو 1942 يقترب.

ـ لا أعلم. أنتظر تخرجي لأعرف أين سيرسلني روزفلت(*).

ـ لتقتل الناس؟

ـ وظيفتي قصف أهداف محدّدة فقط.

ـ ومن الذي يقتلهم؟

ـ أصحاب قرار الحرب.

اتصل جون بكات هاتفياً قبل سفره للاشتراك في القتال الدائر على الجبهة الأوروبية التي أولتها الولايات المتحدة مع حلفائها المرتبة الأولى عسكرياً، وأبلغها عن توجهه باقتضاب وصوت هادىء، وسألته هي عما إذا كانت ستراه قبل رحيله، وردّ عليها بأنه سيحاول أن يراها ولو لبضع دقائق، رغم أن كل الأمور تحدث بسرعة من حوله. وسافر جون إلى الجبهة الأوروبية مثلما أخبرها بدون قبلة وداع على خدها في صيف 1942، وترك في قلبها علامة استفهام كبيرة حول الأمور المهمة التي تظهر في حياة الإنسان، ويتعلق بها بشدّة بعد أن تشكّل طريقة إحساسه، وتختفي فجأة بطريقة عبثية قد تثير الحنق على أساليب الدنيا، والحياة نفسها.

(*) فرانكلين ديلانو روزفلت الرئيس الثاني والثلاثون للولايات المتحدة الأميركية واستمرت فترة حكمه من 1933 حتى 1945.

وفي خريف العام نفسه، أثمرت براعة كات الفنية وعلاقاتها الاجتماعية في مجالها، وانتقلت إلى العمل في أحد أرقى ملاهي «صن ست بولفار» وهي تشعر في قلبها أنها أصبحت محطّ الأنظار، واقتربت كثيراً من أملها المنشود الذي روته عدة مرات لجون، وردّ عليها يوماً بأنه لا يشعر أنها ستصل إلى مكان مميز أو ستحقِّق حلمها بالعمل في السينما، وبرّر ذلك بأنها تخطت العشرين ولم تأتها الفرصة التي تحلم بها، أو أي فرصة أخرى تجعلها على أول طريق النجومية.

ـ لكنني ما زلت صغيرة يا جون.

ـ أعتقد أن العشرين مرحلة مصيرية لمستقبل الإنسان، ما يعني لي أنك لن تكوني نجمة سينمائية.

ـ لماذا؟

ـ لا شك أنك بارعة في رقصك، لكنك تحتاجين إلى شيء مهم لا أعلم ما هو رغم جمالك.

ـ تنقصني لمسة سحرية من باقة نجوم برجي.

ـ ربما.

ـ هل تؤمن بوجود الحظ؟

ـ نعم.

اضطرت كات إلى ترك عملها في شركة المياه الغازية، بعد العرض الذي نقلها للرقص في الملهى الهوليوودي الشهير، لأن العمل فيه كان يومياً، وكانت تعود في وقت

متأخر إلى «باسادينا» بسيارتها، إذ لا يسمح لها إرهاق العمل اليومي ليلاً، أو رونق اسم المربع والفرقة التي ترقص معها، بالعمل في قسم مراقبة الجودة بشركة مياه غازية مهما بلغ اسمها. وهي خطوة أوحت للمحيطين بها أنها اختارت بشكل نهائي طريق الفن. وقد أتاح لها وجودها في ذلك المكان الراقي رؤية بعض من كانت تراهم على الشاشة الكبيرة عن قرب، وكانت تنتشي أحياناً برؤية أحد معبودي أو معبودات المراهقين، ممن كانت ولم تزل تضع صورهم في غرفتها. وكانت النشوة تطير من رأسها أحياناً عندما تكتشف أن بعضهم أسوأ في حياته الحقيقية، من أشخاص عاديين لا اسم لامعاً لهم يخشون عليه في المجتمعات.

حام شخص حول كات مدة أسبوعين، في هذه الأجواء الليلية التي تعبق بظهور أصحاب الملايين، وبعض الأسماء التي تجاوزت السطور التي تُكتب عنها في المجلات والصحف، ودخلت عالم الأسطورة. ولم تبدِ في البداية أي اهتمام به، إلّا أنها سرعان ما غيّرت رأيها عندما عرفت أنه مدير أعمال الممثل تيم مارشال، وأنه مع محامي هذا النجم يصمّمان العقود الخيالية، التي يوقّعها الممثل الكبير قبل دخوله إلى البلاتو لبدء التصوير، بدون التدقيق فيها لأنه يثق بهما.

كان الرجل وسيماً صاحب صوت بارع متلوّن، ونظرة حذرة وهو يتحدث مع الرجال، وتأمل وقح في أجساد النساء

وهو جالس يتحدث في الملهى مع كتّاب سيناريو ومنتجين ومخرجين، أو أشخاص لا أحد يعرف عنهم أي شيء أحياناً. ولم تمانع كات في الجلوس معه على البار ذات ليلة وهو جالس يدخّن بمفرده على غير عادته.

ـ جايمز سكوت. قدّم لها نفسه وهو ينزلق من فوق الكرسي الطويل، ويمدّ يده ليصافحها.

ـ سمعت اسمك يتردّد أمامي عدة مرات.

ـ وما هو انطباع الناس عني؟

ـ تقصد العاملين في مجالنا؟

ـ نعم.

ـ لا يرونك سوى في وظيفتك، وهي مركز قوي يمنعهم من إبداء رأيهم الصريح فيك.

ـ لم أتوقّع أنك جريئة بهذا الشكل يا كات.

ـ وتعرف اسمي أيضاً على ما يبدو!

ـ وهل يُعقل أن يشعّ هذا الجمال هنا ستة أيام أسبوعياً، ويجهل الناس اسمه؟

ـ هل يعجبك أسلوبي الفني؟

ـ جداً. هل تودّين شرب شيء؟

ـ لا أشرب ولا أدخن.

ـ كوب بيرة؟

ـ لا بأس.

امتدّ الحديث بين سكوت وكات وقتاً طويلاً بعد منتصف

الليل، استطاع كل منهما بعده قراءة الآخر، وإمساك طرف الخيط الذي يوصله إلى ما يريده. ورغم تجارب سكوت وتمرسه بالعلاقات النسائية وحياة علب الليل، تعجّبت كات من عدم تمالكه نفسه أمامها، لأنه فَقَدَ توازنه ووعدها بعمل كل ما يستطيع حتى يضعها في المكان المناسب. وقدّم وعوده ليصل إلى ما يريده منها.

ـ سأجعلك تقابلين تيم مارشال نفسه في أقرب وقت ممكن.

ـ لكن نجمك لا يعمل في الأفلام الاستعراضية. هل تعتقد أنني أنتظر توقيعاً منه على أوتوغرافي أو ظهر صورة له؟

ـ لا تنسي أنه صاحب كلمة مسموعة في بعض الأستوديوهات.

ـ جايمز! هل لك صلات طيبة بأحد منتجي هذه الأفلام؟

ـ سؤال وجيه. من هنا يجب أن نبدأ، لكن يجب أن تكوني بجانبي... أنت تعلمين الأجواء.

ـ بدا لكات في هذه الفترة أن جايمز سكوت هو السبيل الوحيد لخطوتها الأولى في عالم السينما، الذي يجب أن تقبله كما هو، بعد أن صنعت سمعة واسماً أصبح لهما شأن في عالم الاستعراض في «صن ست بولفار». وتخلّى سكوت عن خطوة انبهارها بلقاء مارشال غير المجدية بالنسبة لشهوة وصوله إلى فراشها المسيطرة عليه وعلى مشاعره، وجعلها تلتقي بعض المنتجين أصحاب الشأن في دنيا الأضواء

والشهرة، وأبدى واحد منهم حماسة أكثر من غيره لدرجة أنه طلب من أحد مخرجي السينما إجراء «اختبار كاميرا» لها، وكاد صواب كات أن يشتعل عندما وجدت من المخرج استحساناً وتوصية محترمة بحقها للمنتج صاحب طلب الاختبار. أحسّت أنها لأول مرة على وشك أن تجد الطريق اللانهائي لأحلامها وأمانيها، وأن صداقتها مع سكوت ضرورة لا بدّ منها، على الأقل في بداية الطريق. كانت على استعداد لدفع كل الفواتير التي توصلها إلى هالة المجد.

تجاوزت كات كل انتقادات أهلها لها بسبب صداقتها لجايمز، وأولهم أبوها الذي هدّدها بالطرد من المنزل ذات مرة. وكان الشخص الوحيد الذي وقف إلى جانبها إلى حدٍّ ما أختها لورا، صاحبة التأثير الأكبر على والدها ليبقيها في المنزل.

ـ مهما كان يا أبي، تعود كات إلى البيت يومياً ولا تحاول إخفاء أي شيء عن أسرتها.

ـ أشعر كأن سيارة قد صدمتني منذ اليوم الذي بدأت العمل في الملهى الليلي.

ـ بعض الناس يعتقدون أن هدفهم يستأهل حتى فناء حياتهم نفسها.

ـ الأهداف السامية حتماً.

ـ ومن قال لك إن أصحاب الصور الموجودة في

المجلات وأفيشات الأفلام أهدافهم داعرة دائماً؟ بعضهم أصحاب رسالة.

ـ هل يعجبك الطريق الذي تمشي فيه؟

ـ هدفها أن تكون راقصة وممثلة استعراضية، ولن تجد طريقها في قاعات المحاضرات أو مدارس الأحد.

ـ وما رأيك في هذا السافل عشيقها؟

ـ سأتحدث معها بشأنه قريباً. أنا شخصياً لم ولن أحبه.

برغم دخول كات إلى دائرة صداقات أصحاب الأسماء ذات الشأن، سواء بالنسبة إلى المنتجين أو الممثلين والممثلات بفضل علاقات عشيقها، لم تحقّق شيئاً يذكر في عالم السينما حتى ولو خطوة واحدة مما كانت تراه في أحلام يقظتها وليلها. حقّقت دوراً سينمائياً واحداً لعبت فيه شخصية راقصة أولى في فرقة استعراضية، كانت ترقص خلف إحدى كواكب الفيلم الغنائي في أربعينيات القرن العشرين، وأظهرتها الكاميرا في بعض اللقطات المقرّبة جداً، بفضل نفوذ جايمز سكوت. كما لعبت دوراً في إعلان تجاري، ونصحها سكوت بالاستمرار في هذا الخط والتمسك به، لأنه مع فتيات الغلاف الأول يُعتبر محطّ أنظار منتجي الأفلام.

ـ وأين قوة صداقاتك وصداقات مارشال؟

ـ هي التي أوصلتك إلى نقطة البداية التي أنت فيها. هل تعلمين أن تيم مارشال نفسه ركض سنتين وراء المنتجين لكي يقول عبارة واحدة فقط في فيلم؟

ـ وماذا كانت هذه العبارة المميزة؟

ـ كانت: لا أعرف.

ـ هل تسخر مني؟

ـ مطلقاً. هذه هي الحقيقة.

ـ على أية حال، لم يكن مارشال آنذاك يعرف الذين أنت وهو على اتصال بهم الآن.

ـ صحيح. لكن لكل إنسان ظروفه. أنصحك بالاستمرار في الطريق الذي تمشين فيه وبكل جدّية، حتى تفتح السموات أبوابها لك.

ـ لكن يا جايمز..

ـ تقف عشرون ألف امرأة على باب القدر يردن أن يكنّ مارلين ديتريتش.. من أين سيأتي القدر باستوديوهات لهنّ فقط؟!

ـ اتفقنا يا سكوت بشأن الفن. وماذا عن حياتنا معاً؟

ـ مم تشكو؟ إنها رائعة كما أعتقد.

ـ هل سنستمر على هذه الوتيرة نفسها؟

ـ ....

ـ سكوت! قل لي بصراحة، هل تشكّ فيَّ؟

ـ ....

ـ أنا على علاقة صداقة فقط بمن نصحتني بتوطيد علاقتي معهم. هل تفهمني؟ ماذا سمعتهم يقولون عني؟

ـ لا شيء شاذاً عن المألوف.

ـ أهلي لا يقبلون هذه العلاقة.

ـ أعتقد أنك تخطّيت الثامنة عشرة، أليس كذلك؟

ـ لكن الإنسان يحتاج للاستقرار في حياته. مرفأ ثابت ينطلق منه ويعود إليه. هل يُعقل أن يئنّ من ظروفه الخاصة ويركض وراء طموحه في الوقت نفسه؟

ـ لا وقت للاستقرار في مجالنا بكل تخصصاته، والزواج مشروع غير وارد عندي ولا أفكّر فيه الآن.

كانت خريطة حياة جايمز سكوت الذي كان في الثانية والثلاثين حينذاك، تسير على وتيرة لا تتغير؛ المجتمعات وسهرات المرابع ليلاً، واليقظة صباحاً حسب ما يقتضيه عمله مع موكله الفنان الهوليوودي المعروف، الذي يرافقه أينما ذهب للتصوير سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها. حياة صاخبة لا مجال لتأمل أو توقف فيها، وكان واضحاً أن سكوت لا يتحمّل حتى فكرة التخلي عن أسلوب عيشه ليوم واحد فحسب. صحيح أنه تعلّق بكات في فترة معينة، لكن التعوّد أحال الشغف ورغبته الكاسحة فيها إلى مجرد عادة لا يستطيع تخطّيها لمرحلة أخرى، من أجل حياة مشتركة تحت سقف واحد، أو مساكنة في منزل يجمعه بعشيقة، كان يعتقد أنها ستقيده بغضّ النظر عمن تكون. لم يكن قط على استعداد للابتعاد عن طقوس الذوبان في المجتمعات المخملية وسهراته فيها، أو ممارسة القمار على طاولات بعض

الأصدقاء. كانت حريته في عمل ما يريد وقت ما يشاء أهم من حياته نفسها.

استمرّت كات في عملها المعتاد في «صن ست بولفار»، ومشاركتها في الإعلانات التجارية، ورضخت بعد فترة لظهورها كراقصة في أفلام استعراضية تؤدِّي دائماً في الصف الأول وراء كواكب ونجوم أفلام تلك الفترة، ما جعل الأموال تجري بين يديها، وحوّل علاقتها بأسرتها المتوسطة الحال إلى الأفضل، وجعلها تعيش في بحبوحة أجبرت عيني سكوت على الالتفات إلى نقودها، وتقييم ما يمكن أن يجنيه منها.

حاول سكوت في البداية إقناعها بفكرة استثمار أموالها بمشروع تجاري، لكنها رفضت لأنها لا تفهم في إدارة هذه الأعمال. كما رفضت للسبب نفسه، ولحرصها منه أيضاً، على الدخول في إدارة مطعم ذي اسم جيد، لأنها كانت على يقين أن المكان سيكون في خدمة مشاريعه وأصدقائه ودائرة المتعاملين غير المحدودة مع نجمه، الذين سيحتفي بهم كأصدقاء لا يدفع معظمهم ما سيجعلها تتّجه للإفلاس، لأن فواتيرهم لن يسدّدها هو. ثم بدأ سكوت بعد ذلك يحاول أن يأخذ منها بعض الأموال لأن ما يجنيه من عمله لا يكفيه أحياناً، لكنها أبت بحزم بعد أن بيّنت له أن هذه النقود ستذهب إلى موائد القمار وربما إلى نساء أخريات، ثم رضخت بعد فترة بعد أن لاحظت أن عملها في الإعلانات

التجارية بدأ يقل، ولم يعد هاتفها يرنّ كما كان سابقاً، الأمر الذي جعلها تقلق بشأن فرصتها الماسية وتذوب قلقاً عليها.

اندهشت كات كثيراً وهي تفتح ظرفاً وصل إلى منزل أهلها، ذات صباح بواسطة بريد الجيش الأميركي في شباط/فبراير 1944، وكاد قلبها أن يتوقف وهي تقرأ سطور رسالة مقتضبة من صديقها السابق جون كارسون. عرفت منها أنه في مكان ما على إحدى حاملات الطائرات القريبة من الساحل الأوروبي، وهو لا يعرف متى سيعود، ويتمنّى لها جميع الأمنيات الطيبة. رسالة تعبِّر عن إنسان متحفّظ يعيش في أتون ملتهب بشعور رمادي محايد بين الحياة والموت، ولا يتوقّع رداً من التي أرسل إليها كلماته، ربما لاستحالة وصول رسالة منها إليه، كما قدّرت هي، أو لأنه كما همست لنفسها بعد قراءة كلماته وشبه ابتسامة على شفتيها، أن جون هو نفسه ولمّا يتغيّر.

رغم أن زميلات كات في «صن ست بولفار» كنَّ يلقّبن جون بالفتى المعجب بنفسه، إلّا أنها كانت تعرف من هو بعد أن اقتربا كثيراً أحدهما من الآخر. كان في نظرها الرجل الذي يستطيع التحدث عن مواضيع كثيرة لم تكن تعلم أنها موجودة قبل أن تعرفه. كان يشرح لها أموراً عديدة ببساطة، ويعشق المحيط وركوب أمواجه وصيد السمك، ويقرأ بنهم كما عرفت منه، والجريدة اليومية موجودة دائماً في سيارته. كانت تحسد نفسها على صحبته وتتمنّى أن تدوم.

ـ أريد أن أسألك هل تجدني الصديقة المناسبة لك؟

سألته ذات يوم وهما يتمشيان حافيين فوق رمال شاطىء الكربون في ماليبو، وخيوط شمس بعد الظهر الذهبية المجبولة بزرقة السماء، تنفذ بين الغيوم الرمادية المنتشرة المتهادية، كما هي عادتها في معظم الأيام فوق محيط الباسيفك، بما يشبه الرذاذ المكتسي بكل هذه الألوان، ويخدّر أحاسيس من يتأمّلون المشهد.

ـ من أوحى لك بهذا السؤال؟

ـ أبي وزميلاتي.

ـ ولا مرة فكّرت بهذه الطريقة. لقد غمرني خجل كبير وأنا أتحدث معك لأول مرة في الملهى.

ـ خجل؟ لماذا؟

ـ ربما لأن الجميع يعرفونك وأنت محطّ أنظار الموجودين.

ـ ألم تعتقد أنني فتاة رخيصة لأنني أرقص في هذا المكان؟

ـ هذا بالضبط ما قاله أصدقائي، لكنني لم أعتقد أنك كذلك منذ البداية. سمعتُ وكوّنت فكرة هي أن هذا عملك فقط، ولا تتخذينه طريقاً لشيء آخر.

ـ جون..

ـ هل يمكنك تغيير الحديث؟

ـ لماذا؟

ـ سأشرح لك يوماً ما لماذا سعيت إلى صداقتك.

أصبح جون مجرد ذكرى بعيدة تحاول كات عدم استعادتها، حتى لا تتأزم نفسياً. وقد هذّبت أظافر آلامها الحادّة بسبب بعده عنها، مشاعرها وجعلتها تتذكّره لو اقتحم ذاكرتها لأي سبب، كمجرد إنسان يبتسم في لوحة فنية. كان صعباً على شعورها استعادته بغير هذه الطريقة، بعدما سحقتها دموع قلبها شهوراً. كما حاولت بقدر الإمكان تجنُّب الاستماع إلى الأغاني التي سمعاها معاً في سيارته، أو في أحد المطاعم التي تناولا غداءهما فيها. ولم تذهب ولا مرة لتتمشّى أو تسبح في شاطىء الكربون في ماليبو. كانت تحسّ أنها يمكنها أن تنظر إلى الأفق من أي مكان، ما عدا أفق ماليبو الذي كان يحيط بهما بكل حنان، وهو الشعور الذي كان يغمرها داخلياً وهما يتمشيان على شاطئه المفضّل لديه.

حاولت كات معرفة سبب رسالته الأخيرة المباغتة لها. هل يمكن أن تكون بسبب اشتياقه إليها؟ أو هي تعبير عن مشاعر الخوف من الإصابة أو الموت في الحرب؟ ولماذا لم يختمها بتمنِّي العودة للوطن ورؤيتها؟ قدّرت كات أن رسالته هذه مجرد مناسبة للكتابة أُتيحت له، ولعله استغلّها في تدوين رسائل سريعة لمعظم الذين يعرفهم.

ـ على فكرة. أنا لا أراك معجباً بنفسك أو وظيفتك كما تقول الفتيات؟

ـ كيف ترينني؟

ـ أراك واثقاً بما تعرفه.

ـ أمر طبيعي أن يشعر تلميذ طيران بالفخر.

ـ لكنه فخر مغلّف بالصمت كما لاحظت عليك.

ـ ربما لأنني ذاهب مباشرة إلى الحرب.

ـ تعني أنك لم تحصل على وقت للتمتع بفرادة وظيفتك؟

ـ تماماً.

ـ هل أنت خائف؟

ـ أنسى كل مشاعري بمجرد الصعود إلى الطائرة. لو خفت أموت. أنا لا أقود طائرة تجارية.

ـ هل تحب هذه الوظيفة؟

ـ شعور جميل فعلاً أن يكون الإنسان فوق الأرض... لم أتخيّل كيف سنهبط عندما رأيت الأرض تشبه خريطة تحتنا، في أول مرة طرت فيها مع المدرب.

ـ ولم تعد تحتار أو تخاف الآن. أليس كذلك؟

ـ قد لا تصدِّقين إذا قلت لك إنني أخاف من وجودي في الأماكن العالية في أحلامي.

ـ لكنك تعمل في الجو! ما الذي تخشاه في أحلامك تحديداً؟

ـ المكان المرتفع نفسه!

كانت كات تعتقد أنها وصلت إلى ما يشبه الكمال في فنها، لأن لياقتها ومرونتها وولعها بالرقص، طوّع جسدها وجعله قادراً على أداء أي حركة أو خطوة مهما بلغت

صعوبتها. ومن الشهادات التي طالما اعتزّت بها قول فريد أستير عنها إنها الوحيدة التي تستطيع أن تجاريه في خطواته، بدون أي حيلة أو خدعة من الكاميرا، وأنه شخصياً يرتاح لوجودها خلفه مباشرة أو معه ترقص في عروضه للسينما. اعتبرت كلام الرجل الكبير في عالم الاستعراض قلادة تقدير لها، وإن لم تبدّد شعورها الدفين بالغبن بسبب عدم حصولها على دور بطولة لمرة واحدة، أو حتى لعب دور الشخصية الثانية في فيلم. ولولا حبها للرقص ورغبتها الدائمة في تحسين صورتها الفنية، لضاعت عليها نصيحة إفادتها في فنها، ولم تتغيّر معظم سُبُل حياتها، أو تجعل قائلها أحد أصدقاء عمرها.

ـ أداؤك رائع وحضورك مدهش، لكن ينقصك أمر واحد حيوياً.

قال لها أحدهم ذات ليلة في الملهى الليلي، بعد انتهاء عملها وأثناء مغادرتها المكان. وكان يبدو أنه ينتظرها ويحاول الاقتراب منها بهذه العبارة.

ـ وما هو؟

ـ الاسترخاء أثناء الأداء.

ـ ماذا تعني؟ أنا أستخدم عضلاتي كافة، وكل قوتي أحياناً لكي أؤدّي بعض الحركات. الأمر ليس سهلاً كما يبدو لك. قالت كات وهي تبتسم بسخرية.

ـ الأمر عكس ما تتخيّلين. سأشرح لك. تتمنّى أي فتاة

ممارسة الحياة الجنسية، لكنها في المرات الأولى تكون منقبضة، ثم تعلّمها الخبرة الاسترخاء والاستمتاع بما تؤدِّيه.

ـ تشبيه مذهل فعلاً. لكن كيف أسترخي وأنا أرقص؟ يبدو لي أنني إذا استرخيت سأتهاوى.

ـ هذا بيت القصيد. أنت تستعملين عضلاتك وأعصابك معاً، بينما المطلوب العضلات فقط.

ـ وكيف أفصل بينهما؟

ـ ضعي كلمة استرخاء في عقلك دائماً، وبعد عدة مرات ستسترخين وتؤدِّين وأنت غير منقبضة الأعصاب.

ـ على فكرة. ماذا تعمل؟

ـ اسمي لاري تانر. مخرج إعلانات تجارية وجئت من أجل عمل لك.

ـ هل رأيتني في أحدها؟

ـ نعم. وأقترح عليك اسماً فنياً هو «كات». كاترينا اسم لا يصلح للفن.

من الغريب أن هذه النصيحة قد تلازمت مع كل ما تعمله كات، ورافقتها في كل شيء تفعله حتى الغضب. كانت تغضب وتجادل وتكره وترفع صوتها وهي مسترخية الأعصاب، بعدما تعلّمت استخدام شبكة عضلاتها ليس إلّا. والأمر الوحيد الذي ظلّ يمسّ أعصابها هو صورة جون في ذاكرتها.

استقلّت كات بحياتها واستأجرت شقة في «هوليوود بولفار»

المجاور لعملها، بعد دخولها، الثاني الاحترافي الأهم كما كانت تعتبره إلى التمثيل في الإعلانات التجارية، الذي درَّ عليها مدخولاً لم تقل حقيقته لجايمز سكوت ولا مرة. كما فتحت حساباً جديداً في مصرف آخر، ولم يعد يجمعهما سوى مصالح مشتركة هي حاجته لجسد امرأة وخدمة منزل بدون أدنى ارتباط منه نحوها، واستفادته المالية منها بشكل مباشر، أو غير مباشر من عمولته من منتجي أي عمل تشارك فيه يكون هو وسيطه، ليعوِّض جزءاً من خسائره الثقيلة على مائدة القمار، وكانت كذلك في أغلب الأحيان لأنه من الذين يصابون أحياناً بلوثة غير متوقعة وهو يقامر، وتدفعه هذه اللحظة المباغتة التي تسيطر على عقله، إلى المراهنة بكل ما معه دفعة واحدة. أصبح جايمز يتعامل معها وكأنهما لا يتقاسمان فراشاً واحداً أحياناً، بعدما خفتت صبوة تلهّفه إليها.

كانت كات من عشاق الخشب وفرشت بيتها بالنوعية التي كانت تحبها، بعد أن تمنّت كثيراً أن تكون مالكة بيت على نمط معين يعبِّر عن غرامها بهذه المادة الحيوية ولونها، لدرجة أنها اختارت ثلاجة يقترب لونها من اللون الخشبي، لكي تتماشى مع باقي أثاث البيت واللوحات على جدرانه ولون السجاد على أرضه. كما كانت تعشق شراء الأغلى من السوق دائماً، وتملك حاسة المودة نحو ما لديها من أغراض، لأنها على ما يبدو لم تعد على ثقة كبيرة بالبشر، بعدما أثّرت

سلوكيات حياة الليل عليها كثيراً، رغم أنها كانت تعيش على خط موازٍ لها، بدون علاقات قذرة متداخلة بينها وبين روادها. كانت تؤدِّي على المسرح، وتجامل من يجاملها من جمهورها، وتحاول عدم التورط في أوحال المجتمع الراقي.

ـ هل يضايقك أحد في الحي الجديد الذي انتقلت إليه؟ سألها أبوها ذات يوم وهو يعني أصولهم الألمانية، ونظرة باقي الجنسيات إليهم.

ـ أنا لم أعد ألمانية بل أميركية.

ـ أعتقد أنني من زمان أخطأت بعدم سكني في «أناهيم»(*).

ـ الأسوأ من حيث المعاملة هم الأميركيون من أصول يابانية.

ـ بسبب الضربة الغادرة في بيرل هاربور.

بدأت عوارض دوخة مفاجئة تصيب كات أحياناً، خصوصاً بعد مجهودها في تقديم اللوحات الراقصة مع الفرقة، وأصبحت تتأثّر كثيراً برائحة دخان التبغ والسيكار في الملهى المغلق، وعندما زادت هذه العوارض بشكل شبه يومي عليها ذهبت إلى طبيب تستشيره، وعرفت أن سبب ما تعانيه هو

(*) أناهيم تعني «القرية» باللغة الألمانية وكان يسكنها الكثير من ذوي الأصول الألمانية.

الحمل، واندهشت كثيراً من حدوثه لأنها كانت تستخدم نظام حسابات الأيام، التي تمكّنت بواسطته من ممارسة الجنس لمدة سنتين بدون حمل. أما جايمز فقد واجه ما سمعه منها بوجوم تام وعينين تريدان أن تقولا مجرد كلمة، لكنه بدا أنه آثر التريث. واحتارت كات من ردة فعله، وبرّرته بكونه لا يريد بناء أسرة، ويفضّل أسلوب حياته ولا يريد تغييره لأي سبب.

ـ منذ أربعة أيام وأنت صامت ولم تعلّق على موضوع مشترك بيننا. قالت كات لجايمز.

ـ هل تعتقدين حقاً أنه مشترك بيننا؟

ـ جايمز! ماذا تريد أن تقول بالضبط؟

ـ ليس مستبعداً على من تفتح حساباً مصرفياً وتخفيه عن عشيقها أن يكون لها علاقة أخرى أيضاً لا يعلم بها، أو علاقات عابرة.

ـ هل تقرأ أوراقي في غيابي؟ هل وصل التفكير بك لهذه الدرجة من الوضاعة؟

ـ مجرد احتمال وأنا رجل حذر للغاية..

ـ لم أطلب نقوداً منك منذ بداية علاقتنا، ولأننا لسنا زوجين فمن حقي التصرف كيفما أشاء بأموالي، ولا يحق لك مطالعة مستنداتي أيضاً.

ـ ....

ـ عمري قصير في هذه المهنة، وأنت تعلم أنهم يركضون خلف العشرينيات دائماً، وهذا شيء طبيعي.

ـ لم أفهم ما تقصدين.

ـ جايمز! أنت لا تريد أن تفهم. سأحتفظ بالجنين مهما كانت أفكارك وقراراتك. وسأسجله باسم عائلتي بسبب الإهانة التي وجّهتها لي. لن أنساها يا جايمز!

لم يعقب جايمز سكوت بكلمة واحدة على عبارة كات الأخيرة، وإن راهن على عدم احتفاظها بالجنين لأنه يعلم تماماً أنها قد تختار الموت، ولا تستطيع البعد عن التصفيق والوقوف أمام المعجبين، والأضواء التي أدمنتها وأخلصت لها، وتؤدِّي تحت وهجها كل ليلة وكأنها تقف لآخر مرة أمام الناس. طريقها الذي تتمنّى أن ينتهي بها إلى الشاشة الكبيرة. حبها غير المتغير الوحيد كما بدا له، فقد رأى قبلها الكثيرات ممن يطلبن الشهرة، ولم تكن الشاشة الأمر الأساسي الذي يطلبنه، بل كانت وسيلة إلى جمع المال والقوة والمعجبين والنفاذ إلى الطبقات العليا.

الفصل الثاني

فوجىء جايمز سكوت بكات تنفّذ ما قالته، عندما جاء من يهمس له بأنها أخبرت إدارة الملهى بأمر حملها، واستشارت طبيبها بعد ذلك ونصحها بالتوقف تماماً عن الرقص حتى تضع الجنين المرتقب. ولم يبقَ لها على صعيد العمل في شهورها المتبقية سوى تصوير الإعلانات التجارية لفترة محدودة أيضاً. وقد أتاحت فترة الحمل لها مراجعة كل ما حدث منذ وصولها إلى «صن ست بولفار»، وخرجت من تأملاتها بيقين شبه مؤكد أن أملها بالنجومية في عالم السينما مجرد حلم لن يتحقّق، وأن خطوات صعبة تنتظرها بعد فترة لا يعلم أحد مداها، لتعود إلى ما كانت عليه قبل الحمل.

ـ الوقح ابن العاهرة!

جملة طالما ردّدتها كات في ما بينها وبين نفسها، كلما تذكّرت مواقف جايمز منها خصوصاً في الفترة الأخيرة. وأصبحت على قناعة تامة أن الرجل يهرب من أي مسؤولية في حياته، ما عدا عمله مع تيم مارشال ولهوه والطريقة اللامبالية تجاه تفاصيله اليومية الشخصية. ولولا استعداده لتحطيمها مستقبلاً لطردته من بيتها بعد حديثهما عن الجنين

وشكوكه الرخيصة فيها، وكانت لطمته على خدِّه وركلته خارج حياتها ومصيرها لو عاد. كانت تعرفه تماماً وتعلم يقيناً أنه لا يقدِّر عذاب الناس، بسبب أنانيته المفرطة والطرق غير الشريفة التي يستخدمها للوصول أو التخلي عن أي إنسان أو أمر.

كما واجهت كات بكل ثبات وصبر الإعصار الأخلاقي الذي أثاره أبوها بعدما عرف بحملها، وأفهمته بأنها لن تتخلص من الجنين حتى لو تبرّأ منها وقاطعها، ووقفت أمها إلى جانبها هذه المرة، إضافة إلى دعم أختها المعنوي غير المنقطع لها. فرغم صلابة كات الظاهرة، كانت امرأة تحتاج إلى الحنان والاهتمام، تماماً مثل القطط التي تبحث عن الهدوء والدفء لتهضم طعامها وتلعق فروتها، بعد الركض في الطرق وبين خطر السيارات للبحث عن بقايا طعام تقتات به.

انتقلت أختها لورا للحياة معها في الشهرين الأخيرين من حملها، اللذين عاشتهما كات وهي تترقّب اقتراب موعد ولادتها بكل شوق ومحبة. كانت سعيدة للغاية وأقنعت نفسها بتخطِّي زئبقية جايمز الذي لم يعد يتردّد كثيراً إلى البيت، لأنه مشغول بعمله كما كان يقول، ويرافق مارشال في نيويورك لتصوير بعض لقطات خارجية لفيلمه الأخير فيها، وكان على اتصال هاتفي بها كل بضعة أيام. ورغم حججه التي لم تصدّقها كات، نام يومياً في منزلها خلال الثلاثة أيام التي ذهبت فيها إلى المستشفى لتضع جنينها، لأن قمصانه المنشّاة

المكوية، وكذلك باقي ثيابه كانت هناك، بينما كانت أختها لورا ترافقها وتنام بجوارها في المستشفى يومياً.

ـ هل هذا منزلك؟ قالت له إحداهن مساء ثاني يوم كانت فيه كات في المستشفى.

ـ نعم. أجاب باقتضاب.

ـ وهل أنت متأكد من عدم وصول زوجتك في أي لحظة؟

ـ زوجتي؟

ـ ألم تلاحظ صورتها على الحائط؟!

ـ إنها صديقتي.

ـ ويبدو لي أنها صاحبة المنزل. لا يُعقل أن تضع صورة لصديقتك بهذا الحجم على حائط بيتك.

ـ ما تقولينه صحيح إلى حدٍّ ما.

ـ وأين هي الآن؟ أنا لا أحب الأمور غير المتوقعة أثناء عملي.

ـ في المستشفى؟

ـ لماذا؟

ـ لتضع مولودها.

ـ هل يمكنني الذهاب من هنا؟!

ـ لماذا؟

ـ أنا لست بحاجة ملحّة إلى نقودك لأكون في هذا الموقف.

ـ ومنذ متى كانت واحدة مثلك لديها مثل تلك الأحاسيس؟

ـ هذا صحيح يا هذا، لكن لديَّ حداً أدنى من اللياقة.

ذهب جايمز في اليوم الأخير لكات في المستشفى، الذي كانت تزيّنه أضواء وأشجار الكريسماس، لأن ابنته وُلدت في العشرين من كانون الأول/ديسمبر 1944، وكانت قد سبقته باقة ورد باسمه أرسلها قبل ساعات، وعلى وجهه ملامح محايدة، وطبع قبلة على خد كات ثم صافح أختها، وهو يعتذر عن حضوره في اليوم الأخير مردِّداً حجته نفسها، وحمل طفلته وهو يبتسم لها، وبدا لأول مرة متعاطفاً منذ بدء حمل كات، وكأنه استوعب ما يحدث بعد أن كان الأمر مجرد كلمات وامرأة ذات بطن منتفخ، وحاول أن يبدأ حديثه مع المولودة لأنه لم يجد جملة حاضرة في ذهنه ليقولها للكبار. فتح كيساً كان معه بعد أن وضع ابنته بجوار أمها، ومن خلال صوت الغلاف الورقي، مازحها وهو ينظر إليها.

ـ انظري ما اشتريته من أجلك من نيويورك.

ـ هدية جميلة. قالت لورا.

ـ جميلة مثل الطفلة. إنها تشبهك يا كات. أليس كذلك؟

ـ لون البشرة والملامح بشكل عام. أجابت.

ـ هل نيويورك باردة؟ سألته كات بعد دقائق وهي على يقين أنه لا يسمع الأخبار كدأبه.

ـ ليس كثيراً.

ـ يبدو أنكم كنتم دائماً في الفندق؟

ـ لماذا؟

ـ لأن الثلج في شوارعها منذ بضعة أيام، والناس لا يتحركون كثيراً.

ـ حقاً؟

ـ هل فكرت في اسم للفتاة؟ سألته كات بعد دقائق من الصمت.

ـ تركت الأمر لك لأنها أنثى. اختاري وأنا واثق باختيارك لاسم جميل.

اكتملت صورة جايمز سكوت أمام كات بطريقة لم ترَه فيها مطلقاً وهو جالس معهم في المستشفى. إنسان لا يحتمل فكرة وجود أحد معه، وتتم كل تعاملاته مع البشر من بعيد في حياته، ولا شيء دائماً فيها سواء كان نساءً أو مالاً أو حتى أبناء. مخلوق يعيش بلا التزامات، يكره المسؤوليات، ما عدا عمله الذي يعطيه كل حياته، ويرد على تلفون تيم مارشال أو أي هاتف يخصّه بكل انتباه، حتى لو احتسى نصف زجاجة ويسكي، وعلى استعداد للتخلي حتى عن جلسة لعب القمار لو تصادفت في يوم عمل لمارشال.

ـ أفكر أن أسمّي الفتاة دينيس... ما رأيك؟ سألته كات وهي تتأمل ملامحه.

ـ حقاً؟

ـ مجرد اقتراح.

ـ اسم لطيف فعلاً. دينيس. لِمَ لا؟

لم يتغيّر جايمز بعد وجود طفلة في المنزل هي ابنته. لم تبدّل هذه الحقيقة حتى جزءاً من سلوكه المطبوع عليه في التعامل مع كل الأمور. وهو من جهة أخرى إنسان بلا صديق، رغم علاقته بعدد كبير من الناس. كما استمر في علاقته مع كات بالوتيرة نفسها، وإن اتسعت هوة العلاقة الجسدية بينهما لأنها لم تعد تستسيغها أو تشعر باللذّة فيها، بعد حالة النفور التي سيطرت عليها منه، وعدم تقبُّلها حتى لرائحته أو بقايا رائحة العطور التي يتعطّر بها في فراشها، وكانت ترضخ له أحياناً نادرة بعد أن يضع الواقي الذكري، وتظل بعدها أياماً في حالة ضيق نفسي بالغ.

ظلّ جايمز يتردّد إلى المنزل لحاجته إلى خدمات كات، لأنه رجل لا يعرف أين هي قمصانه، ولا كيف يضع طعامه في صحنه، أو يسخّن طعاماً في براد. طبعته العلاقات العابرة والإقامة في الفنادق والأكل في المطاعم والملاهي، على الاتكال على غيره واستغلاله لمصالحه الشخصية. واحتفظت كات بخيط رفيع بينهما، لتصوُّرها أنه يمكنه أن يضعها على رفوف النسيان بنفوذه، ولأنه أدبياً والد طفلتها وأي طفل بحاجة إلى رجل وامرأة بجواره، كما كانت تراهن بنسبة ضعيفة جداً على تحوله بعد أن يتقدّم به العمر، أو تتدخّل صدفة تجعله بحاجة دائمة لوجود هذه الأسرة معه.

لم تستطع كات الاستغناء عن إقامة أختها لورا معها في

المنزل دائماً وليس كمجرد زائرة، خصوصاً بعد عودتها إلى عملها بعد ثلاثة شهور من الولادة. كانت بحاجة ملحّة لوجود شخص مع ابنتها ليلاً. حتى تعود بعد منتصف الليل، وأحياناً قبل الفجر من «صن ست بولفار»، بعد أن عادت للعمل في مكان آخر، لأن أصحاب الملهى الذي كانت ترقص فيه قبل توقفها بسبب الحمل، أبدوا تردّدهم تجاه عودتها بكامل لياقتها ومرونتها، واقترحوا عليها في الفترة الأولى، أن ترقص في الصفوف الخلفية للمجموعة الاستعراضية، لكنها رفضت وفضّلت مكاناً أقل شهرة من هذا المربع لكن أصحابه يعرفون قدرها.

ـ أنا لا أعرف حتى هذه اللحظة لماذا تحتفظين بعلاقتك معه؟ سألت لورا أختها كات وهي تقصد جايمز سكوت.

ـ أعيش في عالم تؤثّر فيه مجرد همسة من سافل مثله لأي أحمق صاحب نفوذ، قد تقضي على حلمي بالوصول للسينما.

ـ لكنك أصبحت على علاقة مباشرة بأصحاب الأعمال أنفسهم، الذين يمكنهم مساعدتك.

ـ حبيبتي. أرى هؤلاء الناس مجرد دقائق، لكن هناك من يعيش بينهم ويدخل بيوتهم، ويعرف أسرارهم ويؤثّر عليهم لكونه مقرّباً ويعرف التفاصيل.

ـ وهل ستستمّرين هكذا؟

ـ حتى تتغيّر ظروفي.

ـ وكيف ستتغيّر وباهت البشرة هذا يمسك بكل خيوط حياتك؟

ـ ربما تتغيّر ظروفه هو ويغرب عن وجهي.

ـ أتعجّب كيف قلت في بداية تعارفكما إنَّ الثقة ترشح من صوته. هل كانت الثقة هي التي سمعتها؟

ـ كان كذبه الذي يقوله بثقة.

ـ بل غروره الذي يجعله يظن أنه أذكى الناس.

لم تكن لورا تكنُّ أي مودة لجايمز، ولم تستطع ولا مرة التعاطف معه. كرهته من اللحظة الأولى التي رأته فيها، ربما بسبب استغلاله لأختها، أو لسبب آخر هو شخصيته غير المريحة بالنسبة لها. كانت لورا لا تشبه كات في جمالها، وتعطي انطباعاً عند الذين يعرفونها بأنها لا تصلح أن تكون إلّا سيدة منزل، بسبب بساطتها في التعامل مع الناس، وتديُّنها الذي يبدو واضحاً من كلامها وأسلوبها، وفعل التسامح الذي تمارسه تجاه معظم الناس، الذي جعلها تجد المبررات لأختها دائماً، وتقف موقف الناصح الملطف للأجواء في ما بين أبيها وكات، لأنها لم ترث الطبع البري الحاد الموجود في سلوكيهما، والذي يجعلهما ينفعلان بشدة ويتفوّهان بكلام شديد اللهجة والمعاني أحياناً؛ فقد كانت هي أقرب إلى طباع أمها الهادئة شبه المبتسمة دائماً، أما وظيفتها فلم تكن تمتّ إلى ما تعمله أختها بأي صلة، لأنها كانت معلّمة موسيقى في معهد عالٍ، ولعبت وظيفتها دوراً هاماً

بالنسبة لكات إذ جعلتها تميِّز بين أنواع الموسيقى والهارمونيا، وثابرت حتى جعلتها تقرأ النوتة الموسيقية كأي عازف رغم سخرية أختها منها.

ـ المطلوب مني هو أذنان تنصتان جيداً إلى الألحان، وجسم قادر على التعبير. قالت كات لها بينما كانت تعلّمها أبجدية الرموز الموسيقية تمهيداً لقراءتها.

ـ وما هي المشكلة لو تعلّمت أساسيات شيء لا تستطيعين الاستغناء عنه؟

ـ المشكلة أنه لن يفيدني.

ـ ستكونين مثل الذي يقود سيارة ولا يعرف أبسط قواعد تشغيلها وكيفية عملها.

ـ هل ستصبرين على جهلي حتى أتعلّم؟

ـ سأصبر حتى تشكريني ذات يوم على أمر سيجعلك على دراية بما تؤدِّينه.

بدأ الرئيس روزفلت عقب عودته من يالطا متعباً وأكبر سناً من عمره البالغ ثلاثة وستين عاماً، وذهب للاستجمام في أواخر آذار/مارس 1945 إلى «وورم سبرينغ» لكنه توفي في الثاني عشر من نيسان/أبريل بسبب نزف في الدماغ، والحرب العالمية الثانية ما زالت دائرة. وتولى نائبه هاري ترومان الفترة المتبقية من رئاسته، حسب ما ينص الدستور الأميركي. وقال ترومان بعد جلوسه في المكتب البيضاوي في البيت الأبيض إنه «يشعر أن القمر والنجوم وكل الكواكب قد وقعت

فوق رأسه». وتساءلت الأمة الأميركية والعالم إذا كان الرجل كبيراً ما فيه الكفاية ليحل محل روزفلت في تلك الظروف بالغة الحساسية، لكن ترومان صاحب الخلفية الدراسية التي لم تصل للجامعة، والمظهر الخارجي غير الواعد بأن يكون رئيساً بحجم المسؤولية الجسيمة الواقعة على كاهله وعاتق بلده، أمر بإلقاء أول قنبلتين ذريتين في التاريخ على مدينتي هيروشيما وناغازاكي في اليابان في السادس والتاسع من شهر آب/أغسطس عام 1945، وهو على قناعة شخصية تامة من أن هذين العملين، سينقذان الأرواح الأميركية من حرب طويلة، وينهيان الحرب العالمية الثانية بسرعة أمام اليابان، الدولة الوحيدة التي ظلت تحارب بعد سقوط دول المحور، ودخول الحلفاء إلى روما وبرلين.

شعرت كات بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية رسمياً، في الثاني من أيلول/سبتمبر سنة 1945، بإمكانية سماع خبر عن صديقها جون كارسون، وتمنّت أن تعلم من كل قلبها أي معلومة عنه، وصارت تتنسّم أخبار الطيارين المقاتلين من بعض الرواد الشباب الجدد الذين ظهروا في مرابع «صن ست بولفار»، بعد أن بدأت عودة بعض المقاتلين الأميركيين قبل نهاية السنة ليقضوا عطلات الأعياد بين ذويهم. وشاركت صديقاتها في الاستفسار من أجلها عن الذين اشتركوا في هذه الحرب على جبهة أوروبا، وتحديداً فوق حاملات الطائرات. تلك الجبهة التي أخبرها جون عن وجوده فيها في خطابه

المقتضب، وكانت كات تستمع وقلبها يرتجف خوفاً من نبأ مشؤوم عنه.

ـ لماذا لا تتصلين بأهله بدلاً مما تفعلينه؟ سألتها زميلة لها.

ـ لم أعد في حياة الرجل. وقلبي هو الذي يسأل عنه.

ـ ولماذا لا تنسينه مثلما نسيك؟

ـ لأنه ذكرى غالية أستعيدها بمجرد سؤال من بعيد لا يُخدش كرامتي.

كان جون حب كات العذري والجسدي في الوقت نفسه، وكانت عذريته بسبب وجوده في منطقة الخيالات والأحاسيس والمثل العليا، التي تستمر عند بعض الناس من طفولتهم إلى الكهولة، ولا تتلفها اغتصابات الآخرين لمشاعرهم، أو ما تفعله صراعات لقمة الخبز والتدافع على المناصب وعبء المسؤوليات عليهم. وكانت كات تلجأ إلى مجرد تذكّر ملامحه الموجودة في تلافيف دماغها أحياناً، لتستطيع مواصلة حياتها، حتى بعد إنجاب دينيس ابنتها وازدياد وطأة الضغوط الحياتية عليها، رغم وجود أختها معها دائماً. وكثيراً ما تذكّرت ضحكته العالية عندما قالت له إنها تحبه مثل أبطال الروايات البوليسية التي قرأتها وتخيّلت أن أحداثها حقيقية، وتمنّت لقاء أبطالها وزيارة الأماكن التي عاشوا فيها ومارسوا مهاراتهم في البحث عن المجرمين.

سألها جون ما إذا كانت فعلاً تصدّق ما تقرأه وهي في

التاسعة، وأجابته بأنها آمنت بصحته في ذلك الوقت لدرجة اليقين الذي يقبل به كما هو، وأن الأمور الموجودة ما زالت كما هي صادقة بريئة في صور ذاكرتها. ولم تنسَ كات النظرة المباشرة التي تأمل بها جون كارسون عينيها وهو صامت بعد سماعه جوابها، كما لم تعرف لماذا اقشعر بدنها منها. لم تخف ولم تشمئز. اقشعرّت كل ذرة من كيانها، مثلما يقشعرّ الإنسان الخارج من مكان دافىء إلى برد الشارع.

ورغم كل ذلك لم توجد قوة على الأرض استطاعت دفع كات للذهاب والسؤال بشكل مباشر عن جون، خصوصاً بعد التغيرات التي حدثت في السنوات الأخيرة في حياتها.

ـ بأية طائرة مقاتلة كان صديقك؟ سألها أحد الساهرين يوماً، بعد أن عرفت أنه كان على متن حاملة طائرات غربي أوروبا، وذهبت لتسأله.

ـ لا أعلم.

ـ لا يمكن لأي مخلوق أن يساعدك ولا حتى أنا.

ـ ولماذا أنت واثق من عدم استطاعة أي إنسان مساعدتي؟

ـ لأنني شخصياً كنت على ظهر إحدى حاملات الطائرات، وبدون معلومات دقيقة لا يمكنني المساعدة.

ـ عفواً. لم أفهم سؤالك الأول.

ـ أقصد نوع الطائرة المقاتلة، أو اسم حاملة الطائرات التي كان يُقلع منها.

ـ لا أعلم.

ـ كيف كنتما صديقين؟ هل تعرفين اسم عائلته واسم أبيه؟ سألها وسط ضحك الموجودين على البار.

ـ جون. جون ألكسندر كارسون.

ـ يجب أن تشتري ورقة يانصيب الليلة.

ـ لماذا؟

ـ لأنني أعرفه. لقد خدم الرجل معي على حاملة الطائرات نفسها.

عرفت كات أن حبيبها كان طياراً مقاتلاً على طائرة «ب 12»، وشارك في الطلعات الجوية التي لم تنقطع على مدار الساعة، وقصفت ميناء بريمن الألماني في العام 1943 وأواخر العام 1944، إضافة إلى أهداف صناعية أخرى، وأدى هذا القصف المركّز إلى شلل الصناعة الألمانية تماماً في تلك الفترة، وتقويض الصناعات النفطية تحديداً. وعندما شارك جون في أكبر معارك للطيران من حيث عدد الطائرات المقاتلة شمالي أوروبا، التي بلغت عدد الطائرات الألمانية فيها فقط ثمانمائة طائرة، انقطعت عملياً أخباره عن الشاب الذي أعطاها المعلومات، لأن جون انتقل إلى حاملة طائرات أخرى بعد إصابة أدّت إلى احتراق طائرته.

ـ على فكرة. يجب أن توقفي سؤالك عن صاحبك القديم؟ قال لها جايمز سكوت.

ـ ومن الذي أخبرك أنني أسأل عنه؟

ـ بلهاء من اللاتي يعملن معك.

ـ على أية حال أسأل عن صديق قديم، ولا شأن لك بالأمر.

ـ لا أظن أن مثله يمكن أن يسأل عنك.

ـ جايمز سكوت! أنا أعرف تماماً من أكون، وأعلم من أنت، ولا أريد من أحد أن يتدخل في شؤوني الخاصة.

سكت جايمز تماماً ووضع يده على ربطة عنقه يتحسّسها، ثم اتجه إلى الباب وغادر الشقة وهو صامت لأنه كان يعرف من خبرات سابقة، ماذا يعني أن تقول كات اسمه كاملاً بالنبرة نفسها التي تكلمت بها منذ لحظات. كانت أحياناً تأخذ زمام المبادرة منه، رغم طلاقة لسانه وتجبره على السكوت. ولم تسأل كات بعد ذلك عن جون، ليس خوفاً من جايمز بل لأنها تأكدت أنه لن يتصل بها، بعد مرور بضعة شهور على رجوع كل المقاتلين الأميركيين من جبهة أوروبا. تيقّنت من تلقاء نفسها أن حبيبها القديم تبدّلت حياته، وكان أمراً طبيعياً أن يتغيّر بعد كل هذه السنوات، التي أضافت لها أبعاداً أخرى في شخصيته ربما لا تعرفها هي، جعلته يحرق كل صفحاته السابقة ليبدأ صفحة جديدة، بعدما سمعت كثيراً أن الحروب تغيِّر من سلوكيات ومشاعر من اشتركوا فيها. وقد جرفتها حياتها اليومية مرة أخرى بشكل نهائي بعيداً عن أوهامها التي صوّرت لها أنها ستلتقي جون. وساعدها على ذلك أختها لورا التي ردّتها إلى صوابها مرة أخرى.

ـ كان كل ما بينكما مجرّد صداقة وانجذاب جسدي. هذا رأيي الخاص.

ـ لا يمكن أن أنسى سلوكه معي ونظراته لي.

ـ بعض الرجال سلوكهم رائع حتى في العلاقات العابرة.

ـ وكلامه؟

ـ والبعض لديهم القدرة على الكلام، هذه موهبة. وقد تتخيّل فتيات كثيرات أن هذه الطريقة هي لهنّ وحدهن، وتقع الأوهام بسبب ذلك.

كان لاري تانر وزوجته سارة يزوران كات من حين لآخر، بعدما قويت أواصر العلاقة بين لاري وبينها بسبب العمل الذي حوّلهما إلى صديقين مقرّبين يرتاح كل منهما لوجود الآخر كثيراً، وكانا قد زاراها في المستشفى بعدما وضعت ابنتها دينيس، ودخلت على هذه الصداقة أيضاً سارة زوجة لاري التي كانت تعمل بالخياطة، ولديها طموح بفتح دار أزياء صغيرة، وبسبب إيمان لاري بموهبة كات استطاع تسويقها في ربيع العام 1946 لشركة عطور كبرى لتكون فتاة إعلاناتها بمبلغ باهظ، شرط أن يكون تمثيلها حصرياً لهذه الشركة.

ـ ألا ترى يا لاري أن شروطهم مقيّدة لي؟

ـ لماذا؟

ـ سيجعلونني حصرية لهم.

ـ لا تنسي أن حصتك المالية سنوياً معهم، توازي عمل

سنة كاملة في عدة إعلانات متفرقة. وهذه فرصة قد لا تحصل عليها محترفات.

ـ هل تنصحني بالتوقيع غداً؟

ـ ولِمَ لا؟ إنهما سنتان على أية حال ويحق للطرفين عدم تجديدهما.

ساعد ظهور كات كفتاة إعلان لهذه الشركة، على فرض شروطها المالية عندما بدأ الملهى الذي كانت ترقص فيه قبل حملها وولادتها على التفاوض معها للعودة للعمل فيه. وعادت إلى مكانها الأول في «صن ست بولفار»، وبرفقتها سارة زوجة لاري كمصممة أزياء للفرقة الراقصة، وقد قبل الملهى شروطها لأن اسمها بدأ يلمع في الشارع الذي دبّت الحياة فيه مرة أخرى بعد استقرار السلام العالمي، ورصد عدد من روّاد عدة أماكن يأتون لمشاهدتها بشكل خاص، وقد أدخلت إدارة المربع فقرة حوارية ضاحكة ما بين أحد نجوم الكوميديا الارتجاليين الذين يبنون مواقف هزلية مع روّاد الصالة، وجعلت كات الشخصية النسائية مع الرجل، لإضفاء عنصر ترويجي يعتمد على صورة وجهها التي باتت مألوفة لدى الناس، والإيحاء الجنسي غير المباشر الذي يهمس به الزي التقليدي لراقصات تلك الأيام، وإطلالة كات المثيرة وصوتها النسائي الجذّاب.

كان طبيعياً أن يحوم حول كات في هذه الفترة رجال من متذوِّقي الجمال، ومن محبّي التوقيع على أجساد الحسناوات

بقدر ما يكون ثمنها، ومهما بلغت كلفتها لدى امرأة في مثل جمالها، لكنها كانت ترفض بلباقة لأنها لم تكن تريد إضافة جايمز سكوت آخر إلى حياتها. اكتفت من العيش بينها وبينه بما يشبه معاهدة بين دولتين على رف الإهمال، لأنها كانت تعتبر أن ابنتها هي صلة الوصل الوحيدة بينهما، رغم عدم تفوّهه بأي كلمة تنبىء عن نيّته بتغيير شكل علاقتهما في يوم ما، أو الاعتراف ببنوة دينيس. ومن جهة أخرى اعتبرت هي وجود سكوت في حياتها يشبه وجود كلب ضخم في حديقة فيلّا، يمنع اللصوص والفضوليين من محاولة اقتحامها. وكانت سعيدة حقاً بوجود لورا في منزلها، لأنها أعادت اكتشافها مرة أخرى وهي تعيش معها، بعدما تركت منزل والديها، إلّا من بعض ثيابها وأغراضها، كوجود رمزي في منزل عائلتها. وقد اكتشفت كات أموراً رائعة في لورا لم تلاحظها فيها من قبل، جعلتها توليها ثقة كاملة في إدارة شؤون البيت.

وصلت كات إلى حالة اقتناع بما وصلت إليه، في عملها والعقد الإعلاني الذي وقّعته، وبوجودها على هامش أصحاب هالات النور في دنيا السينما، رغم أنها ما زالت تحلم بوجودها في صفحات الكتاب السحري نفسه، وبابنتها التي كانت تعطيها إحساساً خاصاً بقيمة حياتها. كان ذلك الشعور هو ما تثيره ابنتها فيها وهي في سريرها الصغير بجوارها، بعد سهرة كانت العيون تدقّق في كل سنتيمتر فيها، ولغة النظرات

تفيض بالشهوة نحوها، سواء كان جايمز على السرير الأيسر بجوارها أو لم يكن. لم تستطع كات تفسير إحساس الطمأنينة الذي يفيض به قلبها، عندما ترى ابنتها نائمة في سريرها الصغير، بعد جهود خالتها المسائية معها قبل النوم، التي تقدّرها كات كثيراً وتعتبر أن وجودها سبب استمراريتها في عملها، وكثيراً ما فكّرت ماذا ستفعل بعد زواج لورا، لأن أباها لا يمكن أن يعيش مع أمها في منزلها، بسبب رأيه الخاص في حياتها، وأمها لا تستطيع أن تترك والدها يعيش وحده في «باسادينا»، بينما هي تعيش مع ابنتها في «هوليوود بولفار»، ولم تجد حلاً سوى تأجيل التفكير في مرحلة ما بعد زواج لورا إلى المستقبل.

ـ مساء الخير يا حلوة.

عبارة سمعتها كات قبل الفجر بساعتين، في أحد أيام الصيف الأولى في حزيران/يونيو 1946، وهي تهمّ بمغادرة المربع الذي تعمل فيه بعد انتهاء عملها، وأحسّت بعدها كأن كل شيء في الكون قد صمت وتوقف عن الحركة حتى تنفّسها. ولم تنظر باتجاه الصوت الذي قال العبارة، من بين بعض الطاولات التي ما زال أصحابها يتسامرون، لأنها شعرت أن أمراً التبس عليها وجعل أحاسيسها تصاب بحالة شلل مفاجىء.

ـ كاترينا!

اتجهت كات بعينيها إلى مصدر الصوت بعدما انقشع الالتباس وأدركت من هو صاحبه.

ـ جون؟

ـ أنا هنا منذ حوالى ساعة.

قال جون وهو يتّجه إليها ويمدّ يده بالمصافحة. لكنها لم تمد يدها وبمجرد أن اقترب كثيراً منها نظرت في عينيه وقالت:

ـ اعتقدت أنني لن أراك أبداً. لقد اشتقت إليك فعلاً. أين أنت ومتى عدت؟

ـ حكاية يطول شرحها، المهم أنني عرفت أنك بخير.

ـ عرفت؟ لا بدّ أنك سألت عني.

ـ . . . .

ـ أودّ أن أسألك مليون سؤال لكن يبدو أنها طارت من رأسي.

ـ أعلم أنك مرهقة ولا بدّ أن تعودي إلى منزلك. كيف يمكن أن أراك؟

ـ غداً؟

ـ اتفقنا. لكن أين؟

ـ أتمشى مع ابنتي بشكل شبه يومي في حديقة قريبة من «هوليوود بولفار».

ـ أعرفها. في أي وقت تذهبين عادة؟

ـ بين الثالثة والرابعة بعد الظهر.

ـ سأكون هناك غداً. هل يناسبك هذا؟ هل تريدين أن أوصلك إلى سيارتك؟

كان واضحاً في ضحى اليوم التالي أن كات لم تنم ما فيه الكفاية ليلاً. أيقظ اللقاء الذي ظنّت أنه لن يتم أبداً، كل ما لديها من أحاسيس وذكريات وترقب، لدرجة أنها خافت وتمنّت في لحظة لو أن جون لم يأتِ لرؤيتها، وكانت حكايتهما قد انتهت كذكرى نفيسة لها. وتساءلت في لحظة أخرى عن المغزى الذي دفعه إلى الحضور، فالمرابع كثيرة ومجالات التسلية لا تُعدّ. ونصحتها لورا في الصباح أن تهدىء انفعالاتها وتتروّى، لأن الاحتمال الأكبر هو عودة جون كنوع من الفضول الذي لن يستمر طويلاً، ويشبه اللحظة غير المُفسرة التي كتب فيها خطابه، ولم يرسل أي شيء بعده. ورأت كات في كلام لورا معنى معقولاً، فما أدراها أن الرجل لم يتزوج، أو حتى أنه يعيش مع خليلة، أو لم تغيِّر الحرب من شخصيته.

بدا جون عندما وصل إلى الحديقة أضعف وأقل وزناً مما كان عليه آخر مرة رأته فيها قبل مغادرته إلى الحرب. ولاحظت كات بعد فترة من حديثهما، أن ملامح الطفولة التي رافقته حتى عمر الرابعة والعشرين، حلّت محلها ملامح منتصف ثلاثينيات العمر، ولا الثامنة والعشرين عمره الحقيقي. رجل ما زال محتفظاً بطريقة تصفيف شعره نفسها، كأنه لم يزل تلميذاً في كلية الطيران، ازدادت صلابة عوده

وخشنت كفاه، ويوحي لمن يتحدث معه أنه سعيد بالحياة من حوله ويحاول الاستمتاع بكل دقيقة فيها، بعد مروره بفترة عصيبة لم يعتقد أنه سيعبرها وهو على قيد الحياة. وعندما تذكّرت ما قاله زميله على حاملة الطائرات نفسها، لم تصدِّق أن الشاب الذي يتمشّى بجوارها قاتل، قصف بشراً ومعامل وشركات وطرقاً، وتسبّب بتشويه من لم يمت بسبب قذائف طائرته. وارتعد بدنها وهذه الخواطر تمرّ كغيوم أيلول/سبتمبر فوق المحيط أمام مخيلتها. ويبدو أنه قرأ خواطرها لأنه قال أثناء حديثهما وبدون مناسبة، إنه لو لم يفعل ما فعله لكانت اصطادته المضادات الأرضية، أو أي طائرة من الأسراب التي كانت تواصل طلعاتها بما يشبه جحافل الجراد المتعطّش إلى اللون الأخضر.

روت كات وهي تتمشّى مع جون في المنتزه وابنتها على عربتها الصغيرة أمامها، كل الخطوط العريضة في حياتها التي حدثت بعد سفره، وكان جون يستمع ويشاركها بهزّ رأسه، أو بإبداء علامات الإعجاب عندما أخبرته عن موضوع حصولها على منصب فتاة الإعلان الحصرية لإحدى الشركات الكبرى، ثم قال لأول مرة بعد أن استمع إليها كثيراً:

ـ سوف تتّجه العيون إليك عندما تدخلين المحلات.

ـ هل تعتقد أن هذا الأمر جيد؟

ـ أكيد لأن الكل سيحاول أن يرضيك، وستجدين أناساً لا

تعرفينهم يستقبلونك بابتسامة. هل تعرفين معنى ابتسامة من شخص لا علاقة لك به؟

ـ قبل أن أنسى.. لماذا كتبت لي أثناء الحرب؟

ـ لكي أودّعك. لأنني وقتها بالتحديد، لم أشك لحظة في خروجي من الأتون ميتاً. طلعات جوية لم تتوقف. المهم أن الرسالة وصلتك على ما يبدو.

ـ ولماذا لم تحاول رؤيتي مباشرة بعد نهاية الحرب؟

ـ كنت من أواخر الناس الذين عادوا، وكان لديّ الكثير لأفعله، إضافة إلى وفاة أبي منذ فترة وجيزة جداً.

ـ فترة وجيزة؟

ـ نعم. وكأنه كان ينتظر عودتي.

ـ أنا آسفة لسماع ذلك. ما هي مشاريعك المستقبلية؟

ـ سأستمر على المنوال نفسه كطيّار حربي، مع عدم وجود حروب حتى هذه اللحظة، وفي عمر الثلاثين سأنتقل إلى الطيران التجاري. لقد تعبت كثيراً.

ـ وأين تعمل حالياً؟

ـ فوق حاملة طائرات في المحيط الأطلنطي.

ـ هل الحياة فيها ممتعة؟

ـ مدينة عائمة والحياة فيها جميلة جداً. فترة فريدة من حياتي.

ـ سمعت من أحدهم عن طائرتك التي أصيبت أثناء الحرب.

ـ اشتعلت فيها النار بسبب قذيفة، وأمروني بعدم العودة إلى حاملة الطائرات لأنها ستسبِّب مشكلة كبيرة، وقد تنفجر فجأة قبل إصلاحها.

ـ وماذا فعلت؟

ـ تركتها وهبطت بالمظلة.

ـ لماذا لن تستمر في عملك كطيّار حربي؟ يبدو أنك تحب هذه الوظيفة.

ـ سأنتقل إلى الطيران التجاري كما أخبرتك لأنني فعلاً أعشق الطيران، أما وظيفتي العسكرية فلن أستمر فيها، ولا أودّ الاتجاه إلى التعليم بالكلية، أو الاستمرار في الجندية.

عرفت كات من جون أنه يعمل مدة ستة أسابيع، ثم يعود بعدها إلى كاليفورنيا لقضاء أسبوع أيضاً، ولم يتفقا على موعد أو على كيفية اللقاء التالي لأن جون أخبرها أنه سيعرف كيف يجدها، كما لم يقل جون أنه سيتصل بها، لكن عودته بشكل عام شكّلت فرحاً في أجوائها الخاصة، وجعلتها تشكر السماء التي جعلتها ترى صديقاً عزيزاً مرة أخرى بعد انقطاع أخباره. ولم تدرِ بعد تنزّههما لماذا أحسّت بأن جون يجب أن تكون له حياته، مثلها هي، رغم تمنِّيها أن تكون حياتها أفضل مما عليه. كما أحسّت بقوة ونشاط أكبر ملأ جسمها وروحها، بوجود رجل تثق به، إضافة إلى لورا، تستشيره وتأخذ برأيه.

سألت كات جايمز وهي تتأمل ابنتهما التي تلعب أمامهما، عن صحة الإشاعات التي تقول إن تيم مارشال سيذهب إلى

أوروبا للعمل هناك، وعما ينوي أن يفعله لو كان ذلك صحيحاً. وأجابها بأنه هو نفسه الذي أطلق هذه الإشاعة، كمدير لأعماله، لأن مارشال سيذهب إلى أوروبا لتصوير بعض المشاهد الخارجية، ويود أن تتابع المجلات أخباره. ومن جهة أخرى لأنه يعيش هاجس ظهور نجم جديد، ويريد الإيحاء بأن المنتجين يركضون وراءه وليس «ستوديو يونيفرسال» فقط.

ـ وماذا لو ذهب إلى أوروبا فعلاً للعمل بشكل دائم؟

ـ سأذهب معه بالطبع.

ـ هكذا بكل بساطة.

ـ لا يمكن أن يستمر في أوروبا. أنا أعرفه جيداً.

ـ ما يعني أن الخبر صحيح.

ـ قلت لك إنه إشاعة، لكن لو قرّر تيم البقاء سأبقى معه.

لم تستطع دينيس الصغيرة التي تنمو وتمشي وتتعثّر أن تحرِّك مشاعر جايمز سكوت، الذي كان يعتبرها على ما يبدو إحدى قطع الأثاث الموجودة في البيت، وهو الأمر الذي اعتادته كات، لكن لورا لم تستطع أن تبتلعه أو حتى تتذوّقه بطرف لسانها، وكانت تكنّ احتقاراً وكراهية عميقتين له، وكان هو يشعر بذلك ولا يبالي به، لإحساسه الداخلي الذي يوحي له بأنه أذكى من كل الناس، تماماً كما قالت لورا، ولا يجب من ثمة مشاركتهم في مشاعرهم الساذجة أو

استهلاك تفكيره بأمور تافهة مثل شعور لورا وغيرها نحوه، أو رأيهم الشخصي فيه.

ـ صدّقيني أنه أدنى مرتبة من الحيوانات. كانت لورا تهمس لكات أحياناً.

ـ أعلم ذلك ولا حيلة لي. هل أقتله؟

ـ حتى الوحوش الكاسرة تداعب أشبالها الصغيرة.

ـ ابنتي وعملي عندي أهم ما في الحياة، وأنت أحبّ إنسان فعلاً. أعطيه جسدي أحياناً مثلما ألقي جواربي المتسخة في صندوق الغسيل.

برغم تلك المشاعر المتبادلة بين أهل المنزل، ووجود خيط المصالح المشتركة فقط بين صاحبته وصديقها، ارتبكت كات بشدة عندما فاتحها جون برغبته في الزواج منها في ربيع العام 1947، بينما كانا يتمشيان على شاطىء الكربون في ماليبو كما كانا يفعلان في الأيام الخوالي، وابنتها تركض أمامهما وتلعب بالرمال.

ـ جون! هل تعلم ماذا تطلب مني؟

ـ خطوة صعبة لكنها ضرورية في حياتك.

ـ وصعبة عليك أيضاً. حتى لو تمّ هذا الأمر بأقل الأضرار، هناك مخلوقة ليست من صلبك ستعيش معنا.

ـ أعلم ذلك وأقبله.

سخر أحد أصدقاء جون المقرّبين للغاية منه عندما فاتحه برغبته في الزواج من كات، بعد أن شرح له ظروفها وما

يشعر به تجاهها. ونصحه صديقه بمعاشرتها كعشيقة، لأنه يستحيل على امرأة لها عشيق أن تتركه وتتزوّج بغيره، وأن مجرد استمالة قلبها يعتبر عملاً يدلّ على فحولة جون وقدرته على مشاركة عشيق آخر في غرام امرأة فاجرة واحدة، تستطيع جذب انتباه رجلين وتوقعهما في غرامها في الوقت نفسه.

ـ أنت تخطىء حين تعتبر أن جايمز عشيقها. قال جون.

ـ لماذا؟

ـ الحقيقة غير ذلك.

ـ ماذا هو؟ حارسها الشخصي؟!

ـ الأمر ليس كذلك أيضاً.

ـ أنت رجل صاحب حاضر جيد ومستقبل مرموق، لا تحرق نفسك في هذا الهراء الفارغ. وماذا عن البنت الصغيرة؟ لماذا تهتم بحثالة غيرك؟

كرّر جون في زيارته التالية طلبه لكات، وأكّد لها أنه يعني ما يقول ويدرك ما هو مُقدم عليه. ولم تدرِ هي لماذا أحسّت هذه المرة، وهو يتحدث معها أثناء جولتهما في أحد المتنزهات مع ابنتها، أن الأمر جدّي وليس مجرد نزوة، لأنها لن ترفض أي طلب له حتى دعوته لها إلى الفراش، وأن أبواباً من المشاكل يمكن أن تُفتح سيكون عليهما مواجهتها، وكانت تتعجّب في ما بينها وبين نفسها لماذا يسعى جون وراء زواج ستكون بداية التفكير فيه انطلاق المتاعب، لا تستطيع هي أو هو التكهن بموعد انتهائها.

وعندما سألته كات عن السبب الكبير الذي يدفعه للزواج منها رغم كل شيء، أجابها بأنه يشعر بأنها هي وحدها دون غيرها قادرة على جعل حياته تسير، وأن قدرها في الحياة يلتقي وقدره، ما سيجعله محظوظاً وقادراً على الابتكار والعطاء.

ـ هل تظن ذلك؟ سألته.

ـ نعم. الموضوع أكبر من الحب أو الشهوة.

ـ ولماذا لم تقل ذلك لي منذ سنوات؟

ـ لم أشعر به بالوضوح الذي أحسّه اليوم.

ـ هل أنت من الرجال الذين يندمون على الفرص الضائعة؟

ـ ربما. لكن ما أنا على يقين منه قلته لك.

ـ جون! الخطوة الأولى التي سأفعلها لا تراجع فيها، بينما تستطيع أنت التراجع حينما تشاء.

ـ ثقي بما قلته لك. لن أخدعك.

سافر جون في نهاية عطلته إلى عمله، وهو على ثقة بأن كات ستخطو خطوة جدّية، وأن بداية نزاع مع سكوت ستكون في انتظاره عند عودته بعد الأسابيع الستة. وقد أخبر أمه وأخته الأكبر منه بما ينوي أن يفعله، وكان ردّاهما متشابهين تقريباً؛ كان من الممكن أن تحصل على فتاة أفضل. ومن هي كاترينا أرهارد حتى تضحّي من أجلها؟ لكن جون كان مرتاحاً ومقتنعاً بما فعله، ويعيش بإحساس متفائل لأنه عبّر عما يريده بكل صراحة، وأزاح عبئاً ثقيلاً هو حواراته الذاتية

الدائرة في فراغ. ومن جهة أخرى كانت ردة فعل كات على طلبه بتوقفها عن الرقص في المربع الليلي، توازي ردة فعلها على طلبه بإنهاء علاقتها الحالية وبدء حياة جديدة معه.

ـ ما أخشاه هو فقداني طفلتي في يوم ما. قالت كات لجون.

ـ هي باسمك والرجل لم يعترف ببنوتها.

ـ قد تكون ردة فعله عكسية ويضع شروطاً للتخلي عن الطفلة.

ـ لا تعبري الجسر قبل الوصول إليه.

احتارت كات من أين تبدأ الحوار مع جايمز، وبدّدت لها لورا بعض حيرتها بعدما تأكدت من نوايا جون تجاه أختها، وأقنعتها بأن وقوعها تحت تهديد جايمز قد انتهى، لأنها عملياً ستتوقف عن الرقص، وهو لا شأن له بالعقد الذي وقّعته مع الشركة كممثلة حصرية لإعلاناتها، ولا يستطيع التأثير مطلقاً على لاري تانر. ونصحتها بفتح حوار مباشر معه، لأن العرض الذي قدّمه جون لن يتكرّر في حياتها ويستحق القتال من أجله.

ـ أفهم من حديثك أن رجلاً آخر قد ظهر في حياتك. قال لها جايمز بعدما فاتحته بأمر رجل يهتم بها.

ـ الأمر ليس في ظهوره بقدر ما هو في أهمية ما يعرضه عليَّ.

ـ هل قدّم عقداً سينمائياً؟

ـ لا. عقد زواج.
ـ هل تمزحين؟
ـ أتكلم بكل جدّية وأطلب رأيك من أجل الطفلة فقط.
ـ ما يعني أن علاقتنا أمرها محسوم.
ـ من زمان يا جايمز وأنت تعلم ذلك.
ـ وما هو المطلوب مني؟
ـ واضح وصريح وأرجو أن يتمّ بهدوء. على أية حال أعرف أنك أناني تحب حياتك كما هي وتهرب من المشاكل.
ـ كات! وأنا صريح وواضح منذ البداية، والزواج ليس وارداً عندي.
ـ جايمز! أعلم أنك لن تتزوّج أبداً. وهذا الأمر ليس للضغط عليك لتتزوّجني. أنا أتكلم عن الطفلة.
ـ الطفلة لا تشبهني وهي ليست ابنتي، ومنذ اكتشافي حساباً باسمك في بنك آخر تأكّدت من عدم انتمائك إلي.

ضحكت كات ضحكتها البرية ذات الصدى، وهي تدرك لأول مرة في حياتها غباء جايمز سكوت في موقف كانت تعتقد أنه سيساومها فيه، وتذكّرت أول عبارة قالتها له وهي أن الناس تراه من خلال قوة وظيفته، ومن الغريب أنها نسيت ما قالته هي بعفوية، وكانت تخشى دهاءه وسطوته، إلى أن وقف أمامها في موقف فضح ذكاءه الذي يقوده قلب ضرير البصيرة، لا يرى سوى نفسه ومنافعه الخاصة، ويتخبّط

كسمكة علقت بصنّارة، وبشكل يدعو للسخرية، لو شعر بأي مسؤولية إنسانية ستقع عليه.

ـ ستكلفك هذه الضحكة غالياً، وأقسم أن أحاربك ولن أجعل أي مكان يقبلك للعمل فيه.

ـ لو قلت لي إنك ستشوِّه جمالي لقبلتها منك من أجل شهوة جمعتنا ثم ماتت. كنت اعتبرتها ذرة ما زالت مشتعلة من رماد نزوتك القديمة، لكن محاربتي في عملي أمر لن أردّ عليه لأنك في منزلي.

ـ أريد حقيقة سماع ردّك.

ـ عندما تبدأ حربك في عملي سأردّ عليك.

ـ كوني على حذر بالغ مني أيتها النازية التافهة، ولا تأملي كثيراً بضابطك المحبوب. إنه ساذج لا يفهم ألاعيبنا.

ـ جايمز سكوت! أنا لا أخاف وأقوى منك لأنني أواجه ولا أطعن بالظهر، والموضوع شخصي بيننا ولا شأن لأحد به. ولا تتّهم جون بالسذاجة حتى لا أقول إنك حقير.

أحسّت كات بفراغ هائل يحيط بها في الأيام الأولى لمغادرة جايمز سكوت منزلها، ربما بسبب العبء الذي انزاح عن قلبها، أو عدم توقّعها الطريقة التي غادر بها، وانتهاء الاشتباك الكلامي بينهما على تهديده فقط. وما أدهشها كثيراً هو إصراره على إنكار بنوته لابنتهما، منذ اللحظة التي أخبرته بحملها، إلى اليوم الذي غادر فيه المنزل بدون أي مساومة ولو مالية.

ـ كوني على ثقة بأن الشرف لم يمنعه من المساومة المالية. يستحيل أن يتحوّل سكوت إلى إنسان شريف فجأة. قالت لورا لها.

ـ لماذا لم يساومني رغم أنه كان يطلب أموالاً من أجل لعب القمار؟

ـ هذه الفئة من الناس تتصرّف بالطريقة نفسها دائماً. إنه يهرب من المسؤولية. كيف سيربِّي هذه الطفلة؟ هذه مصيبة ستقع على رأسه لو قبلها. مصيبة أنت شخصياً لا تستطيعين تخيّلها.

ـ هل تعتقدين أن الهروب كان مطلبه؟

ـ نعم. ومن المحتمل أن يعود وهو في الستين من عمره ليبكي، ويطلب منك فقط أن تقولي لابنته الحقيقة. أو إذا ركله تيم مارشال ولم يجد أي عمل من بعده.

ـ وما الفائدة؟

ـ القليل من العطف عليه، وهو في الحالتين لن يتحمّل مسؤولية ابنته.

واصلت كات عملها وهي تنتظر عودة جون كارسون بمشاعر جيّاشة مختلفة، يسيطر عليها شعور بالتفاؤل يوجِّه كل أحاسيسها نحو الطمأنينة، ما عدا إحساساً واحداً هو الأسف على ترك عملها كراقصة بعد الزواج، لكنها أضمرت محاولة ثني جون عن هذه الرغبة حين يعود، والقبول بالاعتزال لو أصرّ على موقفه، لأنها فعلاً بحاجة لملّاح يقودها وينصحها

ويكون بجانبها في المستقبل الذي تفكّر فيه كثيراً، خصوصاً بعد عدم نجاحها في الحصول على دور مهم واحد في السينما.

لقد باغتها جايمز سكوت بموقفه المذهل، فاضطرت إلى اتخاذ قرارها في لحظة واستكمال الهجوم عليه، ولم تنتظر عودة جون لتبلغه رأي جايمز. فهل سيُفاجىء ما حدث جون نفسه؟ ومتى سيتزوجان؟ وكيف سيكون شكل الحياة بينهما؟ أسئلة كانت تدور في ذهن كات وهي تسلّم نفسها للنوم كل ليلة في انتظار رجوع طيارها الذي عاد إليها وغيّر حياتها للأبد.

الفصل الثالث

كان عدم اليقين من عطاء الدنيا ردة الفعل الأولى على ما سمعته كات ذات ليلة بعد انتهاء العرض الثنائي الذي تشارك فيه زميلها أحد ملوك كوميديا المواقف الارتجالية في «صن ست بولفار».

بدت الأمور طبيعية للغاية بالنسبة لكات في تلك الأمسية، ولم تشعر قط بأي تميّز فيها سواء بالنسبة إلى ضحكات الجمهور، أو تأمل العيون تفاصيل جسمها، والقفشات التي يقولها بعضهم من زوايا الصالة الكبيرة كافة، أو حتى ما سمعته من أحد الموجودين القريبين من الخشبة التي يقفان عليها، بعد أن علّق أحدهم على روعة ساقيها واصفاً إياهما بقالبي شهد ملكات النحل، وبدأ رفيقها في الارتجال على هذه الجملة، وإلقاء النكات عن العسل واللسعات ومكائد النساء وفضائح بعض ملكات أوروبا الجنسية، وسط ضحك الناس وتصفيقهم على كل قفشة يعجبون بها، وقهقهة الرجل الستيني صاحب التعليق، رغم نظرات الدهشة من الرجلين اللذين كانا يجلسان معه إلى الطاولة. وقد تدخّلت كات في الارتجال وإلقاء الجمل الكاريكاتورية ـ وقلّما كانت تفعل

لأن وظيفتها تكمن في تمهيد المواقف وليس صنعها والتواصل مع المشاهدين ـ على الرجل نفسه بعد أن لاحظت استغراقه في الضحك والقهقهة لدرجة أنه بدأ يمسح دموعه بمنديله، ويضع يده على صدره وكأنه يساعد رئتيه على التنفس الذي كاد ينقطع، بسبب استرسالها في الارتجال والسخرية من كل جزء فيه بشكل ظريف لا يسيل دماء الطريدة ولا يريق ماء وجهها هي.

ـ يا سيدة! هل تقبلين أداء دور في فيلم استعراضي؟

ـ ومن تكون يا هذا حتى تقرّر إسناده لي؟

سألها الرجل الذي انصبّت القفشات كشلال لا ينقطع فوق رأسه وهو يقف ويصفّق لها، وأجابت هي أثناء تصفيق الجمهور بعد انتهاء العرض. ردّت كات وهي لا تشكّ لحظة في أن الرجل يريد أن يواصل تعليقاته، وتواصل هي ارتجالها وسخريتها مما يقول. وهو أمر يحدث أحياناً مع أصحاب الطباع اللطيفة الذين ينتهزون أي مناسبة ليضحكوا ويرفّهوا عن أنفسهم وعن الناس.

ـ يا سيدة! هل يمكن أن أتحدث معك لبضع دقائق؟

ـ سأعود لك بعد 129 سنة.

ـ أرجوك! مجرد دقيقتين قبل ذهابك.

ـ اتفقنا.

أجابته كات وهي تنظر إلى عيون الرجلين الجالسين معه، وتقرأ فيها عدم تصديقها لما يقوله الساهر الواقف يصفّق

بحرارة بالغة بينما هما جالسان، فبدأت تدرك وجود أمر ما في ما يقوله الرجل المرتدي بدلة سوداء ويضع فراشة لونها ليلكي على عنقه، لكنها رجّحت وهي تفكّر في طريقها إلى غرفة الملابس، بأن الرجل صاحب طريقة جديدة في الاقتراب والتعرف على نساء مسارح الشارع الذي يرتاده أصناف من البشر يملك بعضهم أمزجة قد لا تخطر على بال أي مخلوق، وأغربهم الذين يعتقدون أنهم أصبحوا في دائرة الفنانين لمجرد وجودهم في هذه الأماكن. لكنها قرّرت أن تراه عن قرب، ليس بسبب طرافة ما قاله لكن بسبب نظرات الساهرين معه غير المصدّقة الطريقة التي شارك وضحك بها، والعرض الذي قدّمه لها والناس تحيِّيها مع زميلها.

ـ كيف حالك؟ كان العرض ممتعاً. قال لها الرجل وهو يقف مادّاً يده للمصافحة وهي تقترب من الطاولة.

ـ أهلاً بك. هل تمتّعت بالعرض فعلاً؟ أجابته كات.

ـ للغاية. الفكرة طريفة وجريئة.

ـ لماذا؟

ـ هل تتفضّلين بالجلوس؟

ـ شكراً. قالتها وهي تجلس.

ـ على فكرة. ماذا تفعلان إذا لم تجدا من يتجاوب معكما في الصالة؟

ـ هل تقصد تعليقات الحاضرين؟

ـ بالتأكيد.

ـ ينتقل زميلي من موضوع لآخر، ولا بدّ أن تجد من يعلّق على شيء. وأحياناً أقوم أنا بدسّ جملة ويتبعني الناس بالتعليقات.

ـ قبل أن أنسى. هل تودّين شرب شيء؟ سألها وهو يرفع يده لأقرب غرسون.

ـ حليب دافىء. أنا مرهقة اليوم فعلاً.

ـ هل يوجد حليب في هذا المكان؟ سألها وهو يبدأ في الضحك.

ـ بالتأكيد وإلّا ما طلبته! قالتها وهي تشاركه الضحك.

ـ اطلبيه أنت وأنا سأدفع! لا بدّ أنك تواصلين ارتجالك الضاحك هنا أيضاً.

ـ اتفقنا. وهمست للغرسون الواقف بجوارها بما تريده.

ـ هل تعتقدين أن زميلك هو الأبرع في ارتجال المواقف الكوميدية هنا؟

ـ ماذا تعني بكلمة «هنا»؟

ـ أنا من الساحل الشرقي.

ـ آه. فهمت. هو أحد أهم مرتجلي المواقف الهزلية.

ـ يا سيدة! أنت تتحدثين مع صامويل جونسون المنتج السينمائي المعروف. قال لها أحد الساهرين معه، بعد أن تأكد من عدم إدراك كات لشخصية الذي يتكلم معها.

ـ آه. حقاً؟ وماذا تعمل في الحياة يا سيد جونسون؟

ـ صدِّقيني أنا صامويل جونسون. قال لها الرجل وهو

يدخل في نوبة ضحك أخرى، لأنه أحسّ أنها لم تصدِّق الساهر معهما الذي قال الجملة.

ـ تشرّفنا. لا أعرف ماذا أقول لك. قالت كات وهي لا تصدِّق غرابة الموقف الذي جمعها بالمنتج المعروف اسماً ولا يعرف وجهه غير المقرّبين، لأنه حسب ما فهمت بعد ذلك لا يجب الظهور مطلقاً في المجلات الفنية.

ـ تذكّرت سيناريو موجوداً في مكتبي منذ سنوات وأنا أشاهدك، ولا يوجد سواك ليلعب الدور النسائي الأول فيه. كأن كاتبه ألّفه عنك.

ـ ما يعني انتقالي للساحل الشرقي للتصوير الخارجي.

ـ والداخلي أيضاً. لا أطيق لوس أنجلس.

ـ متى ستعود إلى مكتبك؟

ـ الأسبوع القادم. سيتصل أحدهم بك للاتفاق على التفاصيل.

ـ هكذا؟!

ـ هكذا! أعتقد أنك ستنجحين في اختبار الكاميرا.

ـ نجحت من زمان.

ـ هل أجريت اختبار كاميرا من قبل؟

ـ ورقصت خلف فريد إستير وجين كيلي مباشرة.

ـ عظيم. لقد صدق حدسي حين اعتقدت أنك محترفة. سأجعلهم يرسلون لك نسخة عن السيناريو قريباً.

ظنّت كات أنها لم تتنفّس منذ اللحظة التي تركت فيها

المربع الليلي حتى عادت إلى بيتها، لأنها لم تسمع أي صوت خلال هذه الفترة ولا حتى محرك سيارتها. أحسّت أنها تنفّست بمجرد أن دخلت منزلها وأغلقت الباب وراءها، ووقفت تسند ظهرها المرهق إليه وهي لا تكاد تصدّق ما حدث. ثم ذهبت إلى غرفة نوم أختها لتوقظها وتخبرها، وتراجعت عندما انتبهت إلى الساعة التي تقترب من الرابعة والنصف صباحاً، وذهبت لعمل بعض القهوة، بعد أن قبّلت ابنتها النائمة، لأنها لم تستطع النوم من شدة الانفعال. وبينما كانت تحتسي قهوتها السوداء المُرّة، حاولت أن تتذكّر كيف عادت إلى منزلها، لكنها لم تستطع تذكُّر الشارعين اللذين قادت فيهما سيارتها للعودة، رغم قصر المسافة بين بيتها وعملها.

ـ أمر غريب أين وكيف قدت سيارتي؟ سألت نفسها وهي مندهشة.

ـ لكن كيف سأقنع جون بالأمر الذي هوى عليَّ من السماء؟ سألت نفسها بعد دقائق.

فوجئت كات بأختها لورا في وسط غرفة الجلوس أمامها وهي تبتسم، لأن كات لم تدرك وجودها، هي التي تسمع ابنتها وهي تفتح باب البراد في المطبخ، وضحكت كات وهي تسألها إذا كانت تقف منذ برهة.

ـ تبدين متوترة. هل رأيت سكوت اليوم؟

ـ قابلت نجمة حظي الماسية وجهاً لوجه. نجمتي العظيمة التي أخبرتك عنها وانتظرت شروقها كثيراً.

ـ ماذا تعنين؟

ـ سأوقِّع عقداً سينمائياً مع شركة «البلوط الأبيض» قريباً.

ـ لكن هذه الشركة في الساحل الشرقي!

ـ رأيت أحد أهم منتجيها الليلة. لقد حصلت على عقد بطولة أولى.

ـ بطولة أولى؟ هل تتكلمين جدياً؟

ـ تتعامل الدنيا معي بجدية لأول مرة. لقد قدّرت الحياة العابثة تعبي وطموحي وموهبتي أخيراً.

ـ رغم أن السافل هدّدك قبل أن يترك البيت. انظري من أين أتى العقد؟

ـ انسي السافل يا لورا. لا أستطيع أن أتنفّس يا لورا.

ـ هل نسيت دروس الاسترخاء؟

ـ استرخاء؟ كل عضلاتي منقبضة من أصابع قدميّ حتى رقبتي. كيف سأقنع جون بكل هذه الأمور عندما يعود؟

ـ أمر لا يصدّق. يبدو أن الفتاة استيقظت من نومها.

ـ ويبدو أنني سأقف أمام خيارين صعبين قريباً جداً.

أرسلت كات إلى جون رسالة عبر بريد الجيش الأميركي تخبره فيها بما حدث، بعد تأكدها من جدّية مشروع البطولة السينمائي، وطلب مكتب شركة إنتاج «البلوط الأبيض» القانوني حضورها للتوقيع على العقد. لم تجد سوى هذه

الوسيلة البطيئة نسبياً، لأنها لم تحلم حتى في يقظتها بما حدث خلال أسبوعين بعد سفر جون، ومن المرجّح أنه شخصياً لم يتوقّع سوى نزاع قد يطول أو يقصر مع جايمز سكوت ليترك المنزل، بسبب ابنته على الأقل، لأنه قال لكات إنه يعرف أين يجدها بعد ستة أسابيع حين يعود في إجازة، ولم يعطها رقم هاتف حتى في الولايات المتحدة، لتبليغه بأي أمر يحدث، وكل ما قاله لها هو اسم حاملة الطائرات التي يعمل عليها. كانت كات لا تعرف حقيقة ردة فعل جون على المبادرة التي فعلتها بقبولها لعب الدور السينمائي، لأنه اشترط عليها وقف عملها الليلي، ولم يقل شيئاً عن التمثيل الذي اعتبره حلماً لن يتحقّق. أما كات فقد باغتتها المفاجأة وجعلتها تحسّ أنها تسير فوق قوس قزح ملوّن في برهة حظ لن تُعوّض، فقرّرت المضي في السير قبل أن ترحل الغيوم وتقع على الأرض، وتمنّت أن تأخذ جون معها.

فوجئت كات بأختها لورا وهي توقظها من نومها عند الخامسة والنصف، قبل أن يدق جرس المنبّه في السادسة، لتنهض وتهيِّىء ابنتها للذهاب إلى دار الحضانة.

ـ جون على الهاتف؟ قالت لورا همساً.

ـ من؟

ـ جون.

ركضت كات المسافة ما بين فراشها وغرفة الصالون حيث

جهاز الهاتف، وقبل أن تبدأ الحديث معه كانت قد استعادت نشاطها ووعيها تماماً، خلال الثواني التي انتقلت فيها.

ـ جون! من أين تتكلم؟

ـ من أمستردام. كيف حالك؟

ـ بخير. هل وصلتك رسالتي؟

ـ وصلتني منذ ساعة.

ـ ماذا أفعل يا جون؟ لم أتوقّع إطلاقاً هذه المفاجأت!

ـ واضح أنك ستفعلين ما تنوين عمله.

ـ لنقل ذلك! أنا أمام فرصة عمري، إما أنتهزها أو تطير.

ـ التقطيها!

ـ وأنت؟

ـ موافق وأهنّئك من كل قلبي.

ـ فقط؟

ـ لا أفهم!

ـ . . . . .

ـ كات! أين أنت؟

ـ هل أنت موافق على ما سأفعله؟

ـ هذا صحيح. ولم أتخيّل أبداً رحيل سكوت بهذه الطريقة.

ـ الوقح! إنه يشك فيَّ.

ـ لا تبالي. سأراك بعد ثلاثة أسابيع.

ـ جون. هل من وسيلة أخرى لأتحدّث بها معك؟

ـ هل تعتقدين بظهور مفاجآت أخرى؟

ـ من يدري؟

ـ سأكون على اتصال بك.

ـ اتفقنا. انتبه لنفسك.

ـ وأنت أيضاً. قبِّلي دينيس.

رغم إقامة كات في لوس أنجلس وعملها في «هوليوود بولفار» ودخولها إلى بعض أستوديوهات «يونيفرسال» و«مترو غولدوين ماير» للتصوير، شعرت برهبة وهي تصعد إلى الطابق السادس والخمسين في إحدى ناطحات سحاب نيويورك في وسط المدينة، قليلة العدد آنذاك، للتوقيع على عقد سينمائي في مكتب شركة «البلوط الأبيض» القانوني. رهبة لذيدة سرت في رأسها مثل دوار كأس شمبانيا يحتسيه إنسان لأول مرة، فوق متن يخت ينساب في رحلة بحرية في أجواء مواتية.

ـ يبدو أنك أتيت وحدك بدون محامٍ. قال لها مدير المكتب.

ـ أنت تريد توقيعي أنا، لماذا المحامي؟

ـ لقراءة شروط العقد وتوضيح غير المفهوم منها لك.

ـ هل يمكن الاستعانة بأحد محاميي المكتب؟

ـ بالتأكيد، إذا لم يكن لديك أي اعتراض.

شرح لها محام أن العقد احتكاري لمدة خمس سنوات، لأن صامويل جونسون يعتقد أنها ستكون نجمة شركتهم الاستعراضية، التي سوف يُعدونها للمزيد من البطولات في

المستقبل، وبيّن لها كيفية تصاعد أجرها في كل فيلم تشترك فيه خلال هذه السنوات، إضافة إلى شروط الجزاء المالي المترتبة عليها لو تعاملت مع شركات إنتاجية منافسة، ومبلغ التأمين الذي يتوجّب دفعه لها في حال حدوث إصابة ما أثناء تصويرها داخل البلاتوهات أو خارجها وأدت إلى تشويه أو عجز كلي أو جزئي.

ـ يبقى شيء واحد. قالت كات.

ـ وما هو؟ سألها محاميها.

ـ لديّ عقد احتكاري مع إحدى المؤسسات للترويج إعلانياً عن منتجاتهم.

ـ سأكاتبهم في هذا الأمر البعيد عن صناعة فيلم إعلاني. نحن هنا في مجال السينما. لا تخشي شيئاً.

ـ وبالنسبة لهم؟

ـ رغم يقيني مما أقول سأتصل بهم قريباً.

ذهبت كات مع مدير إنتاج شركة «البلوط الأبيض» وصديقها لاري تانر الذي سافر معها إلى نيويورك للوقوف بجانبها أثناء توقيع البداية الجديدة في حياتها، وبطل الفيلم طوم ستيوارت إلى أحد مطاعم «وولدروف أستوريا». ناطحة السحاب التي ترتادها ألمع الأسماء في عالم السينما والمال والعمل، إضافة إلى بعض هواة التردّد إليها من السياسيين. عالم ضخم من الزجاج والغموض والسجاد الفخم وصالات الطعام فائقة الأناقة والممرات التي يشاهد فيها المرء نخبة من

الناس المشهورين وأرقى الأزياء، ويتنسّم فيها أغلى وأشهر العطور في العالم. وكان طبيعياً أن تكون كات في قمة سعادتها والإحساس بقيمة موهبتها، التي بدونها لما كانت في هذا العالم بالغ الروعة، الذي وصلت إليه بلمسة تشبه جبروت السحر الأبيض في قصص الخيال واللامعقول، ولا تعرف كيف حدثت في تلك الليلة المدهشة فائقة الغرابة.

كان طوم ستيوارت من الممثلين الذين تحبهم كات، وتجدهم في عالمهم على الشاشة أشخاصاً من قماشة أخرى، تقترب من نسيج الآلهة التي يصنعها الناس، ثم ينيرون الشموع لها ويقتربون منها برهبة، ويتلعثمون وهم يطلبون منها بخشوع أي طلب. ورغم دخول كات إلى عالم الأضواء وتحولها هي نفسها في «صن ست بولفار» إلى إحدى هذه الإلّهات في سن الخامسة والعشرين، كانت تنظر إلى طوم ستيوارت وبضعة ممثلين بنظرة مختلفة، حتى رأته جالساً أمامها عن قرب شديد يأكل في المطعم.

لم تدرِ لماذا أحسّت كات أنه من أصول بيئة اجتماعية متواضعة، رغم المظاهر المحيطة به والشكل المنسق لملابسه والتسريحة المختلفة لشعره الغزير الفاحم، والأظفار المقلّمة النظيفة، والصوت الرخيم الهادىء الثابت على مستوى معين لا يعلو أو ينخفض، والطريقة الراقية التي يتعامل بها مع الجالسين، خصوصاً هي برغم أنها لم تبدأ بعد خطواتها الأولى على بكرات الخلود. أحسّت بأنه أقل ثقة بنفسه مما

يبدو على الشاشة، وشعرت بوجود آفة فيه لكنها لم تستطع إدراكها.

كان ستيوارت بشكل عام رجلاً ثلاثينياً حنطي البشرة، ذا جمال يليق برجل وكتفين عريضتين بدون خدعة في كتفي السترة. شاب كله حيوية صاحب عينين سوداوين يشعّ منهما بريق الأريحية، وتوحيان بالدفء العاطفي والمودة غير المصطنعة. لطيف ويعرف كيف ينظر إلى المرأة، ولا يجعلها تشعر باقتحام نظراته جسدها، طويل القامة عكس معظم معبودي السينما الأميركية آنذاك.

فهمت كات أثناء الحديث على الطعام من طوم ستيوارت، أنه شاهد عرضاً لها في «صن ست بولفار» وأعجب به كثيراً. ولم تستطع هي أن تدرك ما إذا كان يجامل البطلة المقبلة في فيلمه، أو أنه شاهدها فعلاً. وعرفت منه أنه سيبدأ تدريبات خاصة بالرقص، لأنه من المفترض أن يجمعهما السيناريو في مشهدين يرقص فيهما معها، ولم يسبق له أن مارس نوعية الرقصات المطلوبة في السيناريو. وخلال الأيام الأربعة التي ظلت فيها كات في نيويورك ورأت فيها ستيوارت عدة مرات، لم يساورها أدنى شك في نظافة سلوكه، لأنه كان من الرجال النادرين في مجال الفن الذين لم يطلبوا منها مزج اللذة بالعمل، بحجة اقترابهما من بعض أكثر، لصالح العمل الفني الذي يجمعهما ويريدان النجاح له، أو بسبب أي حجة أخرى، وكان تعامله معها أقرب ما يكون إلى التعامل بين

رجلين صديقين. أحسّت بمودته ورغبته في مساعدتها في أول إطلالة لها على الشاشة الكبيرة، وارتاحت كثيراً من الأجواء العامة التي صادفتها، وجعلت من رهبة الموقف الجديد القادم عليها طمأنينة وأملاً.

غادرت كات نيويورك إلى لوس أنجلس بعد مقابلة سريعة مع صامويل جونسون، تحدّثا فيها عن موعد بدء التصوير والفترة المفترض أن تكون فيها هي في عاصمة العالم، كما يحب أن يطلق عليها أهل نيويورك لوجود جنسيات كثيرة فيها، لتصوير «أغنية الفصول» وهو الاسم المقترح للفيلم. وكان واضحاً لكات أن جونسون يفضّل أن تعيش في نيويورك مستقبلاً، وأن تنقل عملها كراقصة لو أرادت إلى أحد مسارح المدينة المرموقة، وهو يمكنه أن يسعى لتدبير مكان لها، رغم أنه يعتقد أنها لن تستطيع الرقص في المرابع بعد أول فيلم لها. كان جونسون متحمساً لهذه الفكرة، التي راقت لكات كثيراً، وجعلتها لا تُلمّح له بشيء عن رغبة جون في جعلها تترك العمل الليلي نهائياً، لأنها لم ترغب في استباق الأمور، فربما غيّر زوجها المستقبلي رأيه بعد رؤية نجاحها، والناس تشير إليها في الشوارع، ورنين التلفون لا ينقطع في منزلهما، ودائرة علاقاتهما الاجتماعية تتّسع، والنقود تيسِّر لهما الحياة كالأثرياء في كل جوانبها.

ـ آلو! جون؟ كيف حالك؟ الأمور تسير معي على ما

يرام. قالت كات في حديث هاتفي بينهما فجراً بعد وصولها بيومين إلى لوس أنجلس.

ـ تمنياتي الطيبة لك دائماً. أتمنّى أن لا تنسيني في ظروفك دائمة المفاجآت!

ـ أنت دائماً ترافقني أينما ذهبت. وأتمنّى فعلاً أن تكون معي، فلديّ الكثير لأرويه لك، وأهم ما حدث أخيراً هو أنني وقّعت العقد في نيويورك.

ـ أمر رائع. وماذا تقولين عني للناس؟

ـ لا شيء. أنت تعويذتي التي أحتفظ بها ولم أبح بسرِّها بعد.

ـ ولماذا هذا التحفظ؟

ـ لا شيء رسمياً بيننا حتى الآن. ماذا أقول؟ خطيبي؟ صديقي؟

ـ الحق معك.. قولي صديقي حتى يصبح الأمر رسمياً.

ـ اتفقنا. المهم.. هل سأراك في الموعد الذي أخبرتني عنه؟

ـ أتمنّى ذلك. كيف حال دينيس؟

ـ بخير وهي تسلّم عليك.

ـ متى ستذهبين إلى نيويورك للتصوير؟

ـ بعد أربعة أشهر لأن كل أماكن التصوير والديكور ستكون قد أُعدّت، واكتمل فريق العمل.

ـ ومن سيكون بطل الفيلم؟

ـ طوم ستيوارت.

ـ بدأت أخاف على مستقبلي معك!

ـ عُد بسرعة قبل أن يتحوّل الخوف إلى ندم.

ـ لقد خفت فعلاً!

ـ أوقف الهذر يا جون.

ـ إلى اللقاء. سلامي ومحبتي لك ودينيس ولورا.

ـ لورا معجبة بك حقاً. مع السلامة.

أوضح جون لكات بعد عدة أيام، وخلال اتصال هاتفي بينهما، أنه لن يستطيع الحضور في موعده إلى لوس أنجلوس، بسبب أمر يستدعي بقاءه، ولم يفسِّر ذلك المانع لها، ما جعلها تفهم أنه أمر عسكري طارىء لم يستطع قوله على الهاتف. وطمأنها إلى أن تأجيل عودته لا سبب صحياً وراءه، وأنه لو تأخر وكانت هي في نيويورك سيراها هناك، كما سألها عن ابنتها وما إذا كانت سترافقها، وأوضحت له أنها ستتركها مع لورا التي ستقيم في منزل أسرتهم فترة غيابها، لتعتني أمها بالفتاة في الفترة التي تذهب فيها لورا إلى عملها، وستعود هي لمدة يومين لترى ابنتها كلما استطاعت وسمحت لها ظروف التصوير بذلك.

رغم أن جون لم يتحدث بشيء عن عمل كات الليلي، ولم يطلب منها الامتناع عنه، إلّا أن التساؤل ظل يلحّ عليها لدرجة أنها ناقشت أختها لورا، التي فسّرت الأمر باحتمال طلب جون منها ذلك عندما يعود ويكون هناك ارتباط رسمي

بينهما، لأنه حتى اللحظة الراهنة اتخذت هي كل المبادرات المهمة، وتخلّصت من جايمز بشكل لم يتوقّعه جون أو هي شخصياً، ولم يبادر جون إلى أي خطوة لبعده عنها، وهو أمر رأته لورا طبيعياً، فالرجال لا يتزوجون أو يخطبون هاتفياً، والنساء لا يقبلن بذلك أيضاً. وفهمت لورا من حديث أختها معها أن إدارة المسرح رأت أن تحل راقصة بديلة مكانها بعد غيابها، لأن الإدارة لا تستطيع إلغاء العرض الارتجالي الضاحك الناجح الذي تؤدِّيه كات مع زميلها الفنان الذي يشاركها، وسيسافر إلى نيويورك مؤقتاً ليلعب معها في مشهد من الفيلم. وهذه الراقصة سوف تأخذ مكانها ثلاثة أيام أسبوعياً، قبل سفرها، لتتقن عملها ويتعوّد عليها الجمهور. أما مكانها المتقدم في الفرقة التي تؤدِّي الاستعراضات الراقصة كل ليلة، فستحلّ مكانها فيه إحدى الراقصات القديرات اللواتي يشاركن في العرض. ولم تبالِ كات كثيراً باحتمال تبخّر مكانها نهائياً، بعد شهور تصوير الفيلم، لأنها اعتقدت أن اسمها سيلمع ويكبر ويتيح لها فرص عمل أفضل وفي أرقى مرابع نيويورك، حسب ما وعدها صامويل جونسون نفسه.

بدأت كات تنفيذ بعض لقطات تدريبية في نيويورك، استعداداً لدخولها إلى بلاتوه التصوير لإعداد مشاهد الفيلم. وبعد أن أبدى المخرج ارتياحه لأدائها، أخذ ينفِّذ السيناريو بدءاً من المشاهد التي تتضمّن الاستعراضات الراقصة حتى

تدخل كات في الأجواء، وقد ارتاحت هي لفكرته تماماً، واستطاعت بمعاونة كل الفريق الذي معها الانتقال من مشهد لآخر بسلاسة كبيرة. أما مشكلة صوتها الذي كان لا يصلح للغناء، حسب ما رأى خبراء الصوتيات، رغم صلاحيته الهائلة في الإيحاء بالإغراء ومعاني الكلمات، فقد استعاضوا عنه بصوت مغنية محترفة تؤدِّي أغاني الاستعراضات التي سترقص على ألحانها. وكان عدم قدرة كات على الغناء مشكلة تضعف قيمتها كممثلة استعراضية شاملة.

سَبّب الانتقال من ديكورات المشاهد الغنائية الراقصة إلى أماكن التصوير رهبة لكات في البداية. كان الرقص مع فرقة استعراضية ومشاهدين في مسرح، مهما بلغ عدد الحضور فيه، لعبة تتقنها وتعرف نجاحها وفشلها فوراً بمجرد سماع وتيرة التصفيق. أما الرقص والتمثيل وانتظار رأي الجمهور بعد شهور فقد سبّب لها ما سبّبه. وقعت في خوف انتظار النتيجة التي قد تخالف رأي المخرج وكاتب السيناريو والمنتج، فلا أحد يعرف يقيناً ما سبب نجاح أو فشل فيلم. إضافة إلى خوفها من التمثيل لأول مرة، رغم وجود لاري تانر ونصائحه بجوارها في نيويورك من وقت لآخر، فقد لبّى لاري طلبها في أن يكون بجوارها كلما سنحت له الفرصة.

كان طوم ستيوارت رائعاً مع كات، وأبدى تعاوناً كبيراً معها، ونقل علاقتهما من العمل إلى الصداقة، وعلّمها كيف تتذوّق الكلمة، لأن كل كلمة تدلّ على شيء يجب أن يُقال

عندما نقول هذه الكلمة أو تلك، حسب ما علّمها. كما مرّنها على كيفية نطق الجملة بشكل صحيح ليؤثّر معناها في المشاهد. ودلّها إلى كيفية إثارة أحاسيس المتفرجين في الصالة أثناء تصوير المشاهد المختلفة في الأستوديو، سواء كانت ضاحكة أو انفعالية أو حزينة، بالأداء الحركي وتغيير نبرة الصوت وإيماءات الرقبة والجسد والعينين. وكان أكثر ما أثار دهشة كات بعد رؤية أول مشاهد لها بعد تظهير الفيلم هو الشعور بحقيقية الديكور والأماكن والغرف. ووجد ستيوارت طريقه من تعليقها على هذه الأمور، وجعلها تفهم حقيقة اللقطات التي تقوم بها عند المتفرج نفسه، المحاط بالأجواء العامة في الصالة والطقوس المصاحبة لمشاهدة فيلم. وتحسّن أداؤها كثيراً بعد هذه الشروح المعبّرة، ولم تعد تعيد التصوير أكثر من مرة لتعطي نتيجة يرضى عنها مخرج الفيلم.

عرفت كات بوسائلها الخاصة أن ستيوارت يفعل ذلك، لأنه تعلّم فن التمثيل ولم يدخل إلى المهنة كهاوٍ، وهو يساعدها من تلقاء نفسه وليس بطلب من أي شخص آخر. وأصبح واضحاً لها بما لا شك فيه، أنه يتعاون وذهنه خالٍ تماماً من محاولات التقرب منها عاطفياً أو جنسياً، حتى في المشاهد الغرامية التي جمعتهما في الفيلم. ما جعلها تكنُّ له مودة وتقديراً وتميّزاً لم تهتز البتة خلال سنوات عمرهما، أو حتى بعد سماعها بعض التعليقات على حياته الخاصة،

ومعرفتها للآفة الموجودة في طباعه، وشعرت بها في أول لقاء جمعهما بعد توقيع العقد في فندق «وولدروف أستوريا». كانت تراه الرجل الذي قدّم لها العون لتتخطّى عقدة الخوف من الوحش الخرافي القابع في صالات السينما المعتمة، وجعلها تؤدِّي وهي تداعبه وتقوده وتؤثِّر فيه بصوتها وجسمها لتأسره، ما رفع ستيوارت إلى مرتبة القديسين في حياة كات. القديسون أصحاب القدرة على طرد الأرواح الشريرة من الأفكار بقوة إيمانهم وكلماتهم وحضورهم.

رغم شهرة طوم ستيوارت والعقود ذات الأجواء الخرافية التي وقّعها مع عدة شركات إنتاج، كان يعيش دائماً على حافة الإفلاس بسبب تبذيره الكبير، وحوّلت هذه الحالة حياته الخاصة إلى سلسلة من التوترات وعدم الاستقرار. فلا أحد يعرف على وجه الدقّة لماذا يحيط به جيش من الخدم في قصره، ومساعدون ورجال ونساء العلاقات العامة، إضافة إلى عدة سائقين يقودون سياراته الخاصة باهظة الثمن ذات المواصفات المحدّدة، في الولايات التي يعمل في شركاتها الإنتاجية السينمائية، سواء في شرقي الولايات المتحدة الأميركية أو غربها، إضافة إلى الحفلات الباذخة التي كان يقيمها بسبب أو بدون سبب معروف لمعظم المدعوّين، لأنه كان صديقاً لعدد لا يحصى من الناس في مختلف المجالات حتى السياسة، التي كان على علاقة وطيدة ببعض رجالاتها في الكونغرس وبعض الوزراء.

كما كان الممثل ذا الأتعاب الخيالية كريماً مع المرأة بصفة خاصة، تزيد عن كرمه وبذخه المعروف في حفلاته والأوساط المخملية، وتجعل بعضهن صائدات له، رغم أنه كان من هواة جمع النساء حوله، وعلى استعداد لشراء ابتسامة تروق له بأي مبلغ أو هدية مهما كانت دهشة مساعديه على ثمنها، لأن المال لم يكن له قيمة لديه، بل كانت القيمة كما يراها هو في ما يملكه ويعيشه ويراه، وطالما تندر المقربون منه على إسرافه وحرصه المتعنّت على رفع مستوى أجره باستمرار، رغم أنه لا يعرف قيمة النقود، وكان يردّ بعدم وجود علاقة بين ثمن استغلال موهبته وطريقة إنفاقه. فقد كان الممثل صاحب الأناقة المفرطة والقميص الجديد دائماً تحت سترته، وربطات العنق الحريرية والملابس الداخلية والجوارب المصنوعة من أرقى قطنيات العالم، يرى نفسه الأفضل في عالم السينما في أواخر الأربعينيات ويستحق مبالغ عقوده السينمائية.

لم تكن كات ترى في كل الذين حول طوم ستيوارت أهمية توازي وجود سكرتيرته آنيتا سبرنغر في حياته. آنيتا ذات الطاقة الجبارة القادرة على مرافقته أينما ذهب والعمل لعدد غير معروف من الساعات أسبوعياً، سواء أثناء النهار أو الليل، يفوق ما يعمله ستيوارت نفسه، وكانت كات تجزم بوجود حب عذري بينهما، يدفعها إلى العمل بهذا العزم وبدون توقف أو إجازة أسبوعية، ويجعله يثق بها بيقين يشبه

قطعة فنية نادرة من عصر النهضة، موجودة في معرض للفن الحديث في نيويورك. وقد تأكدت من أمر الحب العذري خلال أحد حواراتها مع آنيتا، رغم أن الأخيرة لم تقل لها ذلك بشكل واضح، إلّا أن غريزة المرأة لديها جعلتها تتيقّن من وجود مثل ذلك الحب في قلب آنيتا. وما كان يذهل كات هو تذكير آنيتا لستيوارت بمواعيده الغرامية، وكأنها من مهام عملها الأساسية، وهي كانت تعتبر هذه الأمور فعلاً من صميم وظيفتها، لأن ستيوارت كان على علاقة ببعض صاحبات النفوذ خلف الكواليس، ولا يجرؤ على مجرد عدم الرد على الهاتف لو طلبنه.

كانت آنيتا في السادسة والعشرين من عمرها، نحيفة القد بشكل لا يعيب طلّتها كامرأة، ويتناسب مع طول قامتها. ذات وجه طفولي الملمس، دقيق الملامح تبرز فيه عظام فكها بطريقة تضفي عليها جاذبية جنسية خاصة، ويتميّز بجمال راقٍ لا يوحي بسرِّه من النظرة الأولى، تشعّ من عينيها الخضراوين نظرة تنمّ عن ثقة إذا تحدّثت، وقلة ثقة في سلوك البشر عندما تستمع، رغم تهذيبها وانتقائها للكلمات. لم تكن آنيتا مخطوبة أو مرتبطة بحب أو علاقة صداقة مهمة في حياتها، سوى علاقتها برب عملها الذي يستهلك حياتها ووقتها بدون أي تأفف منها، وهو يستمع إليها بكل جسمه وليس بأذنيه فقط، ما ينمّ عن تأثيرها الكبير عليه. وقد سألتها كات ذات مرة عما إذا كان يمكنها تحفيز ستيوارت للحدّ من مظاهر

الإسراف التي ستدمِّره، وأجابتها بأن لكل إنسان سخافة معينة لا يمكنه الإقلاع عنها، والإسراف وعدم تقدير عواقب أفول نجمه يوماً ما شيئان لا يفهمهما طوم ستيوارت مطلقاً، ومن سخافاته التي لا يمكنه التخلي عنها.

تخيّلت كات وهي تنتقل من لوس أنجلس إلى نيويورك أن عمل الليل والمسرح قد علّماها ما تحتاجه في الحياة، وأنها مهما واجهت سيكون مجرد تفاصيل صغيرة في مشروع عاشت معه منذ أن كان على الورق. لكنها اكتشفت أنها يجب أن تتعلّم من جديد وتغيِّر أسلوب حياتها من النمطية التي كانت تعيش عليها، إلى التعامل مع المتغيرات في كل موقف. أحسّت كأنها انتقلت من ريف إلى مدينة، رغم أن هوليوود تعتبر قبلة العالم سينمائياً وفنياً، وكانت سعيدة حقاً بما فعلته وتشعر أن الدنيا تبتسم لها، وتنام الليل مرتاحة بعد أن تتحدث مع ابنتها الصغيرة في تفاصيل ما فعلته دينيس أثناء النهار، وتحثّها على النوم مبكراً. كما كانت تزور عائلتها حين تسنح لها الفرصة ويكون التصوير لمشاهد ليست هي فيها. وطالما تساءلت في قلبها عن قيمة حياة جايمز سكوت نفسها وهي تحتضن صغيرتها أو تفكّر فيها، بعد انزوائه المشين وهروبه جبناً من الاعتراف ببنوة ابنته، ما جعل كات تعتبر هذا الحدث محوراً مؤثراً في حياتها، وتفكّر كثيراً في الطريقة اللائقة التي يجب أن تتحدث بها في المستقبل القريب

مع ابنتها عن والدها، لكنها لم تتوصل إلى مخرج لهذه الورطة الإنسانية.

حتى عندما تقدّمت كات في العمر، لم تستطع ولا مرة إدراك كيفية تلاشي الأصوات من حولها، وتواري كل ما كان يقع على شبكتي عينيها، في اللحظة نفسها التي رأت فيها جون كارسون لأول مرة في نيويورك. شعرت بأنها تكاد تفقد توازنها وصوتها وقدرتها على التفكير، وهي ترى جون يغادر باب الخروج من السفينة وهي تنتظره. كان جون وسيماً في ذلك النهار أكثر مما هو عليه، وأنيقاً كما تعوّدت أن تراه رغم أيام السفر المتواصل التي قضاها. وشعرت بمرور ما يشبه دهراً عليها، وهي تنتظر لكي ينهي معاملاته ليغادر الدائرة الجمركية.

ـ هل أنت أنحف مما كنت عليه آخر مرة رأيتك فيها، أم المشكلة في عينيّ؟ قالت لجون وهي تعانقه عند باب الخروج.

ـ الحق معك. فقدت بعضاً من وزني أخيراً.

ـ هل أنت على ما يرام؟

ـ بأفضل حالة يمكن أن يكون عليها إنسان.

ـ لماذا نقص وزنك؟

ـ ربما يعود الأمر إلى طبيعة عملي، لكن أنا بكامل لياقتي الذهنية والبدنية.

ـ إنسَ أسلوب الكلام على حاملة الطائرة، أنت هنا مع

أنثى. همست له وهما يسيران ويدفعان عربة الحقائب أمامهما.

ـ أنا بخير. وكيف حال لورا ودينيس؟

ـ بحالة رائعة. لقد رأيتهما منذ بضعة أيام.

ـ لم ألحظ ولا معجباً يحييك حتى الآن!

ـ لأنني غير معروفة بعد.

ـ إذاً لدينا بعض الوقت لنسير في الشارع بدون مضايقات.

ـ هل هذه أول مرة تزور نيويورك؟

ـ رسونا فيها عدة مرات من قبل.

ـ هل ستكون دليلي فيها؟

ـ هناك عدة أماكن يجب أن تزوريها، لكن الأمر يتوقف على وقتك.

ـ على فكرة. كم يوماً ستمكث هنا؟

ـ أسبوعين.

ـ لقد اشتقت إليك فعلاً.

ـ وأنا أيضاً.

طلب جون من كات أن تغيِّر رقم هاتف المنزل وقفلي البابين الخارجيين، ريثما يعود هو إلى لوس أنجلس، بعدما سمع منها ما حدث بينها وبين جايمز سكوت، فربما يحاول أن يضايقها، خصوصاً بعد دخولها إلى صناعة السينما. وسيلتان احترازيتان تظهران أن الأمور تغيّرت ولم تعد كما كانت، وإن كان جون يرجّح أن سكوت سيعود ليطلب بعض

المال بعد أن يعلنا خطوبتهما، التي ستكتب عنها المجلات الفنية بطبيعة الحال.

ـ دينيس هي هاجسي يا جون. قالت كات له وهما يتحدثان عن المستقبل ويحاولان رسم صورة تقريبية له.

ـ أنت محقة. سكوت لن يطالب بها ويرفض الاعتراف ببنوتها، هل ستجبرينه على ذلك؟

ـ مطلقاً. لكن أخشى أن يعود بعد عشرين عاماً ليقول لها الحقيقة ويدمِّر حياتها.

ـ لو استمر جايمز على موقفه حتى نتزوج، سأعطي اسم عائلتي لدينيس وتكون ابنتي بشكل قانوني، إضافة لحياتها معنا، ما يجعل أي كلام يقال في المستقبل القريب أو البعيد مجرد إشاعة لا أساس لها من الصحة.

ـ وهل هذا هو الحل من وجهة نظرك؟

ـ الحل العملي مع رجل أفّاك اتّهمك أنت شخصياً بالزنى. أو ينقلب جايمز إلى لغم في حياتنا لا نعلم متى ينفجر ويدمِّرنا.

رأت كات في الحل الذي اقترحه جون مخرجاً للأزمة المعنوية التي تقلقها، وإن لم تجد أي مبرّر لنيّته الصافية تجاه فتاة ليست ابنته، كما كانت تفكّر في ضميرها بما ستكون عليه العلاقة بين جون ودينيس بعد إنجاب أولاده من صلبه، رغم أن جون بدا دائماً لها رجلاً لا يعرف المناورة سوى في الجو، وليس على أرض العلاقات الشخصية. رجل يتكلم

بدون استعمال يديه أو ملامح وجهه، وكل ما يفعله فقط هو رفع أو خفض نبرة صوته. وترنّحت كات بين فكرتين كانتا تتقاذفان تفكيرها، واتكأت على التي تريحها وتبعث الأمل فيها، ودينيس على أية حال لم تزل صغيرة ولا تعرف من هو والدها، ولم تلفظ هذه الكلمة بشكل صحيح بعد، لعدم وجود الرجل الدائم في المنزل الذي تمرّن لسانها ذو الثلاثة أعوام إلّا قليلاً على مناداته، لأنها كانت تنادي جدها أحياناً بكلمة «دادي».

ـ لكنك لم تقل لي حتى الآن لماذا تريدني أن أتوقف عن عملي الليلي؟ سألت كات جون.

ـ لا يُعقل أن تعملي ليلاً وتهتمي بأطفالك في الوقت نفسه.

ـ بصراحة. هل يزعجك عملي في المراقص؟

ـ أنت تعرفين أن هذا العمل يحتاج لعمر معين، ولن تجدي بعده من يوظّفك، ثم ستقضين باقي العمر وأنت تندبين أمجادك والأوغاد الذين نسوك. لقد ساعدك حُسن طالعك على العمل في السينما، وهذا يكفي.

ـ رغم أنك تنبّأت بعدم عملي فيها!

ـ لقد ساعدك الحظ فعلاً.

ـ هل أنت غير مقتنع بموهبتي؟

ـ سأقول لك رأيي بعد مشاهدة فيلمك.

ـ وهل تنوي أن نعيش في نيويورك؟

ـ لا. كل الذين سيساعدوننا أثناء عملك السينمائي في المستقبل في لوس أنجلس.

ـ تقصد لورا؟

ـ وأمي وأمك أيضاً.

ـ وهل ستظل بعيداً عنا؟

ـ سأنتقل للطيران المدني في خلال سنة. أسعى لذلك منذ الآن. لقد بدأت أمور حياتي تتوضّح شيئاً فشيئاً أمامي.

برغم عمل السينما المرهق وجدته كات رائعاً ويستحق العرق الذي يبذله الإنسان في سبيله، سواء للوصول إلى الدائرة البشرية التي تداعب أحلام الناس وتشكّل أذواقهم وأسلوب ملابسهم وأفكارهم أحياناً، أو المجهود الذي يستهلكه الممثل لتقمُّص شخصية والتعامل مع مجرد سطور على ورق، ليقدِّمها للناس إنساناً يعيش بنمط معين في المجتمع، يجعل المشاهدين يشعرون من خلال ما يرونه أنه حقيقي، ولو انتفت حقيقية الأداء والمعلومات الشخصية التي يقدّمها فالفيلم سيسقط.

كانت كات تنسى نفسها وهي تؤدِّي، ولا تعد تتذكّر من هي ولا الصلات التي تربطها بالبشر، حتى أقاربها وابنتها وجون نفسه. كانت تشعر أنها عندما تدخل البلاتوه تخلع شخصيتها مثلما تغيِّر ملابسها، ولم تدرِ لماذا كانت تشعر بالراحة والامتنان وهي تلعب شخصيتها في الفيلم، وتخرج بعد التصوير وهي تحسّ أنها أقدر على مواجهة حياتها الحقيقية والعلاقات المختلفة فيها.

شاهدت كات بعد الانتهاء من تصوير الفيلم بشكل نهائي شيئاً آخر غير السيناريو الذي قرأته، والمشاهد التي شاركت فيها، أو التي حضرت تصويرها. شيئاً يشبه حكاية متكاملة تمّ تصويرها في الوقت الذي استغرقه عرض الفيلم نفسه، ولم يظهر فيها خلافات وجهات النظر المتباينة، ولا الزمن الفاصل ما بين مشهد وآخر، أو عدم وجود علاقة بين بعض الممثلين إطلاقاً في قصة الفيلم. كما لاحظت تأثير الموسيقى التصويرية على المشاهد وكيفية تهيئتها لما هو آتٍ من كلمات وتغييرات، وهي عنصر لم يكن موجوداً بتاتاً أثناء التصوير. وقد اتفق الجميع على بقاء الفيلم كما هو عليه، ما عدا مشهدين قرّر معظم المشاركين في الفيلم حذفهما، لضعفهما بالنسبة لباقي المشاهد والعملية السردية والدرامية للفيلم. وكان المشتركون في الفيلم ينتظرون العرض الأول الذي سيشارك النقاد والمدعوون من الجمهور في حضوره، وهو الموعد الحاسم الذي يعطي إشارات مهمة لمصير الفيلم، الذي خرج تماماً من بين أيادي وآراء صانعيه، وأصبح أمام عيون وعقول يمكن أن تكون صاحبة رأي يختلف عنهم تماماً، إضافة إلى مستقبل كات نفسها في الفيلم الاستعراضي، وهو الأمر الذي كان يقلق كل المساهمين والعاملين في شركة الإنتاج التي قدّمت الفيلم، ما عدا صامويل جونسون الذي كان على ما يبدو واثقاً باختياره لها، لإطلاق سلسلة من الأفلام الاستعراضية تكون هي بطلتها.

الفصل الرابع

كتبت الصحافة الفنية عندما تزوجت كات وجون كارسون في خريف العام 1948، أنها محظوظة جمعت بين النجاح والشهرة والحب، وبرّر الصحافيون ذلك بزواجها من خارج المجال السينمائي بعد علاقة غرامية بضابط طيّار استمرت عدة سنوات. وأفسحت المجلات لها صفحات عديدة لخبر وصور الزفاف المتميِّز بحضور نخبة من العاملين في مجال السينما والفن ورجال الأعمال والعسكريين رؤساء وزملاء زوجها. ووصفت بعض الأقلام المراسم التي تمّت في إحدى كنائس لوس أنجلس، بالزواج الذي جمع بين رمز من رموز الجمال السينمائي، وبين رجل عسكري يعتبر من أبطال أميركا في الحرب العالمية الثانية.

لم تبالغ المقالات التي كُتبت عن الزواج الذي رفع مبيعات المجلات التي صدرت وبين صفحاتها أخبار وصور زواج كات وجون، فقد كرّسها نجاح «أغنية الفصول» الكبير المباغت وقتها نموذجاً يلهب مشاعر مشاهدي فيلمها وأصحاب النظرة المتأنية إليها، بجمالها وعينيها الزرقاوين، وجسدها الذي نحتته أصابع مثّال يحترف عمل الزوايا ويمتهن

وضع التضاريس النافرة المثيرة في أماكنها الصحيحة. وأضاف خيال الناس وهم يرون بجانبها رجلاً لا يقلّ جاذبية عن نجوم هوليوود وغيرها من مراكز صناعة الفيلم في الولايات المتحدة الأميركية، حكايات كثيرة عن غرامهما الذي كانت دينيس ثمرته التي أخفياها عن الناس البعيدين عن دائرة أسرتيهما، ولم تفلح الهمسات التي قالها أهل كات عن حقيقة بنوّة الفتاة، في خدش الأساطير التي قيلت عن زواج الممثلة صاحبة المستقبل الموعود، ورجلها الذي ارتفعت شعبيته في المجتمعات وبين زملائه بشكل خاص.

سافر الزوجان لقضاء شهر العسل إلى لاس فيغاس التي كانت في ذلك الوقت بقعة شبه مجهولة في صحراء ولاية نيفادا المجاورة لكاليفورنيا، ولم يتخيّل أحد أن تصل إلى المكانة العالمية التي وصلت إليها في ما بعد، رغم أن رجال العصابات المنظمة بدأوا منذ عام 1948 استغلالها كمكان لنوادي القمار، بعد استصدار رخص إقامتها لتكون بعيدة عن قوانين ولاية كاليفورنيا الصارمة تجاه بيع الخمر وإباحة الميسر في نواديها. ولم تسأل كات جون لماذا اختار لاس فيغاس، لأنها شعرت بأنها ستستمتع بوقتها في المكان الذي قال لها زوجها عنه إنه يحمل سحراً خاصاً في الخريف، ويبعد عنها الفضوليين سواء في نيويورك أو لوس أنجلس.

ـ يبدو أنك على دراية بالطائرات. قال طيّار الطيارة

الصغيرة ذات الأربعة مقاعد لجون وهو يطير بهما إلى لاس فيغاس.

ـ دراية؟ إنه طيّار. قالت كات.

ـ طيّار؟

ـ نعم. ألم تقرأ تفاصيل زواجنا في المجلات؟ أجابت كات.

ـ كلا يا عزيزتي. مشكلتي أنني أتأمل الصور فقط.

ـ وكان مرتدياً حلّته الرسمية فيها!

ـ لم أتخيّل أنه طيّار... وحربي أيضاً. هل تودّ القيادة؟

ـ أنا التي تودّ مشاهدته وهو يقود لأول مرة.

ـ قدّ هذه الطائرة بعروسك حتى تراك.

ـ لكنك ستكون ملّاحي لأنني لم أطر هذه الرحلة من قبل. قال جون.

ـ اتفقنا.. سأكون ملّاحك. وهي رحلة لا تنسى بالنسبة لي. من كان يتخيّل أنني سأطير بكات يوم زفافها إلى لاس فيغاس؟! قال الطيّار وهو يترك مقعده لجون.

ـ وتجلس بجوارها طوال الرحلة. عقّب جون.

ـ أمر رائع أن يكون المرء محبوباً من الناس، أليس كذلك يا كات؟ سألها الطيّار بعد جلوسه بجوارها.

ـ والأروع أن يجد الحب والإنسان الذي يثق به.

ـ هل أنت سعيدة لأنك وجدت ما تبحثين عنه؟

ـ لدرجة أنني أتمنّى الحصول على الخلود بأي ثمن كي لا أخسر ما وجدته.

ـ على فكرة.. أنت خالدة بشكل ما.

ـ هل تظن ذلك؟

ـ نعم. وأنا سعيد لأنني رأيتك كما أنت في رحلتك الشاعرية هذه، فوق رمال الصحراء وأشعة شمس الغروب الذهبية تنعكس علينا.

ـ هل كنت تعتقد أنني غير الإنسانة التي رأيتها؟

ـ من الصعب معرفة حقيقة الممثل وهو على الشاشة.

ـ وقد تصدم معجبيه أحياناً. قال جون.

ـ على أية حال أنا فعلاً مسرور بكما للغاية وأتمنّى لكما حظاً سعيداً دائماً.

ـ ونحن أيضاً.

ـ وأتمنّى أن أذهب بكما مرة أخرى إلى لاس فيغاس، من أجل هذه الصدفة الطيبة التي جمعتني بكما.

ـ ربما تتكرّر. من يدري؟ أنا من محبي لاس فيغاس. قال جون.

ـ سنطلب من الشركة أن تصطحبنا في رحلة العودة. قالت كات.

ـ استقرّت العائلة الجديدة في لوس أنجلس بسبب ظروف عمل جون وكات معاً، وحاجتهما الملحّة لوجودهما بالقرب من عائلتيهما، ولورا التي تعيش معهما ومن اللائق التفكير في

سكن يكون قريباً من عملها، رغم أن عرف العمل الفني كان يقتضي غير ذلك، إضافة إلى رغبة جون العميقة في عدم ترك دينيس وما سيأتي من أطفال بأيادي خدم لتربيتهم، ولم ترفض كات هذه الرغبة، لأنها رأت أنها تناسب طباعهما وليس عملهما، كما تلائم ظروف العائلة التي سيعمل ربها على خطوط الطيران الداخلي في الولايات المتحدة، انطلاقاً من مطار لوس أنجلس، بعد أن يترك الخدمة في الجيش الأميركي بعد وقت قريب، ما يعني أنه ليس موجوداً في منزله دائماً، وظروف عملها التي تحتّم عليها ترك أسرتها للانتقال إلى أماكن تصوير الأفلام التي تشارك في بطولتها أينما تطلّب الأمر أن تذهب. وقد بدأت كات حياتها الأسرية الجديدة برغبة عميقة في إنجاب طفل آخر ليشعر زوجها أن الأسرة التي يعيش وسطها هي أسرته، ولأنها كانت تريد فعلاً أن تشعر بجنين في أحشائها ينتظر أبوه حضوره ولا يتهرّب منه، بعد تجربتها المرة الأولى التي أزعجتها كثيراً وتمنّت أحياناً لو تنساها للأبد.

كانت كواكب السينما الأميركية في أواخر أربعينيات القرن العشرين ينظرن إلى كاترينا أرهارد نظرة تقدير خاصة، لكونها ربة أسرة أيضاً، وهمست إحداهن ذات مرة في أذنها بأن العائلة هي من سيدوم لها، والأفلام ستبقى للتاريخ والمشاهدين، وأخبرتها بمصير بعض من اللاتي ظننّ أن الأضواء ستستمر من حولهن، وعندما انحسرت أفقن على

حقيقة مُرّة جعلت بعضهن يعشن على حافة الجنون بسبب تبخر أموالهن، ومن حولهن من المنتفعين والمنافقين. كما دفعت بعضهن إلى السقوط إلى مستوى مومسات لتأمين لقمتهن والكحوليات التي أدمن شربها يومياً بعد أفول نجمهن. كن يحسبن كات سعيدة الطالع لأنها وجدت الرجل الذي يثق بها ويراها كما هي، وأسست معه أسرة تحميها من الأفّاكين، وتصحّح أفكار من يحاولون مراودتها واستغلالها.

بعد أن بدأت ملامح حمل كات الثاني تظهر بوضوح اضطر المنتج وفريق الفيلم الذي تعمل فيه لوقف العمل نهائياً إلى ما بعد الولادة، وكانت مناسبة أيضاً للتفكير جدياً في تعديل السيناريو لتتغيّر بعض أحداث الفيلم ونهايته، لأن مشاهدة الشركة المنتجة وفريق العمل لما تمّ تصويره لم تعطِ الفيلم، علامات النجاح المطلوبة لاستمرار إخراجه بالطريقة التي قُدِّرت له منذ البداية.

كان يحلو لجون أن يأخذ كات ودينيس أحياناً للتنزّه على شاطىء الكربون في ماليبو، وكان ذلك يذكّرها بالأيام الماضية الحلوة التي جمعتهما معاً في صور الذاكرة، ولا شأن لها بمرور الأيام أو تغيُّر الظروف حولهما، أو مظاهر الحمل البادية عليها، التي أسعدت جون لدرجة أنه لم يصدِّق الخبر في البداية. ورغم أن الشاطىء كان يعتبر آخر الدنيا لسكان لوس أنجلوس في ذلك الوقت، وكانت المنطقة شبه خالية من المنازل، كانا يرتاحان لوجودهما فيها وكذلك

دينيس التي كانت تركض أمامهما وهما يتمشيان، وكان جون يدّعي أنها سبقته في الركض عندما ينطلق بعدها، بينما هي تنظر خلفها وتضحك ضحكة ابنة أربع سنوات، وتجتهد لكي لا يصل إليها ويسبقها. وكانت لورا تشاركهم في زيارتهم لماليبو أحياناً، وتنهمك في الركض معهما، وتتركهما لتذهب وتشاهد إحدى الفقمات التي تتمرّغ على الشاطىء، ويضطر جون ودينيس لوقف السباق واللحاق بلورا. وقد تفعل لورا ودينيس ذلك إذا كان أحدهم يمارس رياضة ركوب الأمواج ببراعة لافتة، واضطر جون كعادته إلى التسمّر فوق الشريط الرملي الذي تتكسّر عليه الأمواج لمتابعته، لأنه كان من عشاق هذه الرياضة وممارسيها.

استقرّ في ذهن دينيس الذي كان يتفتّح وعلى لسانها الذي بدأ يقول جملاً واضحة كاملة، أنَّ أباها هو جون كارسون الذي كان يحبها فعلاً ويعاملها كأنها من صلبه، ويصبر على شقاوتها وعبثها الطفولي أكثر من أمها نفسها، ونادراً ما ارتفع صوته لردعها عن دخول المطبخ والتجول بأناملها الصغيرة بين محتوياته، أو لعبها بأوراقه الخاصة وتذكاراته وكتبه، ورفضها الذهاب إلى الفراش للنوم ليلاً. وقد جعلت هذه الأمور الفتاة الصغيرة تقرأ بفطرتها تسامحه نحوها، وتلجأ إليه أو تنادي اسمه بصوت عالٍ عندما تبدأ كات بزجرها وطردها من المطبخ أو من أمام مكتبة جون، الذي كان عنصر التهدئة دائماً والطرف الذي يلين باستمرار أمام رغبات دينيس بسبب

صغر سنها كما كان يبرِّر لزوجته. وقد نصحته لورا ذات مرة بأن الفتاة يجب أن تخاف من شيء واحد محدّد على الأقل، وإلّا أضرّها التدليل وجعلها لا تخاف من شيء في المستقبل. وكان جون يرى أن ما تقوله لورا صحيح لكن بعد عمر السابعة، ليستوعب الطفل ما يُقال له.

ـ على فكرة.. عندي خبر لكما ستعرفانه قبل أبي وأمي. قالت لورا لجون وكات بينما كانوا يتمشون بعد ظهر يوم أحد في ماليبو.

ـ ما هو؟ سألتها كات.

ـ ثمة شاب يريد أن يخطبني.

ـ أمر رائع. قال جون.

ـ ولماذا اخترت أن نعرف قبل والدينا؟ سألتها كات.

ـ لأنني أعيش معكما وزواجي في المستقبل سيجعلكما تفكران بطريقة أخرى بالنسبة لأولادكما.

ـ هذا أمر طبيعي، لم أشأ التفكير إلّا عند حدوثه. قال جون.

ـ هل تنويان الزواج قريباً؟ سألتها أختها.

ـ بعد سنة على أقل تقدير. لكننا سنعلن خطبتنا خلال شهرين.

ـ هل أعرف هذا الشاب؟ سألتها كات.

ـ لا. اسمه إدوارد وقد تعرّفت عليه بالصدفة أثناء زيارة له للمدرسة التي أعمل فيها.

ـ ماذا يعمل؟ سألها جون.

ـ يعمل بالأجهزة الصوتية في طوكيو.

ـ طوكيو؟ هذه صناعة لها مستقبل مرموق جداً. قال جون.

ـ لكنه أميركي أليس كذلك؟ تساءلت كات.

ـ نعم. وهو يريد أن تساعديه ليتعرّف على شركة «البلوط الأبيض» السينمائية لعرض بعض التقنيات الصوتية عليها.

ـ الحمد للَّه. وإلّا اتهمتني كل العائلة بقصفهم! قال جون.

ـ حتى لاري تانر يهمّه هذا الأمر على ما أعتقد. هل صديقك هنا حالياً؟ قالت كات وهي تضحك على تعليق جون.

ـ لمدة أسبوع.

ـ سأحدِّد موعد عشاء قريباً جداً مع لاري هاتفياً الليلة، وعليك أنت إبلاغ إدوارد الدعوة، وسأقوم بالاتصال بالشركة غداً لعرض الأمر عليها أيضاً.

ـ لم يصدِّق إدوارد أنك أختي في البداية.

ـ لماذا؟أمر طبيعي أن يكون لي أسرة!

ـ لأننا لا نتشابه في الملامح.

ـ سيغيِّر رأيه عندما يراني بهذه الحالة. سينسى ما رآه على الشاشة. قالت كات وهي تضحك.

كان الارتباك واضحاً على ملامح إدوارد إليوت وهو

يصافح كات لأول مرة في منزلها، وبدا مثل معظم الناس الذين يتأثّرون بالهالة المحيطة بالعاملين في دائرة الشهرة، ولم يستطع خفض عينيه إعجاباً بها طوال الدقائق الأولى بعد دخوله إلى منزلها، كذلك لم تختفِ ابتسامته وهو يستمع إليها وهي تتحدث، وكان الانطباع الأكثر تأثيراً عليه هو تصرفها الطبيعي، وعدم تكلفها في أي شيء تقوله أو تفعله، فقد سبق ورأى بعض النجوم بعيداً عن أماكن عملهم وفوجىء بهم وكأنهم أفراد آخرون لا يمتّون للأشخاص الذين يظهرون على الشاشة بأية علاقة. كما تساءل في ما بينه وبين نفسه عن سبب عدم استعمالها لأي ماكياج رغم أنها نجمة وصاحبة دعوة على العشاء، ورجّح أنها ربما تعاني حساسية معينة في بشرتها تمنعها من استخدام مساحيق التجميل، لكنه لم يتخيّل أنها لا تستعمل أية مواد تجميلية بعيداً عن عملها، وأنها تفضّل البساطة ولا تستعمل حتى العطور، وكل ما تفعله من الأمور النسائية الظاهرة للعين بانتظام ـ أثار دهشة جون نفسه ـ هو تلوين أظفار يديها وقدميها والعناية الفائقة التي تصل إلى حدّ الهوس بها.

على مائدة العشاء التي تخلّف عنها جون بسبب وجوده خارج كاليفورنيا، في عمله الجديد الذي لا يعرف أوقات الموظفين المنتظمة، لم يستطع لاري تانر إخفاء دهشته وهو يسمع عن تقنيات صوتية في اليابان، أكثر تطوراً من مثيلاتها في الولايات المتحدة، رغم أن طوكيو بعيدة عن العواصم

الكبرى للسينما والأغاني والموسيقى في العالم، وفهم مما قاله إدوارد أن الشعب الياباني لديه الكثير وقرّر فعلاً التفوّق في ميدان آخر غير الحروب، التي على ما يبدو أنه تركها بعد الدرسين القاسيين في هيروشيما وناغازاكي. ولم يستطع أن يخفي ابتسامته الساخرة وهو يستمع إلى إدوارد يقول إن أستوديوهات أميركا الكبرى ستكون مجهّزة بتقنيات يابانية في الخمسين سنة القادمة، وأنه هو شخصياً كان زائراً لمدة شهر لمدينة ناغويا، لكنه قرّر العودة ليعمل ويتعلّم أكثر هناك، واستطاع فعلاً إقناع القيِّمين برغبته وأدهشهم بعد مراقبته تصرفاته. كان واضحاً تأثُّر إدوارد بالحضارة اليابانية وعمقها التاريخي، لدرجة أنه أصبح يتكلم ويضحك ويتصرّف بالتهذيب الياباني البالغ نفسه.

ـ ما رأيك يا كات في ما سمعته؟ سألها لاري.

ـ لا تنسَ أن طوكيو كانت نداً عسكرياً قوياً، وشيء طبيعي أن تكون صاحبة تقنية متطورة.

ـ كان من المفترض أن نأخذ رأي الطيّار الغائب عن العشاء في كولورادو اليوم.

ـ أعتقد أنني سمعته مرة يتكلم على موضوع يخصّ طوكيو مع أحدهم، وعلى ما أذكر كان رأيه ممتازاً.

ـ سأزور ناغويا خلال شهرين يا إدوارد، وهذه الزيارة يمكن أن تكون بداية عمل جيد لكلينا، لأنني على علاقة بنصف أستوديوهات كاليفورنيا.

ـ ومعظم شركات الإنتاج صاحبة الإعلانات التجارية. عقّبت كات.

ـ هذا صحيح. لكننا سنفتقد لورا قريباً مع أنواع الحساء الرائعة التي تعدّها.

ـ لا تنسَ أن عدد أنواع الحساء في اليابان أكثر. قالت لورا.

تخيّلت كات أنها تتعرّف على جون لأول مرة بعد لقاءين بينه وبين إدوارد في الأسبوع الذي أمضاه في أورانج كاونتي، التي تبعد عنهم حوالى نصف ساعة بالسيارة، وزارهما ثلاث مرات فيه ليصطحب لورا معه في جولة، خصوصاً في الليلة التي استبقاه فيها جون على العشاء عندهم. لم تعر كات مكتبة جون وكتبه التي تزيد عن ألفي كتاب ومجلد تقريباً أي اهتمام من قبل، وكانت تتخيّل أنها كتب ومجلات يحتفظ بها من أيام التلمذة، كذلك كانت تعتبر ذهابه إلى شاطىء الكربون في ماليبو نوعاً من الترفيه عن النفس، كما أنها كانت تنظر إلى القرارات التي يأخذها في حياته ولا يستطيع أن يغيِّر من جوهرها أي مخلوق، مجرد إرادة رجل قوي العزيمة. لكن هذه النظرة السطحية تغيّرت تماماً عندما جلس الرجلان وتحدّثا لعدة ساعات، بدا جون فيها رجلاً مثقفاً يكاد يدين بمذهب غريب غير البروتستانتية، أقرب إلى تفكير حر بعيد عن القوالب التي تعرفها، ويردِّد كلمات بدت عجيبة لها، مثل القوى الكونية وروح الوجود والغفران ولغز الحياة

المؤهلة للتكاثر ومعنى وجود الألم وثبات الأنا رغم تبدّل صور الحياة وتجدُّد الخلايا بعد موتها. وكان لهذه الكلمات صدى عند إدوارد الذي تجاوب معها لأنها أليفة له كما بدا لها، ولم يندهش من صدورها عن طيّار مقاتل سابق.

انتهت فكرة ذهاب لاري إلى اليابان بتزكية من جون الذي قال له إنها ستفتح آفاقاً جديدة تساعده في عمله، وربما فتحت خطوطاً تجارية له في مجال جديد، لم تطأه أقدام كثيرة بعد. واقتنع لاري من جون صاحب التأثير الإيجابي عليه، وسافر إلى اليابان بعد أقل من شهر على لقائه بإدوارد في منزل جون، ولم يندم على هذه الزيارة التي نصح بعدها جون نفسه بزيارة طوكيو.

ـ قد أزورها كثيراً في المستقبل. قال جون.

ـ لماذا؟

ـ قدّمت لي شركة الطيران عرضاً بالعمل على خطوطها الخارجية في الشرق الأقصى.

ـ ولماذا لم تقبله؟

ـ تعلم ظروف كات الآن. الطيران الداخلي يتيح لي التواجد في المنزل بشكل شبه يومي. أما العمل هناك فسيتيح لي إجازات هنا فقط.

ـ فهمت.

ـ لكن الفكرة جيدة وقد أنتقل إلى الخطوط الخارجية بعد ثلاث سنوات.

ـ هل تحب عملك يا جون؟

ـ بشكل لا يمكن أن تتخيّله.

ـ أفهم ذلك لأنني أمارس عملي بنشوة.

ـ ربما تختلف مهنة الطيران عن أي عمل آخر. التعرف على أناس وأماكن جديدة شيء يجدِّد نشاط الإنسان فعلاً.

ـ يبدو أنك لا تشكو من الروتين.

ـ أشكو منه أحياناً. لكن متعة التنقل تقلِّل من أهميته.

ـ السفر متعة حقيقية.

ـ على فكرة.. لماذا لم تقل لي إن زوجتك مسافرة إلى إيداهو؟

ـ قالت لي إنها التقتك على متن الطائرة أثناء ذهابها.

ـ كان موقفاً طريفاً. فقد فوجئت بسيدة تحيِّيني باسمي وأنا أمشي في ممر الطائرة.

ـ إنها تسافر إلى إيداهو من وقت لآخر لأنها تعطي بعض التصاميم لشركة أزياء هناك.

وضعت كات ابنتها الثانية ويندي في نيسان/أبريل 1950، والظروف حولها تبتسم، بعد فترة حمل استمتعت بها ومرّت كل متغيراتها على أي امرأة بشكل رائع عليها، وكأنها كانت تنتظر هدية ثمينة، يهون دونها كل شيء. وكانت فرحة جون بالمولودة كبيرة، وظلّ لبضعة أيام ينظر إليها غير مصدق، ويسأل زوجته عما إذا كانت هذه المخلوقة هي التي كانت في أحشائها، وتبدو على ملامحه أمارات الدهشة من مراحل حياة الإنسان، وكانت أول ردة فعل لدينيس هي الانفعال

والقلق على أمها الراقدة في السرير، عندما ذهبت إلى المستشفى مع خالتها في صباح اليوم التالي للوضع، لكنها سرعان ما بدأت تتذكّر ما كان يقوله الجميع لها عن المولود المرتقب، فطلبت أن تراها، وذهبت مع الممرضة وخالتها إلى غرفة المولودين حديثاً، وقبّلت أختها الصغيرة والممرضة تحملها وتريها إياها.

حظيت ويندي بما لم تنله دينيس عند ولادتها من تهانٍ واهتمام وزهور كثيرة جداً على باب غرفة أمها، وغادرت كات المستشفى وهي مثقلة بالهدايا وبطاقات التهنئة والتمنيات الطيبة والدعوات بطول عمر صغيرتها. وسألت كات جون عدة مرات بعد رجوعها إلى المنزل عما إذا كان سعيداً بالطفلة، أم كان يتمنّى إنجاب صبي، وأجابها بأنه سعيد، في كل مرة سألته فيها. ولاحظت كات أن اهتمامه بدينيس لم يفتر، وأن نظرة عينيه إليها لم تتغيّر، وانتظاره لقدومها من المدرسة ليتناول معها الغداء لو كان في المنزل ظلّ على حاله، كما لم تزل ابتسامته الكبيرة على شفتيه عندما تقول دينيس شيئاً طريفاً من صنع مخيلات من هنَّ في عمرها. وكانت دينيس تحبه فعلاً كأب لها وصديق تلوذ به عندما ترتفع الأصوات من حولها لتنهرها عن عمل شيء ما، لأنها كانت تدرك تماماً أنها أصبحت بعيدة عن الزجر، رغم أنه بطريقته الخاصة كان يمنعها من عمل الشيء نفسه. وكانت تفاخر به بين التلامذة في المدرسة وتقول إنه يطير على ارتفاعات كبيرة لا يمكن أن يراها الإنسان.

اضطرت كات للسّفر إلى نيويورك بعد ثلاثة أشهر، عندما عادت لتكمل تصوير الفيلم الذي توقّف بسبب حملها، وعادت وتيرة حياتها إلى السرعة مرة أخرى، والتنقل ما بين أماكن العمل والمنزل. واصطحب جون دينيس معه ذات مرة أثناء عطلتها الدراسية الصيفية، وكانت أول مرة تطير فيها وأحسّت بسعادة كبيرة والبيوت تصغر وتختفي بينما الطائرة ترتفع باستمرار، وشعرت بالفخر لأن أباها هو الذي رفع هذه الطائرة الضخمة التي رأتها معه على أرض المطار قبل الإقلاع، وفتحت فاها دهشةً وهي تحاول أن تتخيّل كيف ترتفع هذه الآلة الأكبر بكثير من السيارة في الجو، خصوصاً أن عدداً لا يحصى من الحقائب وضع فيها، إضافة إلى المسافرين وطاقم الطائرة الذي قدّمت مضيفاته تحية خاصة لها وسألنها عن عمرها ومدرستها وهدف زيارتها إلى نيويورك، التي رأتها دينيس بعيون طفلة مبهورة بناطحات السحاب غير الموجودة بهذه الارتفاعات في لوس أنجلس، والشوارع التي تحتوي على محلات ودور سينما ومطاعم وسيارات عددها أكبر مما رأته في مدينتها.

لم تستطع كات ولا مرة أن تفهم لماذا لا يبدي جون نحو عملها أي نوع من أنواع المشاعر التي كانت تسمعها ممن تعملن في السينما معها. لم يقل أبداً إن أكثر وقتها لعملها وليس له، ولم يبدِ أحاسيس الغيرة الحمقاء عليها، أو ينزعج بسبب وجوده في الظل وهي تحت الأضواء الباهرة، كما لم يتضايق من ملاحقة الصحافة الفنية لها حتى في منزلهما، ولم

تسمعه يقول إنها إنسان مختلف على الشاشة يتمنّى أن يجده في الحياة، مثلما يقول بعض أزواج الممثلات لهنّ على سبيل السخرية من الصورة المرسومة لهنّ في قلوب الناس، واختلافهن عنها تماماً بعيداً عن السيناريوهات المرسومة لهنّ. أما أغرب الأمور فكانت عدم تلهفه لمشاهدة أفلامها، بقدر ما كان يحتفظ بقصاصة جريدة أو صفحة مجلة فيها خبر عنها ليقدّمها لها. وكان يغيظها أحياناً حياديته وعدم تدخله في شؤونها، وقد فسّر لها ذلك بأنها لن تفهم ماذا يعمل لو دخلت إلى كابينة قيادة الطائرة، تماماً مثلما لا يفهم هو لماذا لعبت هذا المشهد بهذه الطريقة، أو لماذا اختار المخرج توقيت استعراض راقص في بداية فيلم.

برغم أن جون وكات كانا يحبّان لورا حباً كبيراً ويقدّران وجودها معهما في المنزل، لم يستطيعا تخيُّل الفراغ الذي وقعا فيه بعد زواجها وسفرها إلى ناغويا، المدينة التي يعيش فيها زوجها في اليابان، أو تصوُّر الارتباك الحياتي الذي حدث بعد أن تركت منزلهما. انقلبت كل الأمور التي كانت تسير بطريقة منظّمة رأساً على عقب، لدرجة جعلت وجود مدبرة منزل تعيش معهما أمراً حيوياً، كما أصبح التنسيق بين مواعيد الزوجين بالنسبة لعملهما شيئاً ضرورياً، وصار أقل تعديل على جدول طيران جون يسبِّب إزعاجاً له، ولأول مرة بعد زواجهما يسألها جون عما إذا كانت تستطيع أن تعمل ليلاً كما كانت سابقاً بعد أن أمست أماً لطفلتين، وابتسمت كات وهي تستمع إلى هذره، وردت عليه بأن الأمر يهون لو

كان الرقص فقط هو الذي لم تعد تمارسه ليلاً، وانفجر جون ضاحكاً من تلميح زوجته وهو يقول لها إنهما يبدو قد نسيا ذلك الأمر. وكان جون يعني الظروف التي تجعلهما يهرولان في النهار، وينامان مرهقين في الليل، واضطراره هو أحياناً إلى الاستيقاظ عند الثانية بعد منتصف الليل، لو كان سيطير عند الخامسة صباحاً، ليعود مساء إلى منزله في رحلة الإياب.

لكن كل هذه الأمور لم تكن تعكِّر حياة الأسرة أو تجعل أحد قطبيها يتذمّر من الآخر، أو يبحث عن بديل سرِّي يلتمس عنده الاهتمام والحنان والحاجة إلى الحياة الجنسية. كان جون وكات مكتفيين بغرامهما وما آل إليه من مسؤوليات، تحوّلت أعباؤهما والوفاء بها إلى نوع من اللذّة التي تجعل أيام الأسبوع تركض ما بين العمل والتنزّه مع الطفلتين ومتابعة دينيس في المدرسة ودروسها في المنزل والتزاماتهما الاجتماعية بسبب عمل كات الفني. ولم يعرف كلاهما مدى تأثير أحدهما على الآخر، سوى بعد حضور طوم ستيوارت إلى منزلهما لتلبية دعوة إلى العشاء، أثناء زيارة له في لوس أنجلس كانت ترافقه فيها آنيتا سبرنغر كما هو متوقّع، وقد تعمّدت كات أن تكون الدعوة في منزلها لإضفاء نوع من الخصوصية والحرارة على الحدث، لأن طوم وآنيتا كانا صديقين حميمين، وليس مجرد شخصين تربطهما معها علاقة عمل، وكان جون يعلم ذلك تماماً.

ـ هل بينكما صلة قرابة؟ سأل طوم جون أثناء العشاء.

ـ لا. هل نبدو كذلك؟

ـ ليس من حيث الملامح، لكن من حيث الروح وطريقة الكلام والإصغاء.

ـ هل نحن فعلاً كذلك؟ سألت كات بدهشة.

ـ مؤكد. يبدو أنني لاحظت ذلك لأنني أراكما لأول مرة بعد الزفاف، بعكس الذين يعرفونكما ويرونكما باستمرار. قال طوم.

ـ هل تلاحظين ذلك يا آنيتا أيضاً؟ سألتها كات.

ـ ملاحظة طوم صحيحة إلى حدٍّ بعيد.

انتهى العشاء بتوطيد معرفة طوم وجون، وإن بدا لكات أن الأول كان أكثر إعجاباً بالثاني. كما تأثر طوم كثيراً بالحياة الأسرية والمنزل البسيط الذي تعيش فيه، وسألها بعد العشاء وهم يتسامرون إذا كان أهل الحي يتطفلون عليها لأنها غير محتجبة عنهم، وردت هي بأنهم ربما تعوّدوا عليها وعلى رؤيتها بينهم، ولم تعد ذلك الحلم البعيد عنهم، وتعجّب طوم الذي يعيش ويسير بين كوكبة من الناس من كلامها ولم يستوعبه، ربما لأنه يعتقد أن الغموض والتحرك بين مجموعة بشرية واقتناء سيارات فارهة وشراء فيلات من مستلزمات النجومية. ولم يمنعه اعتقاده الشخصي من الإعجاب بحياة زميلته، التي ذكّرته بشكل غير مباشر بحياته قبل أن يصبح نجماً.

ـ هل أنت مقتنعة بعدم وجود علاقة بينهما؟ سأل جون

زوجته وهو يعني آنيتا وطوم، بعد انتهاء العشاء وذهاب الضيفين.

ـ متأكدة تماماً إذا كان ما تقصده علاقة جنسية.

ـ لكنها تبدو متيّمة بحبه وكل مرة تنظر إليه يرشح الغرام من ملامحها.

ـ صحيح وهو أيضاً مثلها الأعلى، لكن لا ممارسة جنسية بينهما.

ـ ربما هو السبب.

ـ أكيد.

ـ هما شخصيتان متشابهتان في كثير من الأمور على أية حال.

ـ هل تظن ذلك؟

ـ متشابهان في العمق وليس ظاهرياً، وكل منهما ينتظر أن يقتحم الآخر حياته ولا يعيش فيها.

ـ كيف؟

ـ هي تنتظر كأنثى بينما هو ينتظر كنجم تركض النساء وراءه.

ـ إذا كان الأمر كذلك سيطول انتظارهما.

ـ دشّنت كات وبول وايتمان في أواخر سنة 1950 فيلمهما الجديد في افتتاحه التجاري الأول، وهي تكاد تتحوّل إلى ظاهرة تتعامل معها الأوساط والصحافة الفنية على أنها المعبودة الجديدة للربع الثالث من القرن العشرين، صاحبة المستقبل الواعد في دنيا الفيلم الاستعراضي. وكانت هي

مقتنعة بذلك لأنها تشعر في قرارة نفسها أنها ليست ممثلة فقط يمكنها أداء دور درامي صرف أو حتى المشاركة في أفلام الحركة والمغامرات أو «الوسترن». لم تتخيّل نفسها بعيدة عن أجواء الموسيقى والأضواء والوقوف بين الفتيات الجميلات لتقديم اللوحات الراقصة، وكأنها قد خُلقت من أجل هذه الوظيفة في الحياة، ومنها كانت تشعر أنها تستمدّ سعادتها وقيمتها في الوجود.

ورغم وقوف كات على أولى درجات سلم المجد، الذي بدا لكل من حولها ولها أيضاً، أنها تستطيع الصعود فيه بقدر ما تتيح لها موهبتها وصحتها وحظها، كانت تشعر في داخلها أنها أكثر عصبية، وتحسّ بالتوتر والغيظ يكادان يمزّقانها بدون سبب واضح معروف لديها، ما انعكس على روحها المرحة ومزاجها بوجه عام، وجعلها تشبه من يعاني كابوساً داخلياً، الأمر الذي انعكس على ابنتيها، وجون الذي لم يجد مبرراً لعصبيتها الظاهرة والضيق النفسي الذي يبتلعها، والحزن غير المفهوم الذي يسبِّب لها الانزواء وعدم الرغبة في تبادل الحديث أحياناً، حتى لو خرجا في رحلة خلوية. وكانت كات نفسها تتعجّب من هذه التقلبات الحادة التي تجتاحها من وقت لآخر ولا تستطيع أن تهرب منها.

ـ إن تخطِّي التاسعة والعشرين يسبّب لبعض الناس انزعاجاً بدون سبب. قالت لها ناتالي مدبرة منزلها.

ـ ولماذا التاسعة والعشرون؟

ـ ربما الخامسة والثلاثون أحياناً.

ـ لكن لماذا؟

ـ لأنهم يشعرون أن الشباب يمضي بدون عودة، وأصعب شيء على قلب الإنسان أن يفقد شبابه. أليس كذلك؟

ـ هل أنت متأكدة؟

ـ هل يمكنك ذكر سبب آخر لعصبيتك غير المبرّرة؟

ـ لا سبب واضحاً عندي، لكن فقدان الشباب أمر كبير الاحتمال.

ـ أنا شخصياً عانيت ذلك وكنت أبكي أحياناً بعد نوبات عصبية.

ـ ليتني أستطيع البكاء. أنا حزينة فقط. لكن ما هو الحل؟

ـ التأقلم مع الأمر والمحافظة على رشاقتك وروحك المعنوية بقدر الإمكان.

ـ أوه.

ـ الفترة من الثلاثين إلى الأربعين تمرّ مثل الحلم.

ـ يبدو أن الحق معك، لأنني بدأت أخاف الفتيات في عمر العشرين بدون سبب، حتى لو كنَّ أقل مني رشاقة أو جمالاً.

ـ هذه الأزمة مفعولها أكبر عندك لأنك في الصف الأول.

ـ وماذا يحدث بعد الأربعين؟ سألت كات وهي تتأمل ملامح المرأة التي تحدثها وتشارف الأربعين.

ـ يحاول الإنسان تناسي عدد سنوات عمره. ويبدأ القول

إن الشباب هو استمرارية الصحة والتفكير المتطور ومواكبة العصر وما إلى ذلك..

ـ أوه. هذا الإنسان لا شيء... هش... حكاية. مجرد حكاية... أليس كذلك؟

ـ حكاية لا أحد يعرف ما سيكون بعدها بعد أن تنتهي.

ـ لا شيء. ما سيحدث سيكون تماماً كما كنت قبل حبل أمك بك. لا شيء.

ـ من قال لك ذلك؟

ـ أستاذ في مدرستي كنت أحترمه.

ـ وهل جون يتفق معك في هذا الرأي؟

ـ يختلف تماماً.

ـ وهل أنت مقتنعة بما قاله الأستاذ؟

ـ لا شيء كائناً بعد هذه الحياة. اخترع العقل الإنساني هذه الفكرة لأنه يرفض حقيقة العدم.

ـ وماذا قال هذا الأستاذ عن الأديان؟

ـ قال إن العظماء الذين بشروا بها لم يأتوا بجديد. كل ما قالوه قالته الشعوب وأساطيرهم من قبلهم، سواء لجهة وجود إلّه أو فكرة الخير والشر والحياة الأخرى.

ـ هكذا قال الأستاذ!

ـ وأنا أتفق معه، لأن البشر صدقوا ما ردّدته الأجيال. من لديه الوقت أو العقل ليفكّر؟

لم يكن من المعقول أن تستمر ناتالي في خدمة آل كارسون وهم لا يثقون بها، خصوصاً أنها تسمع كل أسرار

عمل كات وصداقاتها، وهي أمور يعتبرها العاملون في السينما من المحظورات خوفاً من تسريبها إلى مجلات فنية، قد تؤدِّي إلى فقدان لعب بطولة فيلم أحياناً. إضافة إلى حياتها بينهم ونومها في المنزل، في وقت تكون فيه كات بعيدة لعدة أيام للتصوير، ما يعني وجود امرأة جذّابة مع زوجها، مطلقة قد لا تمانع وجود نوع من الحنان أو الاهتمام بها، أو حتى ممارسة جنسية تقع بشكل عرضي بعد طول معاشرة، وبدون التزامات من الطرفين.

دخلت ناتالي منزل آل كارسون بتزكية من لاري تانر، وقبلت بشرط وضعوه لها قلما يقبل به إنسان، وهو أن يكون يوم إجازتها حسب ما يوافق ظروف عمل جون وكات معاً، ولو مرّ أسبوع عمل بدون إجازة تأخذ بدلاً منه يومين في الأسبوع الذي يليه. لكن أجواء ناتالي نفسها لم تكن تسمح بيوم إجازة، فقد كانت تعتبره فراغاً لا تعرف كيف تقضيه، لذلك كانت تكتفي بالذهاب لمدة نصف يوم كل أسبوعين لتفقد شقتها وتبديل بعض الملابس فيها، أو وضع أغراض وهبتها إياها كات. كانت امرأة تبحث عن الطمأنينة ولا تأكل إلّا يسيراً، وتقتصد كل قرش ممكن لأنها كانت مصابة بهاجس الخوف من الكبر وهي وحيدة. أما حياتها قبل طلاقها من زوجها فقد كانت تفضّل عدم الحديث عنها، وكانت تشير إليها بعدم التوفيق سواء لجهة الاحتفاظ بزوجها أو ابنتها التي توفيت وهي صغيرة. وكانت تذكر وفاتها وهي تضغط على أسنانها حزناً.

كان مجرد إدراك كات أزمة التحسر على الشباب الذي يمضي سبباً في وجود نوع من التوافق مع الانفعالات المزاجية الحادّة التي كانت تمرّ بها، ومحاولة السيطرة عليها لأن هذه المعرفة وضعت دونها عدة أسئلة حاولت الإجابة عنها. ومن جهة أخرى جعلتها تقول لنفسها إنها لم تزل شابة قوية فعلاً، فماذا يمكن أن يقال عن سن الثلاثين، والحيوية والمرونة واللياقة التي تنعم بها، وهي الأمور التي أطالت عمر الثلاثين نفسه عدة سنوات على هيئتها العامة وتفاصيل جسدها، لأن كات لم تكن تدمن أي شيء، ولا تدخّن مطلقاً، أو تتعاطى الكحوليات بشكل يومي، ولم يؤثِّر الحمل كثيراً على تناسق قوامها بسبب ممارسة الرياضة والرقص والتمارين المشبعة بالحركة شبه اليومية.

سأل جون يوماً زوجته عن الطريقة التي تجدها مناسبة لاستثمار أموالهما، بدلاً من وضعها في حساب مصرفي، وأكّدت له أنها لا تعرف وتعتمد عليه في الاختيار، خصوصاً أن الأفلام الاستعراضية موجة قد تنحسر بعد فترة زمنية، أو قد لا تلعب فيها بعد عدة سنوات لأن الكاميرا تعشق الفتيات الصغيرات في هذه النوعية من الأفلام، وهي تعوّدت العمل ولا تستطيع أن تعيش في المنزل فقط، بعكسه هو الذي يمكن أن يطير حتى عمر الستين. ولم تتخيّل كات الفكرة الاستثمارية التي اقترحها جون عليها.

ـ أفكّر بشراء عقار في ماليبو. قال جون.

ـ ماليبو؟ وماذا سنستفيد من وضع أموالنا أو جزء منها فيها. إنها لن تدرّ علينا ولا حتى فائدة مصرفية.

ـ ما تقولينه صحيح الآن، لكن الأمور ستتغيّر في المستقبل.

ـ كيف؟

ـ كانت العقارات مجانية قديماً، لكن الآن لها قيمة محدّدة، وهذه القيمة ستزيد لأن عدد السكان ينمو.

ـ هل تقصد بيع العقار بعد عشر سنوات والربح منه؟

ـ هذه فكرة. ولو رأيت أن اتجاه نمو السكان يتزايد هناك، سأفكّر جدياً في تأسيس شركة عقارية تبيع وتشتري وتكون وسيطاً في هذه المنطقة؟

ـ فكرة جيدة، لكن من سيدير هذه الشركة؟

ـ أنت؟

ـ هل تعتقد أن لديّ هذه الكفاءة؟

ـ أي مهنة يستطيع أن يتعلّمها الإنسان، وأنت مؤهلة للنجاح في حقل العلاقات العامة. وكما تقولين إنك لن ترقصي في الأربعين، وأنت لست ممثلة ليمتد عمرك الفني حتى الشيخوخة.

ـ هل تفكّر لي لمرحلة ما بعد الأربعين؟

ـ لك ولأموالنا والطفلتين.

ـ الفكرة تبدو جيدة من الناحية النظرية، لكن هل تمانع في استشارات مع بعض الأصدقاء لنرى إذا كنا على صواب؟

ـ لا مانع. ربما كنتُ حالماً لأنني أحب ماليبو، وهي عقارياً لا توازي قيمة ذلك الحب.

ـ هذا صحيح، لأنها يمكن أن تظل مكاناً بديعاً للتخييم أو الرحلات الخلوية، وهذه قيمتها فقط.

فوجىء جون وكات معاً بأن سعر العقارات في ماليبو، يكاد يكون مساوياً لأسعار بيفرلي هيلز، التي يسكنها نجوم وكواكب هوليوود وبعض كتّاب السينما المرموقين أصحاب الأسعار الأعلى ارتفاعاً، رغم أن ماليبو كانت شبه خالية في العام 1952. كما أن سعر القدم العقاري فيها يرتفع عن الأراضي التي قبلها أو بعدها على الطريق الساحلي السريع لمحيط الباسيفيك. وبعد مراجعة حساباتهما بعد هذه المفاجأة عرفا أنهما سوف يضعان كل مدخراتهما معاً لشراء قطعة عقارية كبيرة إلى حدٍّ ما، تلاصق المحيط وتطلّ على الطريق السريع في الوقت نفسه.

وزادت حيرتهما بعد استشارة المقربين والعاملين في القطاع العقاري في مجال البيع والشراء، لأن نسبة كبيرة منهم نصحتهما باستثمار مدخراتهما في بيفرلي هيلز نفسها، لأن المردود المالي أسرع من ماليبو التي قد لا يفكّر الناس في استثمارها والبناء فيها سوى بعد عشرين سنة، لأن واقعها

الفعلي يوحي ذلك. وحتى نسبة الأصدقاء التي لم تنصحهما بالاستثمار في ماليبو، نصحتهما بالدخول كشريكين مع مؤسسة عقارية تحترف التعاطي في هذا المجال، لو كانا ينويان فعلاً استثمار أموالهما فيه.

ـ لكن هل فكرت في المغزى من وراء ارتفاع أسعار العقارات في ماليبو؟ سأل جون زوجته.

ـ ربما لأن أصحابها يريدون ذلك. مجرد اتفاق ضمني بين المالكين.

ـ هذه الأرض مصنّفة يا كات.

ـ ماذا تعني؟

ـ هذا هو سعرها وسيرتفع كما قلت لك.

ـ وماذا قرّرت؟

ـ الشراء في ماليبو.

ـ لماذا؟

ـ لأننا نفكر في المستقبل، وهي أرض المستقبل.

ـ هل هذا إحساسك الشخصي؟

ـ نعم.

ـ هل يمكن أن نخسر؟

ـ لا. يرتفع سعر العقارات بوجه عام، ولا يمكن أن ينخفض.

الفصل الخامس

بعد الفيلم الثالث الناجح الذي شاركت كات في بطولته النسائية الأولى، وقّعت شركة «البلوط الأبيض» عقوداً سينمائية مع عدد من كتّاب السيناريو والممثلين تذهب كلها باتجاه الفيلم التاريخي الطويل، الذي يوصف بالإنتاج الضخم نظراً للأعداد البشرية الكبيرة المشاركة فيه، خصوصاً مشاهد المعارك العسكرية ومعداتها وتجهيزاتها القديمة والملابس وبناء الديكورات الضخمة للأماكن التاريخية والقصور التي تدور فيها أحداث الفيلم. وقد أدّى دخول الشركة في هذه المشاريع الهائلة إلى وقف إنتاج الفيلم الاستعراضي، واقتصر عمل كات على لعب المشاهد النادرة الاستعراضية التي تكون في سيناريو هذه النوعية من الأفلام التاريخية، الأمر الذي جعل عملها شبه متوقف مع الشركة التي جدّدت عقدها الاحتكاري لمدة خمس سنوات أخرى معها، ما جعلها مكبّلة ببند مالي جزائي لو شاركت في أفلام من إنتاج شركات سينمائية أخرى.

وكانت هذه السياسة مرهقة لشركة «البلوط الأبيض» ولم يكن العائد المالي من وراء سلسلة هذه الأفلام، يوازي

ترحيب النقاد بها، الأمر الذي جعل صامويل جونسون يستقيل من مجلس الإدارة، وينسحب منها كمنتج، لأنه كان وراء فكرة إنتاج هذه الأفلام التي كادت أن تؤدِّي للإفلاس، لولا دخول منتجين آخرين إلى شركة «البلوط الأبيض» عوّموها مالياً، مع تغيير سياسة الإنتاج إلى خط آخر بعيد حتى عن الأفلام الاستعراضية، يعتمد على خلق معبود وسيم للمراهقين والمراهقات يكون عنصر جذب رئيسياً في شباك التذاكر، بواسطة إيجاد روايات مشوّقة عنه في الإعلام وفي الصالونات والنوادي، تحوّله إلى أسطورة مؤثرة مهما كانت تفاهة محتواه الفكري، وشذوذ تصرفاته أو إدمانه وتعاطيه أي نوع من أنواع المخدرات.

وقد حاولت كات التملص من العقد بإلغائه بطريقة ودية مع الشركة، لكنها تمسكت بمضمونه وبها، لأنها بحاجة لموهبتها كما قالت، لكن حاجتها كانت محدّدة ولم تكن توازي مطلقاً انطلاقتها القوية معها، والسمعة التي بدأت تكتسبها في الأوساط الشعبية والإعلامية، التي ركضت وراء الشكل الجديد الذي بدأت شركات الإنتاج السينمائي كافة تنتهجه، من خلال محاولاتها الخاصة لخلق معبود لكل منها، نجح بعضهم بنسب مختلفة، وحصدت شركة منها أموالاً لم تخطر في مخيلة أعظم كتّاب السيناريو عندها، بعد وفاة معبودها وهو في العشرينيات، والذي تحوّل إلى رمز أميركي نجحت في تسويقه عالمياً.

ـ يبدو أنك تواجهين أوقاتك المصيرية دائماً بحمل جديد. قالت لورا لكات بينما كنَّ يتمشين على شاطىء ماليبو مع إدوارد والطفلتين دينيس ووينْدي، لأن جون أصرّ على اصطحابهما لمشاهدة العقار الذي اشترياه.

ـ يبدو ذلك. لكن هذه المرة عن غير قصد. أجابت كات وهي تضحك.

ـ كيف حدث ذلك عن غير قصد؟ هل تريدين إقناعي بأنكما كنتما تأكلان و...

ـ أبداً.. أبداً. قلت لك عن غير قصد وكفى. قالت كات مقاطعة وهي تستغرق في الضحك.

ـ هلا قرّرت الدخول إلى ميدان إنتاج الأطفال بعد بطء أعمالك سينمائياً؟

ـ ولا حتى ذلك.

ـ هل لديك قصة أخرى يا جون؟ سألته لورا.

ـ ما قالته كان هو الرواية الحقيقية لما حدث ولا الإعلامية.

ـ وماذا تتوقّع أن يأتيك؟

ـ فتاة أخرى ليكتمل المثلث، وتكون عروساً مناسبة لعمر ابنك.

ـ أبارك هذا العمل غير المقصود لو كانت هذه نيّتك.

ـ لقد وصلنا، يبدأ العقار من هذه العلامة إلى أول عمود كهرباء هناك. قال جون.

ـ وكم يبلغ طول العقار باتجاه المحيط؟ سأل إدوارد.

ـ أربعمائة ياردة.

ـ أنتم في مواجهة المحيط مباشرة. قالت لورا.

ـ نعم يا عزيزتي. ستكون زيارتنا صيفاً ممتعة. قالت كات.

قد يكون ما روته كات وأكّد جون عليه صحيحاً، لكن المؤكد أنها لم تكن تنوي الحمل هذه المرة، وكعادتها ستحتفظ بالجنين لأنها لا تحب الإجهاض، ولا تعلم سر العلاقة الغامضة بين ليالي الحب الملتهبة وحرارة نشوتها وبين حملها، رغم المانعين اللذين استخدمتهما قبل حملها الأول والثالث. وإذا كان كره الإجهاض السبب في احتفاظها بجنينها الأول، فإن سلوى الروح جعلتها تحتفظ بالثالث، بعد انزوائها في المنزل منذ دخول شركة «البلوط الأبيض» صاحبة العقد معها في إنتاج سلسلة أفلام تاريخية، ثم أسلوب الاتكال على معبود لا يمكن فنياً أن تشاركه لعب دور بطولة، في موجة يرجّح أن تستمر عقداً من الزمان في السينما الأميركية، وسيصاحب مدّها الكبير ظهور وجوه جديدة، وأسلوب مختلف في صالات العرض يجعل القديم ينحسر ويدخل إلى الأرشيف مهما كانت قيمته.

بعد عدم تجديدها للعقد الاحتكاري الإعلاني للمرة الثالثة في بدايات سنة 1952 لاتكالها على مشوار النجومية الذي

بدأته، كان عمل كات بتمثيل وتسجيل صوتها لبعض الإعلانات التجارية مع لاري تانر، جزءاً ثانياً من سلوى الروح التي كانت تسعدها وتجعل الوقت يمرّ عليها وهي مثمرة وليست عاطلة عن العمل، لأنها في داخلها كانت قلقة على الاستثمار طويل الأمد الذي وضع فيه جون كل بيضهما في سلة واحدة، خصوصاً بعد توقف عملها بصورة شبه كلية، وعدم رؤيتها لبارقة أمل تقول إن الشركة التي كبّلتها بخمس سنوات أخرى ستكون بحاجة إليها في دور بطولة في المدى المنظور، إضافة إلى عدم مقدرتها على التعاقد مع أي شركة إنتاج أخرى بسبب البند الجزائي المالي الكبير الذي يجب أن تدفعه. كانت كات تخشى أن لا يرد العقار حتى ثمنه لو عرضاه للبيع، فلا أحد اشترى في ماليبو في بدايات الخمسينيات سواهما، بينما جون ينظر إلى شاطىء الكربون والعقار وكأنه يأمل الفردوس الموعود. وقد طلبت منه أن يجرِّب فقط وضع إعلان مبوّب عن بيع العقار، ليعرفا ماذا ستكون ردة الفعل حتى يتسنّى لهما قراءة مستقبل بيعه حين يريدان، ورفض جون نهائياً وقال إن هذا الإعلان مبكر جداً ولم يأتِ موعده بعد، وكل ما سيفعله هو إثارة الشك في استثمار اعتقدا أنه مشروع المستقبل.

نقلت شركة الطيران جون إلى العمل على الرحلات الخارجية إلى كندا وأميركا الجنوبية بناء على طلبه، لأن الأعباء المالية زادت عليه بعدما أصبح معاشه المدخول

الوحيد للأسرة التي ستزداد عضواً آخر في مرحلة قريبة، ومن جهة أخرى كانت كات بصفة دائمة في المنزل مع ناتالي التي لم يستغنوا عن خدماتها، وبقيت كفرد منهم تساعد وتتمشّى مع الطفلتين بعد الظهر في الحديقة القريبة من المنزل لتلعبا هناك. ولم تتخيّل كات البتة أن يكون طوم ستيوارت جارها في الفترة الأخيرة من حملها، وزائرها الأسبوعي أيضاً ولو لفترة خمس دقائق أحياناً، لأنه انتقل للعيش مؤقتاً في منزله في بريتنوود بكاليفورنيا، بسبب توقيعه عقداً سينمائياً مع «أستوديو يونيفرسال» وسيتم تصوير الفيلم في الساحل الشرقي.

ـ ولماذا لم يقبل الأوغاد بإلغاء تجديد عقد الخمس سنوات التالية؟ سألها طوم ذات مرة وهما يتحدثان.

ـ لقد ذبحوني يا طوم بعدما أوقفوا إنتاج الفيلم الاستعراضي كما تعلم.

ـ حتى أنك لم تجمعي نقوداً محترمة من ورائهم.

ـ لقد وافقت لأن حياتي الأسرية تمنعني من الأساليب التي تعرفها، وراهنت على هذه الشركة لأستمر، لكن ما كنت أنتظره من حصاد لم يتحقّق. أوجعتني هذه الضربة كثيراً.

ـ يبدو لي أحياناً أنهم انتقموا من جونسون بك.

ـ أنت تعلم أنني لم أكن عشيقته ولا وقفت خلف أي قرار اتخذه الرجل. حتى رهانه عليَّ أفاد الشركة ولم يضرّها.

ـ أعلم. لكنك كنت نظيفة أكثر من اللزوم. هذه هي المشكلة.

ـ هل مشكلتي أنني كنت نظيفة؟

ـ المشكلة أنك تعاملت مع هؤلاء الوحوش بنظافة. وجون لا يفهم قوانين اللعبة في السينما. باللّه عليك لماذا جدّدت العقد معهم؟

ـ تحدث هذه الأمور أحياناً.

ـ لم تعرفي قدرك يا كات. ربما يزعجك هذا الأسلوب مني.

ـ ربما؟ أنا لا أنزعج منك مطلقاً يا طوم، ولا أنسى أسلوبك الرائع، وأعلم أن الحق معك عندما تتمسّك بأجرك وحريتك في التعامل مع شركات الإنتاج.

رافقت آنيتا سبرنجر بطلب من طوم ستيوارت كات في المستشفى عندما ذهبت لتضع جنينها في حزيرن/يونيو 1954، ومن المؤكد أن آنيتا كانت ستزورها يومياً، لكن ستيوارت طلب منها ملازمتها طوال أيام وجودها في المستشفى، لأن كات كانت فعلاً بحاجة إلى من يرفّه عنها لانزعاجها بدون سبب واضح في الأسبوعين الأخيرين من حملها، ولم يكن هناك أفضل من آنيتا في هذه الظروف. وكان حدس ستيوارت في محله لأن ناتالي تفرّغت للفتاتين تماماً في المنزل. كما أرسل ستاً وعشرين باقة ورد كبيرة جداً إلى المستشفى بعد معرفته بخبر ولادتها، جعلت كات تبكي من التأثر وهي تقرأ

مغزاها في تاريخ ميلاد الجنين وعدم تلقِّيها أي زهور من زملاء سابقين.

ـ ماذا تريد أن تسمِّي الفتاة المولودة؟ سألت كات زوجها الذي اتصل هاتفياً من غواتيمالا ليطمئن عنها.

ـ سأعود غداً ومعي اسم جميل.

ـ لكن الغد بعيد جداً، أريد اسماً الآن.

ـ لماذا لا تقترحين اسماً ونختار الأجمل.

ـ ولو قلت لك أريدك أن تختار اسم فتى.

ـ هل تمزحين؟

ـ لا. جاءنا مولود ذكر هذه المرة.

ـ بدون أي تردد سأسمِّيه ألن. هل أنت جادة يا كات؟

ـ كما قلت لك. لقد أصبح عندنا ألن.

أصبح ألن لعبة الطفلتين دينيس ووبندي، اللتين لا تنامان إلّا إذا نام بجوارهما في سريره الصغير، لذلك اضطرت كات للنوم في غرفة طفلتيها مع المولود الجديد، ريثما تخف مشاعر الشغف به ويصبح بينهما ولا يثير مقدار الاهتمام نفسه في الأسرة. وبدأت دينيس تتقن سلوكاً ظنَّ الجميع في البداية أنه مجرد لعب طفولي، لكن سرعان ما تبيّن أنها موهوبة بالرسم والحفر، إذ كانت ترسم للمولود الجديد نجوماً وحيوانات ومراكب، وتصنع له بمادة الصلصال ملائكة وسريراً والزجاجة التي يرضع منها، أما ويندي فقد كانت تتظاهر بسماع رنين جرس التلفون، ثم تركض وترفع السماعة وتقول

إن أحدهم يطلب أخاها ألن، وعندما كانت تسألها كات عن المتصل، كانت تقول إنه الطبيب وأحياناً أخرى إنها بائعة ملابس الأطفال أو ناتالي إن صودف وجودها في غرفة أخرى، غير غرفتهم المكتظّة بالألعاب والدمى والأوراق الملوّنة على الأرض.

لم يبقَ لكات عملياً سوى الاشتراك أحياناً في الإعلانات التجارية بفضل وجود لاري تانر في مهنة الإخراج، وبطولة نسائية أولى لثلاثة أفلام هي مجدها الخاص الذي كانت تعتزّ به، إضافة إلى عدد من الأدوار الثانوية التي لعبتها، سواء قبل عقدها مع شركة «البلوط الأبيض»، أو بعد ظهورها الواعد، وهي أدوار حفظت مشوارها على بكرات الخلود وفي قلوب من أحبّوها. وكان جون يعتبر خروجها من أزمة منتصف العمر التي تزامنت مع احتجابها عن التمثيل وحملها الأخير، أقوى بطولة قامت بها في حياتها الشخصية لا تقدر سوى نساء نادرات على القيام بها. ولم تعتبر كات هذا الكلام مجرد مواساة، بل حقيقة لأنها خرجت من كل هذه الأزمات وهي أقوى وأصلب، إلّا أن ما تناسته خلفها ترك في نفسها غصة، تشبه تلك التي كان يختنق بها قلبها أثناء غياب جون عنها. غصة شخصية ودمعة أخفتهما حتى عن أعز الناس لديها وأخلص الأصدقاء، لكن ما كانت تخفيه كان جون يشعر به ويزعجه.

تألم جون كارسون لأن زوجته كانت امرأة غير محظوظة،

دفعت أثماناً باهظة وانتظاراً لم يعرف الملل لتصل إلى ما تريده. ومن الغريب أن تكون خطوتها الأولى كبيرة غير متوقعة بعد عذاب، لتعيش مشوارها الذي اعتقدت أنه سيدوم إلى أربعينيات عمرها مجرد بضع سنوات، استقلّت بعدها على رف النسيان والإهمال، بسبب ظروف قدرية سخيفة لا شأن لها بها، بعد أن لعبت كل أدوارها مشهداً فمشهد بكل جوارحها ومحبتها لمهنتها. كانت كات حسب رأي جون الخاص فنانة حقيقية، لأنها لم تضع شروطاً لعملها أو بنوداً معينة في عقديها مع شركة «البلوط الأبيض»، كما أن الشركة كانت تتصل بها عدة مرات لتأخذ الباقي المستحق مالياً من أجرها، وكانت تطلب منهم أن يحوِّلوه إلى حسابها في البنك، وعندما كان يسألها جون عما إذا تأكدت من وضعهم المبلغ كاملاً، كانت تجيبه أنها واثقة من الأمر، ولم تقل قط إنها تحقّقت من عملية الإيداع، لأن همّها الأول كان الوقوف في الأستوديو.

كان جون يتعجّب من تلك المرأة البرية ذات المواقف الحادّة أحياناً، حتى مع أبيها ومعه ومع أولادها، ويتساءل أين اختفت حدتها وطبعها الناري أمام فنها. وكيف استطاعت البعد عنه وما هي القوة التي استعانت بها لشرب كأس اللامبالاة، التي قدّمتها لها الظروف غير المواتية، والظلم الفادح غير المبرّر الذي يخنق روح الإنسان أحياناً. كانت كات طفلة صغيرة أمام فنها، تخبر جون عن أدق التفاصيل

في المشاهد التي ستؤدِّيها، وكانت تلقي عليه الكلمات التي ستقولها أحياناً ثم تسأله إذا اقتنع بها. وقد تأكد جون من حساسيتها المفرطة تجاه فنها من بعض العاملين معها، وكان أطرف ما سمعه من أحد كبار المخرجين هو أنها تدخل البلاتوه، كما يدخل مؤمن ورع كنيسة، وتغيب أحياناً عن الجميع ما عدا الممثل أو الممثلة الواقفة أمامها أثناء لعب المشهد.

لذلك لم يكن من المستغرب أن تصوم كات عن قراءة المجلات، وتمتنع عن قراءة الصحف ولا تتابع التلفزيون، وتتهرّب من الذهاب إلى السينما بسبب حاجة الأولاد إليها في المنزل، وقد تغضب لسبب عابر لا يستأهل حتى مجرد التفكير فيه. كان جون يراقبها في صمت وضيق لأنه يعرف الخلفية الحقيقية لسلوكها، ويحاول الترفيه عنها بالتحرك كثيراً في الأيام التي لا يطير فيها، والذهاب مع أبنائهم وناتالي إلى الأماكن البعيدة الطبيعية، أو ليخيِّموا في عقارهم على شاطىء الكربون بجوار شاطىء المحيط أحياناً، ويلعبوا طوال النهار ويمرحوا، ويأكلوا اللحم المشوي ليلاً ويلهوا ببعض الألعاب الكشفية، وقبل الفجر يمارس جون هواية ركوب الموج ويعلِّم دينيس التي بدأت تتّقن هذه الرياضة والموج هادئ. وكانت كات تقدِّر ما يفعله جون كثيراً، لكن بطريقتها الصامتة والعينين اللتين تشعّان امتناناً، والفم المبتسم بطريقة تكمل المعنى الذي تقوله العينان، كما كانت تشاركهم أحياناً في

الركض ولعب الكرة الطائرة والتسابق على طول الشاطىء الرملي الذي تتكسّر عليه أمواج المحيط، وتضحك في نهاية السباق، وتسأل جون وهي تشير إلى عقارهم البعيد نسبياً بعد سباق مسافة ميل، ماذا سيفعل بالطيور التي تأوي إلى الشجرة الموجودة في القسم الشمالي منه، ويرد عليها بأنه سيلجأ إلى الشرطة لطردها. ولم تكن تملّ من هذا السؤال، وكان يجيبها دائماً وكأنه يسمع السؤال لأول مرة.

سألته دينيس ذات مرة عما سيفعله بالشجرة نفسها، وقال لها بأنه قد ينقلها من مكانها حسب شكل بيتهم المستقبلي، وسيزرع أشجاراً أخرى بجوارها تناسب الطبيعة الرملية ورطوبة البحر، لأن الفناء الخارجي يجب أن يكون مفروشاً بالظل، وشاركتهم ويندي بتساؤلها عما إذا كان ما يتكلمون عنه مجرد قصص مسلية أثناء جلستهم الخلوية أو مشروع حقيقي. وعندما شرح لها أبوها أن ما تسمعه سيكون حقيقة في المستقبل، نظرت الفتاة حولها وقلبت شفتيها وقالت إن منزلهم في لوس أنجلس أكثر تسلية، فالشوارع كثيرة وكذلك السيارات والناس والجيران، فلماذا يتركون كل هذه الأمور ويأتون إلى مكان مقفر لا سينما فيه أو مطاعم؟

ـ نعم أنا كات كارسون. أجابت كات السيدة التي هاتفتها قبل الظهر في بيتها.

ـ عندي خبر مزعج لك يا سيدة كارسون.

ـ خبر مزعج؟ ما هو؟

ـ يرقد زوجك الآن في مستشفى «ولشير» في انتظار عملية جراحية.

ـ جون؟ زوجي أنا؟ لقد غادر منذ أقل من ساعة في باص الشركة.

ـ هذا صحيح. لكن وقع حادث.

ـ أي حادث تتكلمين عنه؟ إنه لم يقلع بطائرته بعد. قالت كات وهي تنظر إلى ساعة الحائط خلفها ولا تستوعب تماماً ما تقوله المرأة على الجانب الآخر.

ـ وقع الحادث للباص.

ـ حادث للباص؟ في أي مستشفى هو؟

ـ مستشفى «ولشير».

ـ هل تعرفين حالته؟

ـ إني أتحدث معك من الشركة ولا المستشفى. تمنياتي لكابتن كارسون بالشفاء العاجل.

ـ شكراً. سأذهب الآن.

تركت كات ألن مع ناتالي، وطلبت منها عدم إخبار ابنتيها بما حدث عندما تعودان من مدرستيهما بعد الظهر، وتبرير غيابها بأي سبب تخترعه لهما، حتى تعود من المستشفى، واستقلّت سيارتها وذهبت وهي في حالة اكتئاب وتوجس من شر عظيم لم تعرفه من قبل، بعد أن رأت الباص وصهريج البنزين الذي صدمه والشرطة تعاين الحادث الرهيب، بسبب عطل مفاجىء في مكابح عربة الصهريج كما ذكر تقريرا

الشرطة وخبير شركة التأمين. وازدادت قوة توترها بعد معرفتها لعدد المصابين والقتلى، الذين كان في جملتهم طاقم الطائرة التي يقودها جون، وتُوفي اثنان منهم وأُصيب الباقون إصابات مختلفة. كان المشهد مرعباً على الطريق ومحزناً في المستشفى الذي بدأ يتقاطر إليه أهالي المنكوبين.

بدأت هواجس كات تتحوّل إلى حقائق بعد مقابلة الطبيب الذي أجرى الجراحة، وسماع المعلومات عما حدث لجون الذي تعرّض لكسور شديدة في كتفه الأيمن ستجعل أصابعه بطيئة الحركة في المستقبل مع عدم قدرته على تحريك الذراع بشكل طبيعي كامل، لأن الإصابة هتكت أجزاءً كبيرة من العضلات وأتلفت جزءاً كبيراً من الأعصاب التي تحرِّك الساعد، إضافة إلى إصابة ورضوض في أعلى الجمجمة لم تكن مميتة، وأظهرت صور أشعة إكس أنها سطحية. وأخبرها الطبيب أن إصابة الذراع والكتف ستستدعي وجوده في قميص جفصين لمدة ستة أشهر، وسيحتاج جون من بعدها إلى بعض التمارين والتدليك ليستعيد حوالى ثلاثين بالمائة فقط من حركة ساعده الأيمن الطبيعية.

ـ هل ما زلت تعتقد أنني الشخص المناسب لقدرك يا جون؟ سألته كات وهما جالسان في بيتهما بعد بضعة أسابيع من الحادث.

ـ هل أنت تتعجّبين من الظروف أو تسخرين منها؟

ـ أتعجّب ولا أستطيع السخرية من الأمر الفظيع الذي تعرّضت له.

ـ ما زلتِ الشخص المناسب، وما حدث لي لا علاقة له بكِ.

ـ ما حدث لك له علاقة بنا كلنا.

ـ أعلم، إنه كارثة أصابتنا.

ـ خصوصاً بعد استثمار كل أموالنا في ماليبو.

ـ والمصيبة هي أنني لا أعرف شيئاً غير قيادة الطائرات.

ـ وأنا لم أعد أعمل مثل السابق.

استغنت شركة الطيران التي يعمل بها جون عن خدماته كطيّار، بعدما جاء في التقرير الطبي أن إصابته ستعيقه عن الأداء بشكل لائق، لأن يده اليمنى ستظل عاجزة عن الحركة الطبيعية طوال حياته، ما قد يخلّ بقواعد السلامة في لحظة ما للطائرة خصوصاً أثناء إقلاعها وهبوطها، ويعرِّض حياة المسافرين والطاقم للخطر. وكانت هذه النتيجة النهائية هي فعلاً كارثة جون الذي لم يمارس في حياته أي عمل سوى قيادة الطائرات. وطالما تعجّب أثناء تأملاته وهو سجين قميصه غير المتوقع المزيّن بتوقيعات الأصدقاء بالشفاء، كيف أن طائرته الحربية التي احترقت وتعذّر الهبوط بها على حاملة الطائرات لم تصب بخدش، ولكنه استطاع القفز منها وتركها تهوي في المحيط، والعدد غير محدود من الطلعات الجوية الحربية التي نفّذها بدون إصابة، وكانت تُطلق عليه وعلى

غيره من الطيّارين المقاتلين فيها عشرات الألوف من الطلقات المضادة للطائرات، إضافة إلى سجل خالٍ من الحوادث حتى البسيطة أثناء عمله يومياً في قيادة الطائرات المدنية والشحن، وإصابته التي منعته من العمل التي حدثت على الطريق ولا في الجو أو حتى على مدرج المطار.

مضت الشهور الستة الأولى بعد الحادث، وانتقل جون بعدها إلى العلاج بالتدليك والتمارين الرياضية، وحقّق في نهاية دورة ذلك العلاج التي استمرت ثلاثة شهور أخرى نسبة مئوية أفضل بقليل من التي توقعها الطبيب وقد استعاد جون حوالى أربعين بالمائة من قدرة ذراعه على الحركة، وبدأت بعدها مرحلة الفراغ الهائل، بعد انتظار خلع القميص البغيض وإنهاء مرحلة العلاج التالية، والإفاقة على الواقع الجديد، الذي جاء عكس أماني كل الناس له بالشفاء الكامل، والتفكير في مهنة أخرى تتوافق مع ما حدث وتعينه على المتطلبات الحالية والمستقبلية لأسرته. وقد جعلت هذه الأمور جون في دوامة عصبية ونفسية لا يستطيع الخروج منها، وحوّلته إلى إنسان شبه صامت يتّجه وزنه إلى النقصان باستمرار، ويمارس عادات لم تكن من سلوكه مثل التدخين بشراهة وشرب الكحوليات ليلاً لتساعده على النوم بعد نهار لا نشاط أو حركة فيه سوى التفكير الداخلي طوال ساعات.

ـ لماذا لا نبيع العقار يا جون ونستثمر أمواله في شيء آخر؟ سألته كات.

ـ الباقي من أموالنا يكفينا لمدة سنة أخرى، فلماذا نستعجل بيعه؟

ـ لقد عرض لاري عليك مشاركته في تجارته التي بدأها مع اليابان.

ـ عرض شفقة لا أكثر ولاأقل.

ـ الرجل يحبنا يا جون.

ـ لماذا لا يقدِّم عرضه قبل الحادث؟

ـ لأننا لم نكن نحتاج إلى هذه المشاركة. وربما هو أيضاً.

ـ لننتظر بضعة شهور أخرى.

ـ وماذا سيحدث؟ مصروفنا كبير ولا مدخول لدينا.

ـ . . . . . .

ـ لا تفكّر بطريقة ما في خزّان طائرتك من وقود حتى تصل إلى مطار آخر غير الذي لا تستطيع الهبوط فيه بسبب إعصار مفاجىء هاجمه.

ـ أنا أفكّر في طريقة جديدة للارتزاق.

ـ لماذا لا تفكّر في ما عرضه لاري؟ صحيح أنك لا تملك خبرة فيه، لكن لاري صديق أمين.

ـ أعلم ذلك وهو أحد احتمالاتي على أية حال.

لم تستطع كات بما لها من تأثير أن تخرج جون من التيار النفساني الذي يجرفه بعيداً عن التفكير العملي المتاح لهما في تلك المحنة. كانت مشكلة جون أنه وقع في حوار داخلي

لا يريد أن يشاركه فيه أحد كما بدا لها، حوّله إلى أسير الجلوس في المنزل. كما خدش كبرياءه بعد حصوله على رخصة قيادة لمعاق، يجب أن تكون سيارته بمواصفات خاصة، هو الذي كان يطير في أماكن لا أفق فيها كما قال لها، وتضايقه أحياناً قيادة السيارة لأنه تعوّد سرعة الانتقال من مكان إلى آخر. لم ترَ كات جون منزوياً داخل نفسه كما تراه أمامها الآن، أو بليد التصرف بطيء المبادرة كما أصبح، يتحرّك في دائرة ضيقة جداً هي مساعدة ابنتيه على الاستذكار، واللعب مع ألن والذهاب إلى التسوق، أو الخروج في رحلة خلوية مع أسرته.

طلبت كات من أختها تلفونياً أن يحثّ إدوارد جون على الذهاب إلى اليابان، فربما تخرجه هذه التجربة من ذاته المنقبضة، وتجعله مقتنعاً بفكرة مشاركة لاري تانر في كاليفورنيا في تجارته مع الشركة التي يعمل فيها إدوارد. لكن إدوارد تحدث مع كات بعد يومين وأخبرها أنه يتحيّن فرصة للذهاب إلى كاليفورنيا لمدة أسبوع، وأن زيارته أصبحت قريبة للغاية، وطلب منها أن تترك فكرة إقناع جون بالعمل مع لاري له، لأنه سيقنعه بهذه المشاركة أو البدء بتجارة أخرى لو كان جون ممن يحبّذون فكرة العمل بدون شريك.

ـ ما هي المشكلة تحديداً يا جون؟ المشكلة التي لم تقلها حتى لكات. سأله إدوارد.

ـ إنني لا أصدِّق ما حدث لي.

ـ لم أتوقّع منك أنت هذا الكلام. أنت تعلم تماماً أن ذلك قدرك.

ـ ولماذا حدث ذلك وأنا مثقل بالمسؤوليات، ولا مصدر آخر للدخل لدى الأسرة؟

ـ لأن هذا هو توقيته.

ـ ولماذا هذا الوقت القاتل؟

ـ لا تشفق على نفسك. إياك أن تفعل ذلك.

ـ هل ما حدث هو ثمرة ما فعلته؟

ـ ولا تلومن نفسك على وظيفة أديتها. آلاف الطيّارين المقاتلين يعيشون في تمام الصحة والعافية.

ـ حدث الأمر في لحظة وسأدفع باقي عمري ثمناً لها.

ـ وتُخصّب البويضة في لحظة تسبق خلق حياة كاملة لرجل أو امرأة.

ـ كان الأمر يشبه فتح أبواب جهنم. هل تعرف ما هي جهنم يا إدوارد؟

ـ اهرب من أمام بابها ولا تنتظر أو تدخل.

ـ وما هو الحل؟

ـ أعلم أن الأمر عندما يحدث لغيرنا تكون قدرتنا على الرؤية أكبر.

ـ تكلم يا إدوارد.

ـ يجب أن تتوافق مع ما حدث لك وتعتبره أمراً نهائياً يستحق التغيير.

ـ أعتبره جزءاً من قدري وأتوافق للتأقلم مع باقي هذا القدر؟

ـ بدأت تستعيد قواك. اعبر هذه الجزئية السمجة لأن العلم يمكن أن يحل مشكلتك بعد عشر سنوات مثلاً، فلا تقابل هذا الحل بشلل روحك وارتخاء عزيمتك.

ـ . . . .

ـ امش. . . امش يا جون من أمام باب جهنم وتأقلم مع الواقع المستحدث. تعال فوق ما حدث لك وطر إلى أفق جديد.

أنهى كات وجون المعاملات المصرفية بخصوص قرض بضمان عقارهما، في أيلول/سبتمبر 1955 وهي في ذهول تام مما يحدث، وخوف يؤرقها من الخطوة الثانية الأخطر مجهولة المصير التي يخطوها جون، وقد تؤدِّي إلى كارثة لا علاج لها ستهدم أسرتهما. ومن الغريب أنها كانت تتصرّف عكس ما تقتنع به تماماً. كان عقلها يقول إن جون يأخذها مع أبنائهما إلى قفزة يحذِّره الجميع منها، بينما كانت عملياً تقف بجواره تسانده وتشجّعه وتبتسم لفكرته شبه المستحيلة، وهي مقتنعة بأن خيطاً رفيعاً يربط زوجها وجايمز سكوت لم تنتبه لوجوده من قبل، هو اللوثة المفاجئة والرهان بكل ما يملكانه في جزء من اللحظة، مع فارق مراهنة جايمز بما في جيبه أو ثمن سيارته الواقفة أمام باب شقة طاولة القمار،

بينما رهان جون على كل ما يملكه في الحياة على مائدة توقيع قرض في مصرف.

عرض جون على كات فكرة بناء منزل ذي طابقين على العقار الذي اشترياه في شاطىء الكربون بماليبو، ينتقلان للسكن في طابقه الأول، بينما يخصصان الطابق العلوي لخدمة جديدة وفريدة لهواة ركوب الأمواج الذين يأتون من أماكن بعيدة، وينامون في خيمة أو أكياس مخصصة للنوم في انتظار ما قبل الشروق ليمارسوا هوايتهم. وهذه الخدمة حسب ما قال لها ستكون في مكانة وسطى ما بين الإقامة في فندق أو موتيل، لأنها ليست إقامة طويلة أو لبضعة أيام، فهي إقامة لمجرد ليلة، وعندما سألته كيف جاءته هذه الفكرة أجاب من ملاحظة زيادة عدد ممارسي هذه الرياضة نسبياً، عما كان عليه منذ سنوات، وما يأخذونه معهم لهذه الرحلة.

ـ وهل تعتقد أن هذا المشروع سينجح؟

ـ وما هي مبررات فشله؟

ـ محبة الناس للمشقات التي يتعرّضون لها في الرحلات الخلوية بشكل عام.

ـ لكن بعض الناس تؤذيهم المشقات، ويفضّلون رحلة مريحة إلى حدٍّ ما. هل ترفضين أنت شخصياً رحلة مريحة فيها إفطار ودورة مياه ونوم مريح؟

ـ كيف ستوصل خدمتك إلى الناس؟

ـ عبر الصحف المحلية.

ـ وماذا ستسمِّيها؟

ـ «سرير وإفطار».

ـ ولو فشل المشروع؟

ـ نؤجِّر الطابق السفلي كمسكن، وأدخل كشريك مع لاري. سيكون لدينا مصدرا دخل.

ـ وإذا لم نستطع تأمين مستأجر للطابق السفلي في هذه المنطقة البعيدة؟

ـ لدينا العقار والبناء يمكن أن نبيعهما، لكنني واثق من نجاح فكرتي.

بدأ جون وكات المشروع بعد الموافقة على خريطة البناء التي قُدِّمت لهما، وطلبت هي من المهندس تصميم هندسته الداخلية بما يتوافق مع وظيفة كل طابق والحاجة الفنية التي تخدم ذلك ولا تضرّ البناء، وشاركت بكل جوارحها وحواسها، وتناست إلى حين شكوكها لأن المشروع لو نجح حسب ما قال لها طوم ستيوارت سيكون نواة إعمار شاطىء الكربون، وطلب منها بإلحاح أن تنصت إلى مهندس سيرسله لها ليصمِّم الشكل الخارجي للمنزل، لأن ما سيقدّمه ذلك الفنان ستضطر البلدية مستقبلاً إلى تعميمه لأن المنطقة مصنّفة مثل بيفرلي هيلز، ويجب أن تقدّم شيئاً يمثّل نموذجاً مختلفاً يليق بها، ويجعل آل كارسون هم روّاد إعمار شاطىء الكربون. وقد أثّر كلام ستيوارت فيها بشكل كبير، لأن الرجل نفسه يعتبر نموذجاً فذّاً في اختيار كل ما هو جديد،

ولديه الذوق وحس الاختيار، وجرأة الوقوع تحت نير الديون بكل ثقة، إلى أن يسدّدها من أجرة فيلم لاحق. ولأول مرة تشعر بالأمان بعد أن طمأنها ستيوارت إلى عبقرية زوجها في اختيار استثمار لم يتكالب عليه الناس بعد، ولديه قوة الاندفاع الذاتي بعد أول انطلاقة لمدة خمس وعشرين سنة على الأقل.

كانت كات بحاجة إلى صوت آخر غير صوت زوجها لتسمعه في تلك الفترة ويعيد إليها الثقة بنفسها، بعد أكثر من ثلاث سنوات من الأذى الجسدي والنفسي والتوقف عن العمل، ونقود أُنفقت كأنها مياه لا تتوقف وهي تنحدر في مجرى مائي هائل، ثم القرض بضمان العقار وهو ما يمثّل السيف الأخير الرابض على أعناق الأسرة بكاملها، ولو نجح مشروع «سرير وإفطار» ستنجو الرقاب منه، وفشله سيحصد كل ما زرعته مع جون ويجعلهما حتى بدون سقف فوق رأسيهما مع ثلاثة أبناء. ولم تتوقّع كات أن يكون ذلك الصوت هو صوت ستيوارت.

ـ ماليبو؟! لا يا سيدة كارسون. إنها بعيدة جداً عليَّ وأعتذر عن اصطحابكم.

بهذه العبارة البسيطة أنهت ناتالي خدمتها مع آل كارسون، الذين كانوا جميعاً متأثِّرين لعدم ذهابها معهم عندما انتقلوا في حزيران/يونيو 1956 إلى العيش في ماليبو، بعد أن تركوا منزلهم مغلقاً لمدة ثلاثة أشهر اعتبروها فترة اختبار لمشروعهم

الجديد، يعودون بعدها إلى لوس أنجلس مع بداية العام الدراسي الجديد، أو يعيشون للأبد في شاطىء الكربون، وكان طبيعياً أن يكون أكثر المتوترين من هذه النقلة جون وكات، بينما اعتبرتها دينيس ووبندي مجرد رحلة لطيفة طويلة، وكان ألن أصغر من أن يبدي رأيه أو مشاعره.

سبق حضور آل كارسون إلى شاطىء الكربون حملة إعلانية في صحف البلدة المحلية عن مشروع «سرير وإفطار» الجديد وبداية انطلاقه، لكن لم يدقّ أحد بابهم بعد استقرارهم في الطابق الأول وتجهيز الثاني بكل ما يحتاجه الروّاد للإقامة فيه. وكان جون يتمشّى ويلعب مع ابنتيه كل صباح، ويعلّم دينيس وهما على رمال الشاطىء أصول الاستقرار على خشبة ركوب الأمواج العالية، وكيفية قيادتها بقدميها والاتزان فوقها حتى لا تقع، بينما تمرّ تحت الموجة التي تشبه قوقعة إلى أن تخرج منها بنجاح، ويمدّ يد العون إلى ويندي لتبني قصورها الرملية وأسوارها، ويضع معها تماثيل الحرس والملك والملكة الذين يتمشون داخل الأسوار، بمساعدة دينيس الموهوبة ذات الأصابع التي تشكّل أي شيء في دقائق. كما كانوا يركضون في اتجاه أي فقمة تخرج لتستريح على رمال الشاطىء ليراقبوها عن كثب ويتأملوا شواربها، ثم يجلسوا ساعاتٍ وهم يلعبون لعبة «اللودو» تحت الشمسية ويعودون بعد فترة الظهيرة إلى المنزل لتناول الطعام.

كان جون يذهب أيضاً مع ابنتيه ليتجوّلوا على طول

الشاطىء الماليبي بعد الظهر، ويتحدثوا ويحكي لهما أحياناً بعض القصص الطريفة التي حدثت معه وهو يقود الطائرات، ويشير إلى الطائرة التي تقلع من مطار لوس أنجلس الدولي جنوبي ماليبو، ويقول لهما بمجرد أن ترتفع فوق المحيط ما هو نوعها وسرعتها وعدد الركاب الذين تقلّهم، وهما يستمعان إلى أبيهما في دهشة من المعلومات التي يقولها. وكانت الفتاتان تسبقان أحياناً جون في طريق العودة، وتقفان على مسافة منه تنتظرانه، بينما هو يتأمّل البناء الذي شيّده ويجده جميلاً ومميزاً في هذه البقعة الساحرة، ولم يكن يفعل أكثر من التأمل بعد أسبوعين من إقامتهم في ماليبو، لأنه صار شبه متيقّن من خطوته المبكرة جداً في المنطقة البكر، والاحتمال الكبير لفشل مشروعه، والتفكير في الخطوة البديلة التي اتفق عليها مع كات، قبل الوقوع تماماً تحت سنابك الدين وفوائده، وتبخّر باقي مدخراتهما التي وصلت إلى الخط الأحمر.

شعر الجميع بعد بهجة الانتقال الأولى بسكون الليل التام في ماليبو، الذي يكسره من حين لآخر مرور سيارة على الطريق السريع لمحيط الباسيفيك، ويُسمع فيه بوضوح صوت الراديو أو التلفزيون لمن يخرج خارج المنزل لأي سبب، وتبدو فيه أضواء البيت واضحة لبعض أميال شمالاً وجنوباً لمن يقودون السيارات. وبين كل أصوات وأنوار هذه البقعة السكانية الوليدة، كان صوت كات يكاد لا يسمع سوى

للضرورة القصوى، ولا تخرج إلّا نادراً لتمشي مع جون وابنتيها على الشاطئ، لأنها كانت تفضّل الجلوس في فناء المنزل في ظل الشجرة الوحيدة، تتأمّل البانوراما التي أمامها وتسبح في خواطرها، أو تذهب لتردّ على هاتف أمها أو أحد الأصدقاء، أو أختها لورا التي حصلت على الرقم من أمهما، وواظبت على الاتصال بهم مساء كل سبت بتوقيت غربي الولايات المتحدة.

ـ ما الذي تفكّرين فيه يا كات؟ قال لها جون مساء يوم أحد وأبناؤهم نائمون بعد يوم حافل بالنشاط واللعب، وهما جالسان في الفناء يحتسيان النبيذ الأبيض.

ـ متى سنخرج من هذا الممر المعتم. هذا ما أفكّر فيه.

ـ لقد باغتتني النتيجة هنا. لم أتوقّع ذلك مطلقاً.

ـ ولا أنا.

ـ أفكّر أحياناً أننا في مرحلة زرع، ولا بدّ أن يأتي الحصاد.

ـ أخشى أن يحصد رقابنا قبل أن نجني أي شيء مما فعلناه.

ـ هل أنت متشائمة إلى هذه الدرجة؟

ـ عندما أفكّر في مستقبل أولادي يقشعرّ بدني.

ـ ماذا يقول لك إحساسك؟

ـ يقول إننا نسينا الحب الذي بيننا. نسينا الجنس والغرام.

سحقتنا ظروفنا الصعبة يا جون وأصبحنا عبيد مضغ انفعالاتنا المتوترة يومياً.

ـ لم ننسَ الحب، ولا تنسي أن كل ما فعلناه كان به، حتى هذا البناء وهذه الخطوة. والحق معك في باقي ما ذكرته.

ـ لو طلبت من مؤلف أفلام سينمائية كتابة هذه الدراما، فلن يستطيع.

ـ ولن يقدر على وضع نهاية لها.

ـ لقد حاولنا على أية حال، ودع الأمور تسير بيد القدر كما هي حتى آخر آب/أغسطس.

اتصل طوم ستيوارت بجون في أواخر تموز/يوليو وسأله عن العدد الذي يمكن أن يستقبله في منزلهم مساء السبت الآتي ولمدة خمسة أيام، وأجابه جون إن هذه خدمة خاصة وأن المنزل بطابقيه مفتوح لطوم وأصدقائه دائماً، لكن ستيوارت أصرّ على العدد الممكن فقال جون له ما بين المزح والجد خمسة عشر شخصاً. وجاءت ست سيارات بعد ظهر السبت فيها سبعة عشر شخصاً، يتقدّمهم ستيوارت وهو يفتح ذراعيه مهنّئاً جون وكات بمشروعهما الجديد، ويطلب منهما الغفران بسبب الضجة التي ستحدث، ويؤكد لهما أنه هو شخصياً سينام في الفناء لأن العدد يزيد فردين عما قاله له جون.

كان طبيعياً أن يثير وجود ستيوارت وبعض المشهورين

معه، في هذه المنطقة اهتمام راكبي الأمواج الذين تناقلوا الخبر، ما زاد عدد الفضوليين والمراهقين والمراهقات الذين كانوا يأتون منذ الصباح الباكر ويربضون على الشاطىء، لمشاهدة هذا السرب من المشهورين وجمع تواقيعهم طوال أيام إقامتهم، مما جعل كات تندهش وهي تسمع أحدهم على الهاتف يطلب منها حجز غرفة لمدة يومين، بينما هي تخبره بأن ذلك ممكن بعد ثلاثة أيام لأن جميع الغرف مسكونة.

ـ كما قلت يا جون، هذا مشروع المستقبل. قال ستيوارت وهو جالس في الفناء مع جون وكات وبعض من الذين معه وهم يحتسون الخمر ويتسامرون.

ـ لقد أخبرتني كات بوجهة نظرك، وآمل أن تتحقّق لأنني أكاد أفقد الثقة بكل ما فعلته.

ـ لا تستعجل يا عزيزي. دع الخطوات التالية تسر برفق.

ـ لقد فعلت ما عليَّ كما ترى.

ـ شكل البناء رائع من الخارج، لم أتوقّع هذه النتيجة. صدِّقني إن إعمار المنطقة سينطلق من هنا.

ـ تحتاج الدنيا دائماً إلى روّاد في أي مجال. قال جون.

ـ وخلفهم يسير باقي القطيع. ردّ ستيوارت.

ـ لقد قمتم بعمل رائع، وآمل أن تروا نتيجته قريباً. قالت آنيتا.

ـ نحن ننتظر. قالت كات.

من المؤكد أن أول روّاد «سرير وإفطار» قد اندهش للغاية

وهو يجد كات في خدمته، بعدما شاهدها الكثير من الناس على الشاشة الكبيرة. وكانت هذه الدهشة سبباً في قدوم كثيرين للإقامة في منزلها، وركوب الأمواج في الصباح الباكر، والسمر برفقتها في فناء المنزل ونسائم أول الخريف الباردة تجعل بعض الجالسين يدخلون لارتداء ملابس ثقيلة. كان الروّاد سعداء بالمكان والفكرة الجديدة وصحبة نجمة لم تزل في القلوب تخدم الجميع بكل حماسة وتواضع. كما كان جون وزوجته في منتهى الغبطة وهما يعايشان هذه الانطلاقة المشجعة غير المتوقعة بعد أكثر من خمسين يوماً لم يدقّ أحد فيها بابهم أو يطلبهم على هاتفهم. ولذلك نقلا حملتهما الإعلانية الجديدة إلى الصحف الأوسع انتشاراً، لأن فضول الناس أو راكبي الأمواج نحو هذه الخدمة المبتكرة، قد يقودهم من أي مكان على الساحل الغربي للولايات المتحدة إلى ماليبو، حسب ما نصحهم ستيوارت.

لاحظ جون وكات نوعية مختلفة من الروّاد بدأت في القدوم مع شهر تشرين الثاني/نوفمبر، إضافة إلى مجانين ركوب الأمواج شتاءً، هي الفئة الأغنى والأكبر عمراً، من هواة السمر وشرب كأس نبيذ والسير على الشاطىء صباحاً، أو الذهاب إلى جسر ماليبو الممتد حوالي ربع ميل في المحيط القريب منهم نسبياً لصيد السمك، ولم تندهش هذه النوعية من الناس من السعر المرتفع نسبياً أكثر من أي أقرب موتيل، لأنهم كما بدا كانوا يقدرون فكرة آل كارسون «سرير

وإفطار» التي توحي بالدفء والألفة، ويعتقدون أن الجلوس مع كات أرهارد نفسها قيمة تضاف إلى هذه المودة واللقاء الموحي بالثقة في الروّاد، في منطقة لا يسكنها سوى هذه الأسرة وبضع أُسر أخرى متناثرة حولها.

كان تغيير نمط الحياة شاملاً بالنسبة لأسرة جون، واستغرق الأمر بضعة شهور ليتأقلم الجميع معه، خصوصاً دينيس ويندي اللتين كانتا تعتبران في البداية أن الروّاد ضيوف يجب الجلوس معهم، ولا مانع من الصعود إلى غرفهم، إضافة إلى تعلّم كات لفنون الطبخ لأن الروّاد الذين كانوا يقيمون لأكثر من ليلة كانوا يفضلون تناول الغداء والعشاء أيضاً في «سرير وإفطار». وكان أمراً طبيعياً أن يطال التغيير جون نفسه صاحب الفكرة الذي تحوّل إلى أمين مستودع وموظف استقبال ومسؤول عن المشتريات ومشرف على نظافة المكان في الوقت نفسه، وكان سعيداً بهذه الوظائف وبالعلاقات الاجتماعية المتنوّعة التي أوجدها حضور الروّاد إلى مشروعهم، الذي بدأ مع قدوم أول ربيع عليهم في ماليبو يسجل حجوزات طوال أيام الأسبوع، وليس فقط أيام الجمعة والسبت والأحد، وهي فترة الذروة الأسبوعية التي تكون فيها تقريباً الغرف الست محجوزة.

تيقّن جون وكات بعد فترة أن طبيعة مشروعهما لا تتيح لهما يوم إجازة، فهو عمل دائم تتخلّله فترات راحة، يهتمّان فيها بتلبية حاجات أولادهما، أو باصطحاب إحدى الفتاتين

أو كليهما للترفيه أو لحضور فيلم في السينما، أو يغادر فيها أحدهما المنزل لعمل ما مثل التسوق والذهاب إلى البنك للإيداع ودفع أقساط الدين، أو حتى لزيارة ذويهما التي كانت تتم بوجود أحدهما فقط مع الأبناء، لأن الآخر في العمل الذي يحتاج دوماً إلى واحد منهما فيه. لذلك كانا يسعدان بزيارة أبيها وأمها يوم الأحد أحياناً، التي كانت تتزامن مع زيارة أم جون أو أخته مع زوجها. وقد سأل جون كات يوماً إذا كانت تحتاج إلى مساعد معها، وأجابته إنها تحتاج إلى ناتالي تحديداً، فسألها لماذا لا تتصل بها وتحاول إقناعها بالعمل في مشروع ولا في منزل فقط. وذهب جون بعد عشرة أيام لإحضار ناتالي مع أغراضها من لوس أنجلس.

الفصل السادس

كان العقار الذي اشتراه جون وكات عبارة عن مساحة من الرمال الذهبية الملاصقة لباسيفيك كوست هاي واي، تقع في الميل ونصف المسمّى بشاطىء الكربون، وقد تحوّلت هذه البقعة المشتراة إلى منزل ذي طابقين مساحتهما ستمائة قدم مربعة، شارك في بنائه وشكّل هيكله الخارجي وهندسته الداخلية أكثر من عقل، ليخرج في نهاية الأمر بالشكل المميز الذي يُرضي أصحابه، ويخدم الهدفين المختلفين لكل طابق منهما، ويكون نموذجاً يُحتذى به في الأبنية التي شُيِّدت من بعده، سواء من حيث شكله العام أو ألوانه؛ ما طبع شاطىء الكربون في ما بعد ولعدة عقود بالذوق والأسلوب الخاص الذي شُيِّد به البناء.

تتجاور وتتفاعل الثقافات المختلفة في الولايات المتحدة الأميركية، ويسبب هذا التمازج أحياناً دخول كلمات غير إنكليزية في اللغة الرسمية للبلاد، بسبب تداولها وطرافتها ووقعها على الأذن، تكون ضمن المفردات اليومية التي يقولها الناس، ويفهمها أهل هذه الثقافات المختلفة. وقد تخلق هذه التجمعات الثقافية المتفاعلة أيضاً نماذج عقارية تشبه القرى أو

الأحياء المغلقة، تطبع منطقة ما بطابع ألماني أو إنكليزي أو صيني، يذهب الناس إليها ليشتروا أيضاً منتوجات وملبوسات ذات صلة بالنموذج العقاري، ويأكلوا في مطاعمها ويستمعوا إلى موسيقاها.

احتار جون وكات ماذا يطلقان على مشروعهما الذي يتضمّن مسكنهما أيضاً، لأن كلمة فندق لا تناسبه، وكذلك بونسيون وأوتيل وموتيل. كما لم يرتاحا لكلمة «سرير وإفطار» التي تداولها روّادهم في بداية انطلاق الخدمة المميزة، لعدم وجود مصطلح يقوله أصحاب المشروع نفسه. وحاولت كات إقناع جون بهذه التسمية التي مازال الناس يردِّدونها وهم مرتاحون، لكنه طلب منها أن تفكّر معه في اسم لطيف يوحي بهدف المكان ووجودهم فيه كأسرة أيضاً. ووصل جون بعد فترة إلى إطلاق اسم «كاسا كارسون» على خدمتهما المبتكرة، لأن كلمة «كاسا» باللغة الإسبانية التي يتكلمها الكثيرون من أهالي كاليفورنيا، لأنهم من أصول مكسيكية، تعني المنزل، و«كاسا كارسون» تعني منزل آل كارسون، وهذه التسمية تليق بالمسكن والخدمة المقدّمة معاً.

ـ هل أعجبك الاسم؟ سأل جون كات.

ـ مميز ويشير إلى منزلنا في نهاية المطاف.

ـ وهذا هو الواقع فعلاً. وليقل الناس ما شاءوا من تعبير يناسبهم.

رغم أن روّاد «كاسا كارسون» كانوا يدخلون لأول مرة

بإحساس من يدخل إلى منزل عادي، إلّا أنهم كانوا يُفاجأون بمجرد دخولهم الطابق العلوي بعالم آخر، كانت بصمتا مهندس الديكور السينمائي وإلهام كات له واضحة عليه، فالداخل كان يسيطر عليه إحساس بأن المكان أكبر من حجمه الطبيعي، لأن الصالة الموجودة أمام الباب مباشرة، ولا يفصلها شيء عن غرف الروّاد الست التي كانت كبيرة، مجهّزة للحديث ومع ركن صغير فيها للأكل، أما نهاية هذه الصالة المربعة لجهة المحيط فكانت عبارة عن لوح من الزجاج الضخم القوي، يمتدّ من أرضية البيت حتى سقفه، ما يجعل الداخلين والجالسين يتحدثون وهم يرون أو يلمحون الأفق، من أي زاوية ومكان فيها، ويشاهدون أمواجاً تتكسّر على مسافة عشرين قدماً، توحي للمرء أنه في سفينة راسية تنتظر الإبحار، يحوم بجوارها طيور النورس وتُسمع أصواتها بوضوح أثناء النهار.

صُمِّمت غرف النوم بشكل عملي يناسب الخدمة والأجواء العامة والهدف من وجود «كاسا كارسون»، ودُهنت بلون أزرق سماوي يتلاءم مع البيئة الخارجية ولا ينفصل عنها. واحتوت كل غرفة على سريرين خشبيين لشخص واحد، بينهما منضدة عليها جهاز تلفون، وخزانة في الحائط بجوارها حمام ودورة مياه صغيرة، ونافذة تطلّ على الشاطىء، تغطّي زجاجها شرائط متدلية رفيعة من قطع خشب البامبو الصغيرة،

تمتدّ من السقف حتى المستوى السفلي للنافذة، ويهزّها الهواء فتُصدر أصواتاً ناعمة رتيبة تساعد على قيلولة بعد الظهر لمن يحبونها، وتحجب المشهد إلّا قليلاً عن الموجودين داخل الغرفة، ولا يرى من يقف خارجها والسائر على الطريق سوى ستائر البامبو المتماوجة في أغلب الأحيان. واختارت كات بعض لوحات صغيرة ذات صلة بالبحر والشاطىء لتُزيّن بها غرف النوم.

ـ الداخل والمقيم في الطابق العلوي يشعر كأنه في سفينة يا جون؟ قالت كات بعد سنتين من إطلاق مشروعهما الناجح.

ـ ماذا تقصدين بقولك؟

ـ هذه السفينة ستبحر إلى أين؟ وبماذا يجب أن تتميّز؟ هل فكّرت في الأمر؟

ـ هذا صحيح. يجب أن نفعل شيئاً.

أضاف جون وكات مكتبة صغيرة في الزاوية اليمنى للصالة الكبيرة في الطابق العلوي، ووضعا بيانو في الزاوية اليسرى، وزرعا عدة أشجار في الفناء الخارجي تعطي ظلاً وارفاً، علت تيجان بعضها ووصلت إلى سطح المنزل بعد عدة سنوات، وساهم تمايل أغصانها في دفع هواء محيط الباسيفيك، تحت الطاولات المعدّة للأكل في الأجواء المواتية، وقد صُنعت عملات ذهبية تتراقص على أجساد الجالسين وهم يأكلون نهاراً، وتخترق مساحات الظل فوقهم.

ويصدر عنها حفيف لطيف ليلاً يسمعه هواة التنصت للطبيعة والتمتع بضوء القمر الفضي وهو يتلألأ على المساحة المائية المعتمة الهائلة أمام الفناء الخارجي الذي يتّسع لمائة وخمسين ساهراً، يجلسون بجوار مرأب سيارات في الهواء الطلق، إضافة لإمكانية بناء مرقص موقت لو أرادوا إحياء حفلة كبيرة راقصة.

قرّر الزوجان إضافة كأس مارتيني مع وجبة الإفطار يمدّ محبي ركوب الأمواج فجراً بنوع من الدفء، ويكون مفاجأة بالنسبة لمن يشربونه لأول مرة. كما بدآ التفكير جدّياً في إقامة حفلات كبيرة، وليس مجرد احتفال صغير لمن يصادف عيد ميلاده أثناء وجوده بينهم، لكن مناسبات هذه الحفلات ومبرر وجودها شغلت تفكيرهما عدة شهور. كما استعارت صاحبة «كاسا كارسون» أسلوب رئيسات المطابخ اللاتي يؤدّين عملهن مثل نجمات السينما الماسيات، وكانت ترتدي أحياناً وهي تطبخ زياً يشبه ملابس البحارة التقليدية، وطلبت من ناتالي أن تراقبها وتقلّدها وتضيف أسلوبها الخاص، لإضفاء جو من المرح على الخدمة.

ـ ألم أكن في يوم من الأيام نجمة؟ سألت كات ناتالي وهي تُلقي لمحة داخلية على شريط حياتها في لحظة.

ـ نجمة كبيرة بدون شك أو مجاملة. ردّت ناتالي.

ـ وماذا حدث؟

ـ الأفضل يا كات أن تعيشي اللحظة. الحياة نفسها صور متغيرة. قالت ناتالي بعد لحظات من تأمل كات.

ـ لا شيء يبقى على حاله.

ـ حتى أحلام الإنسان وشهوته.

كانت كات صاحبة تأثير على ناتالي ـ التي كانت تعتبرها إنسانة قد نُكبت بمصيبتين لكنها لم تقل أو تُلمِّح لها بذلك مطلقاً ـ ولم يظهر هذا التأثير بشكل واضح سوى بعد انتقالها إلى ماليبو، إذ غيّرت الأخيرة نمط ثيابها وصبغت شعرها بلون أشقر فاتح للغاية، وبدأت تقابل الحياة بابتسامة وقلب سعيد، وجعلتها هذه التغييرات تبدو أصغر عمراً، وكانت كات تلاحظها وهي تتغيّر، وتداعبها من حين لآخر بأن الوقت قد حان لوجود صديق في حياتها، أو زوج تبدأ معه من جديد، لكن ناتالي كانت تقول لها إنها بدأت معهم هم حياتها من جديد وحسبها ذلك.

وإذا كانت كات صاحبة تأثير على ناتالي، فإن الإعجاب الأكبر في قلب الأخيرة كان لجون الذي سمعت بأسرته عن بعد، وتعرف أنه حفيد صاحب العقار في وسط المدينة، الذي شُيِّد عليه مبنى محافظة لوس أنجلس، وجمع ثروة محترمة من بيعه، ولم يمنعه تبذيره من تربية أبنائه بشكل لائق في أفضل معاهد العلم ومنهم أبو جون نفسه. لذلك لم يكن مستغرباً أن تنظر عائلة جون بتعال إلى كاترينا أرهارد، التي كانت مجرد راقصة في ملهى ليلي عندما تعرّف عليها، بينما

كان هو طيّاراً حربياً تمّ اختياره من خيرة الشباب الأميركي لياقة وردة فعل وذكاء، ليقود طائرة مقاتلة ويرتقي ربما ليصل إلى قيادة قاعدة جوية أو أركان السلاح الجوي في البنتاغون في المستقبل.

كانت ناتالي تعتبر إصابة جون في الباص، التي أدت إلى تقاعده المبكر في ثلاثينيات عمره ومنعته عن قيادة الطائرات، إحدى المصيبتين اللتين أصابتا كات، وإن كانت أكبر بكثير جداً من حظها الذي تعثر فجأة في السينما، لأن ناتالي شخصياً كانت ولم تزل إحدى المعجبات بفنها، وبشخصيتها بعد أن عاشت معها عن قرب. كما أنها تعتبر جون، الذي عاصرته وهو يتخلص من التأثيرات السلبية على روحه بسبب محدودية حركة ذراعه المصابة، أبرز شخصيات حياتها المفضلين، خصوصاً لأنه أضاف قيمة للحب في نظرها، هي التي لم توفّق في حياتها الزوجية، كما كانت تختصر بهذه العبارة عقداً زمنياً من الزواج، خرجت منه منكسرة عاقدة العزم على عدم الوقوع في تجربة زواج أخرى أو علاقة عاطفية.

راقبت «كاسا كارسون» في بدايات الستينيات الساحل الممتد من شرقي جسر ماليبو حتى نهاية شاطىء الكربون، الأبنية المتناثرة كالفطر والتي شيدت فوقه، وهي تشبه «الكاسا» في طرازها التاريخي المنتمي إلى مطلع خمسينيات القرن العشرين، وعاصرت باقي الساحل نفسه وهو يتحوّل إلى

طراز حصري يتكوّن من أقسام عقارية رملية عليها أكواخ شاطىء بعد منتصف الستينيات. وقد أدّى وجود هذه الأبنية إلى خلق صداقات جديدة بين السكان الجدد وآل كارسون الذين كانوا يعتبرون مرجعاً بالنسبة لهم، وإلى أجواء جديدة صيفاً بين المصطافين الموسميين وبين النشاطات التي بدأ آل كارسون ينظّمونها.

تحوّل المكان من رمال مقفرة عليها «كاسا كارسون» وثلاثة منازل أخرى فقط، إلى حي صغير هادىء راقٍ، كانت الحياة تستحق أن تُعاش فيه. وفي تلك الأيام كان كل فرد يعرف جميع سكان الحي، وكان الشاطىء في الصيف يساوي بين الناس الموجودين في الأكواخ والمنازل والقادمين محبي ماليبو، وكذلك هواة ركوب الأمواج الذين يأتون فجراً ويرحلون قبل ضحى اليوم. لم يكن أحد يهتم أو يسأل من أين يأتي راكبو الأمواج، أو من أين جاء سكان الأكواخ. كانت متعة الوجود في شاطىء الكربون تجمع الكل، ورومانسية الجلوس على الشاطىء ليلاً في مؤانسة أضواء المنازل والأكواخ وحلقات التجمع حول النار هنا وهناك تُسكر المتسامرين، وطالما جمعت المراهقين ومن هم في مرحلة الشباب وأصحاب القلوب التي تبحث عن مغامرة، قصص حب ورومانسيات كانت عادة تنتهي بانتهاء الصيف، ونادراً ما كانت تستمر أكثر من هذا الفصل الملتهب، مثلما حدث مع دينيس في صيف 1969.

أقام الزوجان كارسون حفلات لا حصر لها، بعدما وجدا المناسبات وأرشدتهما خبرة المكان والعمل وإقامة علاقات كثيرة مع الرواد، وانتشرت سمعة «الكاسا» بين متذوِّقي خدمة «سرير وإفطار»، من لوس أنجلس حتى سان فرانسيسكو شمالاً التي تبعد تسع ساعات بالسيارة، وسان دياغو المتاخمة لحدود المكسيك جنوباً، وكانت هذه الحفلات مادة أساطير محلية ألفها الجيران، لأنها كانت تضم أحياناً بعض نجوم وكواكب السينما الذين أرشدهم طوم ستيوارت إلى المكان، وكان حضورهم بسياراتهم الفارهة ليلاً ذا انطباع لا يُنسى، وكذلك رحيلهم وبعضهم يغنِّي بصوت مرتفع وهم منتشون. كما كان يأتي بعض رجال الكونغرس والسياسيين الذين كان طوم ستيوارت يصطحبهم معه «من أجل سهرة رائعة لن ينسوها». وكان يحضر هذه الحفلات بعض أصدقاء جون من العسكريين القدامى الذين صاروا أصحاب رتب عالية ومراكز مهمة، واهتدوا إلى داره بشكل أو آخر.

كان مشهد عشرات السيارات اللامعة الفخمة التي تنعكس عليها أضواء «الكاسا» والفناء الخارجي مثيراً بالنسبة لسكان الحي، وكان مشهد الضيوف حافزاً لحشرية سكان المنازل الأخرى لإلقاء نظرة من بعيد على أولئك الساهرين الذين كانوا يبدون أنهم بدون هموم، وكانت كات وأداؤها الماسي، خصوصاً أمام آلات الشواء، بهجة المنتظرين لالتقاط قطعة لحم يضيفونها إلى صحنهم من الموائد المفتوحة، فقواعد

بروتوكول الحفلات مرفوضة تحت ضوء قمر شاطىء الكربون، وقد أتى هؤلاء الناس بملابس بسيطة هرباً من الكاميرات والسلوكيات الاجتماعية التي تفرض التهذيب البالغ على طاولات الأكل. أما جون فقد كان ينتقل من مكان لآخر ليُشعر ضيوفه أنهم في منزلهم، أو يدخل المنزل لإلقاء نظرة سريعة على أولاده الذين كانوا ينامون عندما يريدون، مهما كانت ظروف المنزل وحفلاته التي ألفوها، وكانت ناتالي مع مساعد آخر أحياناً القلبين النابضين اللذين يضخّان ما ينقص على الموائد من الطعام المعدّ سلفاً في البرادات الضخمة داخل الطابق الأول.

لم يسأل أحد من هؤلاء الضيوف ولا مرة لماذا تضع كات موسيقى وأغاني يغلب عليها الطابع اللاتيني، تُذاع بطريقة خافتة وكأن الألحان وأصوات المطربين تنساب خلسة بدون معرفة مصدرها، بين حفيف الأغصان التي تهزّها نسمات المحيط التي تقوى بعد العاشرة ليلاً. كما لم يسأل أحد عن سبب الحفلة القادمة التي ستكون ربما بعد عشرين يوماً، فقد كانوا يسمعون جون أو كات وهي تخبرهم بالموعد، وهم يبتسمون ويؤكد معظمهم على الحضور إذا لم يكن في جدوله أمر آخر في تلك الليلة المقبلة. وكان الزوجان كارسون وناتالي يصلون الليل بالنهار أثناء هذه الحفلات، لأنهم كانوا مضطرين للسهر حتى الفجر لتنظيف الموائد وجمع بقايا الطعام، والتحضير للروّاد الذين ينهضون قبل الشروق

لممارسة هوايتهم فوق أمواج المحيط. ورغم ذلك كانت طيور النورس تحوم فوق الفناء الخارجي في صباح اليوم التالي.

كانت هذه الحفلات تنتهي أحياناً بشكل غير متوقع، لأن السحب الممطرة تتجمّع أحياناً فوق الساحل الغربي في الولايات المتحدة بدءاً من بعد الظهر، خصوصاً شبه الجزيرة الواقعة جنوبي ولاية كاليفورنيا، وتبدأ الأمطار في الهطول لو صادف هذه الغيوم درجة الحرارة المناسبة أو الريح القوية، وتشرع في غسل كل ما يقع تحتها، وقد تستمر موجة المطر لبضع دقائق وأحياناً لمدة ساعات، تكون كفيلة بإثارة ضحكات الساهرين في البداية، ثم اعتذار صاحبات الثياب الخفيفة وأزواجهن أو أصدقائهن عن مواصلة حضور الحفل، وأخيراً يغادر المولعون بالسهر بسبب عناد غيوم تلك الليلة، وعدم تحرُّكها من سماء ماليبو على أقل تقدير احتراماً لهذه الأمسية الخلّابة.

عُقدت إحدى هذه الحفلات الأسطورية في حزيران/يونيو 1970 بمناسبة زواج دينيس من شاب يعمل في إحدى شركات التأمين، وقد حضرها معظم أصدقاء جون وكات وعدد لم تتوقّعه من روّاد «كاسا كارسون» الأوفياء، وتميّزت بجزءيها، وكان أولهما قبل مراسم الزواج الكنسية التي تمّت بعد ظهر يوم سبت، أما الثاني فقد امتدّ من مساء السبت حتى ساعات ما قبل فجر الأحد، ومن الأمور غير المُفسرة

أن كات وجدت جايمز سكوت في صف المهنّئين بعد مراسم الكنيسة، وعندما صافحها قال لها إنها أنجزت عملاً عظيماً وتمنّى «لابنتها» التوفيق في زواجها، وتبخّر بعد ذلك لدرجة أنها شكّت أن تكون قد رأت وهماً، لكن جون أكّد لها أنه قد حضر فعلاً.

لم تنم كات بعد ذهاب آخر المدعوين، وطلبت من ناتالي أن تخلد إلى النوم لأنها تعبت كثيراً، وألّا تستيقظ في الصباح الباكر لأنها شخصياً ستهتم بأمر روّادها هواة ركوب الأمواج، وجلست إلى إحدى الموائد وأمامها كأس شمبانيا، وهي تتأمل بقايا الطعام وقوالب الكاتو المتكسر والورق الملوّن الملقى على الأرض والأكواب والزجاجات الفارغة وشبه الفارغة، وتسبح بنظرها فوق المحيط المعتم، وتنظر إلى جون كارسون الذي كان يحتسي النبيذ منذ ساعات وهو ثابت يدخّن صامتاً بجوارها وهي تبتسم وتتنهّد أحياناً.

ـ هل أنت سعيد يا جون؟

ـ أكثر مما تتخيّلين. وأنت؟

ـ لم أصدّق أنني بلغت الخمسين سوى اليوم. تذكّرت كل شيء بتفاصيله، خصوصاً مشوارنا معاً.

ـ وأنا أيضاً. يبدو أن الحدث أثّر على ذاكرتينا وجدّد شبابهما.

ـ لقد تذكّرت والديّ اليوم وأنا في الكنيسة.

ـ ذكّريني متى توفي والدك؟

ـ سنة 1958.

ـ وأمك بعده بسنتين. كم تمرّ الأيام بسرعة؟ لم يبقَ لنا أي قريب من الدرجة الأولى.

ـ أريد أن أشكرك يا جون.

ـ لا تحاولي حتى مجرد التفكير مرة أخرى في ما تريدين أن تقوليه.

ـ لم أتوقّع حضور لورا مع إدوارد أول أمس. كانت مفاجأة حقاً.

ـ لا تنسي أن لورا شاركتنا حياتنا فترة لا بأس بها وزواج دينيس يعنيها. لقد شعرت كأن عقرباً لدغها عندما لمحت جايمز.

ـ كل هذه السنوات لم تقدر أن تجعل شعورها محايداً تجاهه.

ـ سأذهب للاستحمام ثم أنام لأنني مرهق. ماذا ستفعلين؟

ـ سأجلس هنا لبعض الوقت. لا تستيقظ عند الخامسة يا جون، سأتولى الأمر. تصبح على خير.

ـ هل ستظلين مستيقظة؟

ـ نعم.

جلست كات وهي ترى ذكريات حياتها كشريط يتوالى أمام عينيها، وعقلها يعيد سيناريو بعض الأحداث، ويمرّ على أمور بسرعة خاطفة، ويستعيد بعض الصور القديمة التي تعلوها أتربة النسيان في دروب الأيام. كان جون هو الحبكة الرئيسية

في هذا الشريط الذاكري، منه تتفرّع كل الحكايات وإليه تعود خواتيمها. وإذا كان من طبع الذاكرة أن تركّز على الحدث القريب لتنطلق منه للأبعد، لم تستطع كات تجاهل مشوار جون معها ومع ابنتها دينيس، التي بدت في سنوات عمرها الأولى أنها محدودة التفكير وتحصل على العلامات الضرورية للنجاح في المدرسة بصعوبة، وكادت هي أن تدمِّر حياتها بنعتها بالغباء. تلك الكلمة التي حذّرها جون من استعمالها تماماً، وقاد هو عملية إعادة تأهيلها سلوكياً لتوجيهها إلى أفضل سبيل تسلكه في الحياة.

انطلق جون من موهبة دينيس اللافتة في استعمال أصابعها، ليصل بها في السابعة عشرة إلى احترافها العمل في الرسم والحفر على الزجاج والخشب، ما جعلها تعمل في أحد أهم مصانع جنوبي كاليفورنيا التي تنتج مثل هذه الأشغال الحرفية بكميات كبيرة. كما درّبها، كعسكري قديم، وجعل أمها تشاركه في تلقينها أسلوب الردّ على أي سؤال بشكل محدّد، وعدم إضافة أي معلومة أخرى، الأمر الذي جعل دماغها يُحسّن أداءه بعد عدة سنوات، وحوّلها إلى عضو مقبول محترم في عملها والمجتمع في عمر المراهقة، بل جعلها تظهر أحياناً أنها متحفظة تستمع وتتريّث ثم تجيب. وطالما تمشيا وحدهما على شاطىء الكربون ذهاباً وإياباً، هو يسألها عن أحوالها وأصدقائها والدنيا وعلاقاتها مع الفتيان،

وهي تجيبه. كما جعلها تصل إلى أداء رفيع في هواية ركوب الأمواج، واكتفى بمراقبتها وهي تختفي في الموجة المتدحرجة على مياه المحيط كشلال ثم تعود وتظهر كبطة واثقة بنفسها، بعد إصابته البالغة في ذراعه. وقد شكّت كات نفسها في وجود علاقة ما بين دينيس وجون، بعد ظهور ملامح المراهقة النافرة عليها، وخلواتهما بعد الظهر على الشاطىء، والمحبة المندفعة من دينيس له واهتمامها المُبالغ فيه وبملابسه وتسريحة شعره، لكنها ندمت بشدة على ظنّها في ما بعد، لأن الرجل ارتفع بالعلاقة إلى مرتبة الأبوة الصالحة والصداقة المتينة لفتاة ليست من صلبه.

أسّس الزوجان كارسون نواة «منتدى ركوب أمواج المحيط» في بداية السبعينيات في فنائهما الخارجي، ثم أصبحا من أعضائه الأساسيين الذين يؤجّرون خشب ركوب الأمواج وملابس الغوص التي تقي الهواة من برودة مياه المحيط، حتى لمن هم ليسوا من روّاد «كاسا كارسون»، رغم أن كات لم تكن من ممارسي الهواية وكان جون قد اعتزلها عملياً، ولعبا هذا الدور حوالى عقد ونصف العقد من الزمان. كما أسسا نادياً لركوب الدراجات لينافس أعضاء رابطة «ضاحية جنوبي كاليفورنيا»، ويشعل حماسة الشباب الذين كانوا بحاجة لمنافس آخر بدلاً من تنافسهم في ما بينهم. وكان الناديان يتنافسان في فصل الصيف الممتع في كاليفورنيا الذي ينتظره الأعضاء بفارغ الصبر، ولم يكن

التباري في سباق الدراجات فقط، لكن من خلال أنشطة تمثّل بعض ألعاب القوى التي كان أفراد الفريقين فيها يحاولون التفوق على بعضهما بعضاً.

لم تزل ذكرى تلك الأيام التي لا تُنسى في ذاكرة المشتركين والمشجعين، خصوصاً ذلك العام الذي قاد فيه فريق «منتدى ركوب أمواج المحيط» دراجاتهم في نهاية فصل الصيف وختام التنافس الملتهب، بموازاة المحيط إلى «برلينغ غام» وبعدها إلى «لورلاين» ليصلوا إلى «نادي الدراجات» وهم في المقدمة، وعندما اتجهوا إلى وسط المدينة مع تعويذتهم الزمّار الذي كان في المقدمة يقود فريقه، استقبلتهم جوقة وأهالي بلدة «كازوز» الذين كانوا في انتظارهم بالصراخ والهتافات الحماسية، وهم يصلون إلى خط النهاية ويفوزون بمقال محترم في الصفحات الأولى بالصحف المحلية. وقد احتفل جون وكات بهذه المناسبة الرياضية بإقامة مسابقة ضخمة للعبة «الدومينو» في مرأب سيارات «كاسا كارسون»، اشترك فيها أعضاء الفريق الفائز وأصدقاؤهم، وكان نظامها انسحاب الخاسر وانتقاله إلى كراسي المشاهدين، وبعد مباريات كثيرة امتدّت إلى منتصف الليل تقريباً، فوجىء الفائز الأول بأغرب مكافأة يمكن أن يتلقاها أي رابح، وكانت رشّه بعشرات الزجاجات من المياه الغازية من جميع الموجودين، وسط ضحكهم وتهليلهم.

ـ هل يمكنني ذكر «الكاسا» في دليل سياحي للرحلات الدولية؟ سأل صديق لعائلتهم جون ذات يوم.

ـ لكننا غير مؤهلين لاستقبال وفود.

ـ إنه دليل دولي لأماكن «نوم وإفطار» فقط.

ـ وهل تظن أن أحداً سيقصدنا من آسيا مثلاً؟

ـ الإعلان مجاناً ولن تخسر على أية حال.

ـ اتفقنا.

وبطريقة لم يعلم أحد بها ولا حتى الصديق الذي عرض عليهم فكرة الإعلان، وُضعت صورة «كاسا تيت» على الغلاف الأخير لدليل أماكن «نوم وإفطار» الأميركي في طبعته الدولية، وأُعجب الزوجان للغاية بصورة منزلهما ونسيا الأمر بعد فترة. وبعد حوالى ثلاثة شهور ردّت كات على اتصال هاتفي يتكلم صاحبه بإنكليزية مضعضعة يخبرها فيه أنه يتحدث من السويد، ويطلب منها حجز غرفة له بعد خمسة عشر يوماً. وتلا ذلك حضور ضيفين من ولاية تكساس، ثم امرأة من اليونان وتوالى حضور ضيف أو أكثر كل فترة بفضل وجود عنوانهم في هذا الدليل.

ـ لماذا لا تزرعين فكرة «سرير وإفطار» المعروفة هنا في بلاد لا تعرفها؟ سألت كاسندرا المرأة اليونانية كات.

ـ فكرة غريبة جداً لم تخطر على بالي.

ـ فكِّري فيها بشكل جدّي.

ـ وماذا سأربح؟ يبدو لي أنني سأدفع من جيبي ووقتي.

ـ سيدفعون لك كأستاذ يعلّم فناً جديداً.

ـ هل أنت واثقة؟

ـ كل الثقة. ابدئي من عندي في اليونان لأنها بوتقة سياح أكبر من هنا.

ـ وبعد ذلك؟

ـ سأعرِّفك بأناس من بلاد مختلفة لهم اهتمامات بما هو طريف سياحياً ولن تندمي.

ـ ماذا تعملين يا سيدة كاسندرا؟

ـ أملك موتيلاً صغيراً.

ـ مَن تقترحين للقيام بهذه الفكرة، زوجي أم أنا؟

ـ أنت. لأنك نجمة سينمائية، والمرأة لها تأثير أكبر.

تعجّبت كات وهي تسمع كاسندرا تقول عنها إنها نجمة سينمائية، فقد كانت تظن أن أحداً لا يعرفها خارج الولايات المتحدة، أو طوى النسيان أفلامها الثلاثة التي لعبت الدور الأول فيها. وسألت جون عن رأيه في الفكرة ورحّب بها على سبيل تجربة جديدة لها، خصوصاً أنها من محبِّي الرحلات والتنقل، وتوقّع لها أن تأتي بفكرة جديدة لمشروعهم نفسه، إضافة لوصفات طبخ وجبات وطنية من عدّة دول، لو نجحت خطوتها الأولى في اليونان. ولم تتوقّع كات أن يكون الاعتراض على سفرها من ويندي وألن، اللذين خفّت حدة اعتراضهما بعد أن عرفا أن أمهما لن تتغيّب بأي حال من الأحوال أكثر من أسبوع.

أدركت كات أسباب اعتراض ويندي المخطوبة وعلى وشك الزواج، لأنها اعتقدت في البداية أن السفر لفترة طويلة لتأسيس عمل يشبه «كاسا كارسون» في الخارج، قد يؤجل مشروع زواجها. ثم فهمت بعد ذلك اعتراض ألن الذي سأل قبل يومين من سفرها، عن اسم المساعدة الأخرى التي ستكون مع أبيه أثناء غياب أمه. خاف ألن من التورط في مشروع ليس في نطاق طموحه، تكون بدايته مجرد مساعدة ناتالي وأبيه لمدة أسبوع، لكن أمه طمأنته بقدرة الاثنين على الخدمة أثناء غيابها، وطلبت منه أن يعطي دروسه وقتاً أكبر لو كان فعلاً يريد أن يكون طيّاراً ناجحاً، لأنها شخصياً غير راضية عن أدائه ودرجات تحصيله في معهد الطيارين.

تزوّجت ويندي التي كانت قد بدأت عملها في التسويق بعد تخرّجها في المدرسة الثانوية، وهي أحبّ أبناء كات إلى قلبها وأقربهم إلى نفسها، وانتقلت للعيش مع زوجها في ولاية نيومكسيكو جنوب غربي الولايات المتحدة، وكان زوجها يرافق أباه دائماً إلى «كاسا كارسون» من حين لآخر، من أجل الاستجمام وكان كلاهما من ثمار الإعلان في دليل «سرير وإفطار»، وتحوّل الإعجاب بين الشاب وبينها إلى مشروع زواج تمَّ في شتاء 1973، وكان الحفل عقب المراسم في أحد فنادق محافظة فنتورا، لتعذُّر قيامه في فصل قد تمطر فيه فوق رؤوس المدعوين في ماليبو. ويملك زوج

ويندي ووالده بضعة محلات لبيع الحلويات ومعملاً يمدّها ببعض الأصناف.

من الغريب أن إحدى صديقات ويندي واسمها كارمن دراغون، من سكان حي شاطىء الكربون مع أهلها الذين كانوا أيضاً من أوائل الذين بنوا منزلاً فيه قبل آل كارسون بثلاثة عقود، قد تحوّلت بعد خطبة صديقتها إلى أعز وأقرب أصدقاء كات رغم فارق العمر بينهما. وتوطّدت هذه الصلة بقوة بعد سفر ويندي إلى نيومكسيكو، ولم تعد تأتي كصديقة ابنتها بل كصديقة شخصية، وطالما شعرت كات أن ابنتها تزورها في كل مرة كانت كارمن تزورهم فيها، كما أنها تمنّت من كل قلبها أن يتعلق قلب ابنها ألن بها. ومن أجل عيني كارمن غيّرت كات ديكور الصالة الكبيرة في الطابق العلوي، وأضافت آلة «الهارب» التي تعزف كارمن عليها بمهارة وحنان كثيراً ما أدمع كات، وجعلها تطلب منها أن تزيد وترتجل في العزف، خصوصاً إذا كانت تحمل كأس مارتيني.

لاحظت كارمن دراغون ذات مساء أن كات في مزاج معين وهي تجلس بين ضيوفها، فعزفت لها ألحان الموسيقى التصويرية لأحد أفلامها، وطلبت كات منها أكثر من مرة أن تعيد ما عزفته، بعدما صبّت كأسها الثالثة، ونادراً ما كانت تفعل ذلك لأنها كانت لا تحب أن تنتشي أثناء عملها، ودموعها تترقرق في عينيها. ثم طلبت منها كارمن أن تغنّي

أغنية معينة من فيلم «أغنية الفصول»، وحاولت كات التملص بحجة أن غيرها كان يغنّي وهي تحرّك شفتيها فقط، فطلبت منها كارمن تحريك شفتيها بينما هي تعزف لحن هذه الأغنية، ولم تجد كات مفرّاً من الغناء وغنّت إحدى أجمل أغاني الفيلم التي تعتبر من كلاسيكيات الأغاني الراقصة في أربعينيات القرن العشرين، وطلب منها ضيوفها هذه المرة أن تعيد الغناء.

طارت كات في المرة الثانية إلى اليابان، لتعلّم إحدى الأسر هناك أسلوبها في إدارة وابتكار الأمور لإسعاد ضيوف «سرير وإفطار»، وتعلّمت هناك بعض أصول المطبخ الياباني، وما يسمّى بالشرق الأقصى بوجه عام، وكان من أهم دروسها دخول الفواكه على طعام الطبخ، الأمر الذي لم تستسغه عندما سمعته لكنها غيّرت رأيها بعد تذوّقها لبعض الأطعمة ومنها السمك مع الفاكهة، كما عادت ببعض التوابل غير المعروفة في لوس أنجلس. وقد اضطرّت لتمديد فترة إقامتها في اليابان أسبوعاً آخر بعد اتصال بهدف العمل من أصدقاء الأسرة التي جاءت لتعليمهم. وزارت كات أختها لورا لمدة يوم فقط ووعدتها بزيارة أطول بعد أقل من شهر.

اضطرّ آل كارسون في منتصف سبعينيات القرن العشرين إلى تخصيص الغرفتين اللتين كانتا لدينيس وويندي إلى الضيوف الأكثر وفاءً وقرباً منهم، لأن عدد روّاد «الكاسا» بدأ يزداد خصوصاً في أيام العطلات الأسبوعية والأعياد. كما

سألت كات ناتالي إذا كانت تحتاج إلى مساعد لها بسبب عدد رحلاتها التي زادت خارج الولايات المتحدة، وردّت ناتالي بأنها حتى هذه اللحظة لا تريد مساعدة، وربما تطلبها عندما تتخطّى السبعين، وبدا على كات الدهشة من مرور العمر بهذه السرعة، وعدد السنوات التي قضتها ناتالي معهم، وتحولها إلى أحد أفراد الأسرة لكثرة ما عرفت من أسرار، ورافقت أحداثاً وعاصرت مشاكل أبدت فيها رأيها الذي رأوه صواباً وعملوا به، لدرجة اختفاء الحدود القائمة بين رب العمل وموظف في ما بينها وبينهم.

سكت الجميع ثم تكلم الحمار..

سُمعت هذه الجملة بينما كان جون ساهراً يتسامر في الفناء الخارجي مع بعض ضيوفه، في ليلة من ليالي تشرين الأول/أكتوبر ذات الطقس المقبول للجلوس في الهواء الطلق، وكان بين ضيوفه رجل من هاواي عاصر القصف الياباني في بيرل هاربور ولم يصب بأعجوبة، وكان يحلو له التردّد إلى «كاسا كارسون» مرتين أو ثلاثاً سنوياً، يتذكّر فيها أحياناً شؤون الحرب العالمية الثانية مع جون، رغم أنهما لم يحاربا على جبهة واحدة، لكن الأهوال المشتركة قد تجمع شمل الناس ليتحدثوا عنها، خصوصاً بعد أن يضيف إليها مرور العمر نكهة معينة، وقد قدّم هذا الرجل رقم «الكاسا» هدية على قطعة خشبية من بلاده بخطوط زاهية، لم يعرف أحد سر صمود ألوانها رغم شمس كاليفورنيا الملتهبة صيفاً

ورطوبة المحيط، وكان الجميع في تلك الجلسة يتسامرون حول الفن الصيني وعمارة المعابد هناك من خلال بعض الكتب الفنية التي أحضرتها كات بعد رحلة لها لبكين. وقطع الجميع حديثهم والتفتوا باتجاه الصوت خلفهم وهم مندهشون، وكان جون آخر من التفت، ثم وقف وقد بدا عليه أنه وجد شيئاً قد ضاع منه منذ سنوات بعيدة.

ـ سكت الجميع ثم تكلم الحمار وقال. أكمل جون العبارة وهو يضحك.

ـ إذاً أنت جون كارسون نفسه أحد زملاء فصلنا الدراسي أيام الدراسة الإعدادية.

ـ من المؤكد أن هذه الصلعة قد غيّرت ملامحك، لكن قل لي اسمك الأول فقط لأتذكّر.

ـ جورج.

ـ جورج ميلر.

ـ ذاكرة حديدية فعلاً.

ـ كيف عرفت بأمر «الكاسا» يا جورج؟

ـ قرأت عنها في الدليل، ثم سألت أحدهم واتفق أنه من زوّارك. قال جورج وهو يشدّ على يد جون وبدا عليه التأثر عندما لاحظ ارتخاء الأصابع وحركة اليد البطيئة.

ـ متى حدث هذا الأمر؟ سأل ميلر جون.

ـ في حادث سير منذ سنوات.

ـ قيل لي إنك زوج كات.

ـ هذا صحيح، وهي في الداخل وستأتي بعد قليل.

كان جورج ميلر أحد التلامذة العفاريت الذين يجلسون في الصفوف الأخيرة في الفصول الدراسية عادة، لتكون الرؤية أوضح بالنسبة لهم، ويستطيعوا من ثمة ممارسة حركاتهم الصبيانية في أمان من عيون المعلمين أو نظّار الطوابق. وحسب هواية بعض التلامذة في تقليد معلميهم تعوّد ميلر من آن لآخر تقليد المعلم التالي في الدقائق الخمس التي تفصل بين الساعات الدراسية، وكان مواظباً على ذلك بدون ملل، لكنه كان يتوقف إذا كان في حالة مزاجية سيئة بسبب توبيخ أو تأنيب على إهمال أو أي أمر آخر، وكان أحد مساعديه يتولّى أمر مراقبة الردهة ليخبره بحضور المعلم عندما يظهر في أولها، وبمجرد سماعه ذلك كان ميلر يتوقف ويقول: «سكت الجميع ثم تكلم الحمار وقال»، ثم يطير نحو كرسيه وسط صمت التلامذة الذين يستقبلون معلمهم الذي يبادر دائماً إلى تحية الصباح.

كما كان ميلر يرتجل خطبة قصيرة عسكرية مضحكة أحياناً بعد خروج أحد المعلمين بُعيد انتهاء الدرس، يتقمّص فيها شخصية قائد منتصر يصف شجاعة جنوده وتراجع أعدائه أمامه، وكان ينصح القائد المنسحب دائماً بسلوك طريق الساحل في نهاية كلمته عبر الراديو كما كان يزعم.

ـ لكن لماذا عليه اتخاذ طريق الساحل كل مرة؟ سأله زميل ذات يوم.

ـ ليحفظ ماء وجهه أمامي ولا يقع في الأسر.

لم تكن هذه الأفكار التي تحدث داخل الصف الدراسي، سوى عمل صبياني يفعله ميلر الطائش ولا يقصد من ورائه سوى إضحاك الصف وجذب الأنظار إليه، لأنه كان من أكثر المصفّقين لمعلميهم أثناء الحفلات في المناسبات المختلفة، وكان لا يسكت إذا سمع أحدهم من مدرسة أخرى يقلِّل من شأن معلمي مدرستهم. ومن الغريب أن ينتهي ميلر نفسه أستاذاً في الجامعة، يعتبره تلاميذه غريب الأطوار لأنه يعيش كمتفرِّغ لتعليم السياسة الخارجية ومتابعة كل ما يحدث في العالم، وقراءة عشرات الأبحاث ومراجعة وتوجيه أصحابها، والاطلاع على عدد لا يُصدَّق من مقالات يراها مهمة في المجلات المتخصصة والصحف ذات الأسماء الكبيرة، ما منعه من الزواج لأنه لم يجد لا الوقت أو الشغف الكبير لذلك الارتباط كما يقول لمن يسأله، واستحق لقب «الأعزب الطيب» من المحيطين به ومن تلامذته، رغم لسانه السليط الذي لا يستطيع التوقف أمام بحث كتبه صاحبه بسطحية أو كحشو سطور في صفحات كثيرة لإيهام القارىء بمدى التعب الذي بذله.

كان طبيعياً أن يستعيد الزميلان القديمان ذكرياتهما ويدفعا المتسامرين معهما إلى تذكُّر أيام دراستهم أيضاً. وأجمع المتحدثون على فقدان الصلة بين معظم تلامذة الصف الدراسي الواحد إلّا قليلاً، بعد الدخول في مشاغل الحياة

ومتطلباتها، لكنهم اختلفوا على الأسباب. واتفقوا على وجود نوع من المحبة الخاصة لمدرسة الإنسان وهو صغير حتى لو كان لا يحبها في أيام دراسته، كما أجمعوا على تذكُّر معظم زملاء الصفوف الدراسية في التعليم الابتدائي والإعدادي، ونسيان الكثير ممن كانوا معهم في الثانوي والجامعة، رغم أن الإنسان يكون أنضج في تلك المرحلة. كما اندهش الجميع من رجل هاواي وهو يصف لهم مدرسته البسيطة الأولى التي ذهب إليها وكادت أن تكون في العراء في الثلاثينيات، ولفت نظرهم أن تكون هذه المدرسة أكثر التصاقاً بالبيئة، وتستخدم أساليب أكثر تشويقاً للتعليم، مما رأى تلامذة الولايات المتحدة أنفسهم الذين هم في مثل عمر الرجل.

ـ هل تعلم يا جون أنك قد أحسنت اختيار المنطقة والمهنة؟ قال جورج ميلر وهما جالسان خلف الحائط الزجاجي في الطابق العلوي يتحدثان قرابة الفجر.

ـ كنت مضطراً لذلك بسبب ظروفي أنا وكات كما قلت لك. وشعرنا في الشهور الأولى بأننا، أو الأصوب أن أقول إنني أخطأت بالرهان الشامل الذي تورّطت به، وكدت أقع في إفلاس مهين فعلاً.

ـ يبدو أن الفكرة كانت تحتاج إلى اختمار في نفوس الناس.

ـ وساعدنا بعض أصدقاء كات. كانوا أوائل زبائننا.

ـ لماذا لا تؤلِّف كتاباً عن هذه المنطقة ودورك في إعمارها وجذب النظر إليها؟ هذا تاريخ يا جون.

ـ لا أعرف كيف أؤلِّف كتاباً.

ـ هل أرسل لك أحد تلاميذي ليتولّى سماعك ويكتب؟

ـ ربما بعد سنوات، لأنني أشعر بالكثير مما يجب عمله ويكون الكتاب من ثمة له قيمة.

ـ فكرة رائعة. هل تحتفظ بصور العقار قبل بنائه، وكيف كانت المنطقة، وبعض روّاد «الكاسا» ونشاطاتك؟

ـ أكيد.

ـ هذا مهم ويثري الكتاب. واظب على التصوير والتدوين لأن الذاكرة لا تساعد أحياناً مثل الأمر المكتوب.

ـ سأحاول خصوصاً أنني من هواة كتابة يومياتي أحياناً.

اعتقدت كات في بداية الأمر أن الشاب الثلاثيني الذي يقف قريباً منها في توليدو بإسبانيا، ينظر إلى فتاة بجوارها وهي تقف مع مجموعة من السيّاح يستمعون إلى مرشدهم السياحي، بينما كانت في رحلة عمل في بلدة كاديز الساحلية جنوبي إسبانيا على المحيط الأطلنطي التي تقع شمالي جبل طارق بحوالى مائتي كيلومتر، وقرّرت بناء على نصيحة أن تعرج على تلك المدينة قبل أن تقلع من مدريد لتعود إلى ديارها مرة أخرى. كان الشاب متوسط القامة في مثل طولها تقريباً، ذا بشرة سمراء صافية لم ترَ كات مثلها سوى في إسبانيا. نحيل لكن بنيته قوية تدلّ عليها وقفته التي تشبه

الوتد. وتعجّبت عندما لم تجد فتاة عشرينية قريبة منها، واعتقدت أنه يتابع المرشد وهو شارد البصر فاتجهت عيناه صدفة إلى النقطة التي تقف فيها مستمعة.

لكنها لاحظت بعد قليل أنها هي المقصودة من تركيز عينيه، واهتزّ وجدانها فعلاً وهي تنتبه إلى فحيح الذكورة والشهوة الصادرين عن العينين السوداوين الكبيرتين. فحيح لم تسمعه في لغة النظرات بهذا الأداء حتى أيام مراهقتها، ما جعل الدم يتدفّق في الوجنتين اللتين بلغتا عامهما التاسع والخمسين، وجعل صاحبتهما تشعر بالدفء رغم برودة طقس تشرين الثاني/نوفمبر في هذه المنطقة، وتفكّر في الأمر الذي جعلها بؤرة جذب جنسية بالنسبة لشاب يصغرها بثلاثين سنة تقريباً، دفعته للنظر إليها بهذه الطريقة التي اعتبرتها هي تحية عابرة من عيني شاب أثارت فيه الشهوة.

تجاوز الأمر ما فكّرت فيه كات عندما لمحته يستقل سيارته ويتبع الباص السياحي الذي استقلّته إلى نيوكاستيلي القريبة من مدريد، وسألت الرجل الذي يجلس بجوارها عن المسافة المتبقية وأجابها بأنها لا تقلّ عن مائتي كيلومتر، وابتسمت وهي تحاول إقناع نفسها بأن السيارة الحمراء التي تتبع الحافلة، ستنحرف إلى وجهة أخرى قبل مغادرة توليدو، لكن السيارة الحمراء جعلتها تضطرب وتنسى كل شيء وتتابع المشاهد الجميلة من خلال تساؤلاتها عن ملاحقة هذا الشاب لها، كما حاولت إلهاء نفسها بالحديث مع الرجل الجالس

بجوارها، الذي حاول أن يشرح لها بإنكليزيته ذات اللكنة الفرنسية عن أهمية مدينة توليدو التاريخية. ووقفت الحافلة لعشر دقائق في استراحة محطة بنزين، ونزل الفوج السياحي لشراء بعض التذكارات المحلية والطعام، وتوقفت السيارة الحمراء وملأ صاحبها خزّانها بالوقود، ودخل إلى المطعم الملحق بالمحطة وبدأ يفتِّش بعينيه عن كات، ورفع يده بالتحية لها فضحكت هي.

وقفت كات بين الفوج السياحي تتأمل «إسكوريال» البناء الغرانيتي الضخم، ذا الأضلاع الأربع من الأبنية المتداخلة بعضها ببعض بواسطة ردهات طويلة، وتنتهي زوايا هذا المربع السكني الهائل بأبراج تناسب عظمة البناء، الذي يعتبر من أهم عمارات عصر النهضة الإسبانية، وبدأ العمل فيه سنة 1562 واستمر لمدة اثنين وعشرين عاماً، بعدما صمَّمه مهندسه المعماري بناءً على الأهداف المتعددة التي أرادها صاحبه في البناء، وهي كنيسة ودير وقصر ملكي وجامعة ومكتبة.

ـ يقولون إن الملك فيليب الثاني كان يجلس فوق هذا الجبل ليتابع البنّائين من وقت لآخر. قال لها صاحب السيارة الحمراء وهو يمشي بجوارها مع الفوج الذي يتابع بإعجاب «إسكوريال» من الداخل.

ـ وماذا تتابع أنت منذ الثامنة صباحاً؟ سألته كات بصوت هامس.

ـ لقد تخيّلت فعلاً أنك تملكين مثل هذا الصوت المعبّر.

ردّ عليها هامساً.

ـ ماذا تريد مني فعلاً؟

ـ أريد فقط رؤيتك عن قرب وسماع صوتك؟

ـ لماذا؟

ـ لا أعلم. كأنك لاعب خفة قد نوّمني.

عرفت كات أن الشاب يعمل في مصنع للمياه المعدنية، وصودف وجوده في المكان السياحي في توليدو لتسوية حسابات فيها أخطاء مع شركتهم لا يمكن حلّها هاتفياً، لكن مدير المحاسبة اعتذر عن الحضور لسبب طارىء، ووجد نفسه يتأمل ما حوله ويسير مع الفوج حتى اللحظة التي لمحها فيها، ولا يعلم ما هي القوة التي أجبرته على متابعتها، رغم أنه وجد الأمر سخيفاً وغير مبرّر وهو يقود سيارته وراء الباص. وشكّت كات في ما قاله الشاب واعتقدت أنه من هواة صيد العوانس والمطلقات الأميركيات، المعروفات بغناهن وجولاتهن حول العالم، ويشاع عدم ممانعة بعضهن أحياناً عن خوض مغامرة كهذه لو راقهنّ صاحبها. لكن خبرتها بالناس جعلتها تتأمل ما قاله بهدوء وتصدّقه.

ـ كم يبلغ عمرك يا كارلوس؟ سألته كات. بعدما قبلت دعوته على الغداء.

ـ اثنان وثلاثون عاماً.

ـ هل تعلم أنني أبلغ ضعف عمرك؟

ـ لكنك ما زلت مثيرة.

ـ هل دائماً تنظر إلى الأمور من هذه الزاوية؟

ـ أي علاقة بين رجل وامرأة أساسها الجاذبية الجنسية، حتى لو لم يكن هناك أي ممارسة بينهما. أعتقد أن أكبر مصيبة في الحياة هي العمى وليس أي إعاقة أخرى.

ـ هل تعتقد ذلك؟

ـ لأن الأصم يمكنه السماع بعينيه.

ـ لكن لماذا سرت كل هذه المسافة ورائي؟

ـ لأنك جميلة جداً. المرأة الأكثر جاذبية في العالم.

ـ وأنت رجل وسيم فعلاً.

ـ هل ستبقين الليلة في توليدو؟

ـ بعضاً منها وسأنطلق للمطار عند منتصف الليل.

ـ هل يمكن أن أرافقك حتى ساعة رحيلك؟

ـ وزوجتك وابنك؟

ـ سأتدبّر الأمر باتصال هاتفي.

ـ كارلوس. يجب أن تذهب إليهما الآن.

ـ لماذا؟

ـ لأن هذا اللقاء سينتهي بعد ساعات. لا معنى لغيابك عنهما بدون فائدة.

ـ الأمر..

ـ كارلوس. تربطني بزوجي علاقة أكبر من الحب والجاذبية الجنسية.

ـ أحترم ما قلته، وأقبل أن أكون بجانبك فقط كمرافق في الفوج.

ـ لماذا؟

ـ هذه لحظة قد لا تحدث في حياة كل إنسان، وأنا سعيد جداً بها وممتن لك.

احتارت كات كيف تنهي هذه العلاقة التي نزلت عليها كصاعقة، وحرّكت شيئاً داخلها ما كان يجب أن يتحرّك، فمشت مع ما يحدث بهدوء ولبّت عشاءً رومانسياً كان فيه الكثير من البوح، الذي جعل كل منهما يعرف الكثير عن حياة الآخر، وبعض التفاصيل المؤثرة في ذاكرة كل منهما. لم تعرف كات لماذا استرسلت في الحديث مع ذلك الشاب الذي لم يزح عينيه عنها وكان يتأملها بتعلق مثير، وحاولت هي عدم التجاوب معه لأنها لم تشأ أن تمضي حتى النهاية، وتتورّط معه في علاقة جنسية لا تريدها، رغم الإغراء والنداء الصامت الذي يسيل من عينيه تجاهها. وذُهل هو عندما عرف أنها كانت راقصة ونجمة سينمائية في ثلاثة أفلام، وأقسم لها أنه شعر بأمر ما مميّز فيها وجاذبية غير طبيعية، لكنه لم يقدّر أنها وصلت إلى مرحلة النجومية. ثم انتظرها بعد العشاء في بهو الفندق حتى تغتسل من تراب وإرهاق جولات النهار، وهي تقاوم نداء غريزتها الكامنة بفعل تقدُّم العمر. ذلك النداء الذي كان يوسوس لها بطلبه هاتفياً من مكتب استقبال الفندق

ليصعد إلى غرفتها، بينما هي تتأمل جسدها تحت المياه المنسابة فوقه وهي تستحم.

ثم اصطحبها كارلوس بعد نزولها حتى باب المطار وهما يتحدثان عن جمال إسبانيا والسبب الذي جعله يتقن الإنكليزية ليعمل كمرشد سياحي، لكن الظروف غيّرت مسار حياته. ولم تجد كات ما تقوله له على كل ما فعله بصدق ظاهر أمام باب المغادرة، فوضعت كفها اليسرى على كتفه، وتحرّكت نحو باب المسافرين وعبرته وهي تدفع عربة الشنط أمامها، بدون أن تنظر إلى الخلف.

الفصل السابع

أخذت طبيعة نمط البناء تختلف في بداية ثمانينيات القرن العشرين على شاطىء الكربون، بعد ظهور بعض الفيلات، وعزا سكان ماليبو القدامى بناءها إلى وجود سيولة نقدية أكبر وضعت في سوقها العقارية بواسطة بعض أصحاب الملايين بعد انتباههم لموقعها. كما بدأ أسلوب الحياة على الشاطىء يختلف صيفاً لأن أصحاب هذه الفيلات لم يشاركوا سكان وروّاد الشاطىء أنشطتهم، ولم يكونوا من هواة ركوب الأمواج، أو حتى ممارسة هواية المشي بعد الظهر، وصيد السمك على جسر ماليبو. بدا هؤلاء المالكون الجدد مكتفين بتملكهم هذه الأبنية الفخمة، والذهاب والعودة بسياراتهم المميزة النظيفة دائماً التي تقف ليلاً تحت الأرض، إضافة إلى عدم إقامتهم لحفلات صيفية في أفنية فيلاتهم أو ظهورهم فيها عند الغروب، واقتصار معيشتهم نفسها داخل الفيلات، ونزهاتهم خارج المنطقة. لكن هذا الاختلاف لحظه مؤسسو ماليبو الذين لا يتركونها في كل الفصول، ولم ينتبه إليه مرتادو شاطىء الكربون.

ورغم رياح التغيير التي كانت تسود العالم كله أيضاً في

تلك الفترة الزمنية، حافظت «كاسا كارسون» على أسلوبها الخمسيني لروّادها المشغوفين بطراز البيت الذي يقدِّم لهم مذاق ماليبو القديمة بتوقيع كات وجون، مع المحيط والرمال والحكايات والموسيقى وكأس المارتيني، وقد جعلت خبرة التعامل مع الناس والسفر المتواصل كات تمتلك من الحكايات ما يوازي ويزيد أحياناً عن فقاعات الشمبانيا المثلجة داخل كأس شفافة تُبدي محتوياتها لمن يحتسيها. وكانت تلك الفقاعات غالباً ما تظهر في الجلسات الشتوية مع الروّاد، ويزيد جمالها قوة ملاحظة صاحبتها وروح الدعابة التي تتميّز بها، والأسلوب العفوي اللطيف الذي يتمتّع به جون ويتعامل به مع ضيوفه الذين لم يعتبرهم آل كارسون مجرد زبائن.

ـ على فكرة... أنت تطلقين على أي واحد منا M.M ولم أسمع أحدهم يسألك لماذا. قال أحد روّاد الكاسا لكات ذات مساء.

ـ ولم يعترض أي ضيف أيضاً. قالت هي.

ـ هذا صحيح. لكن أريد معرفة ماذا يعني هذان الحرفان؟

شرحت كات للسائل بدايات «كاسا كارسون» وظروفهم الشخصية والرهان الشامل الذي جعلهم يفكّرون في إنشائها، وكيف بدأوا عملهم بشكل غير مشجّع إطلاقاً واكب مرور أيام كثيرة عليهم بدون أن يدقّ إنسان بابهم، الأمر الذي جعل كلاً من الزوجين يعاني ويتأسف على الأمل الذي يوشك أن

يضيع، والديون وفوائدها التي ترتّبت على الرهان الكبير. جون لأنه صاحب الفكرة، وهي لأنها وقفت إلى جانبه ولم تعترض على وضع كل ما لديهم من مال في سلة واحدة. وفي تلك الظروف بالغة الدقة، جاءهم اتصال لحجز غرفة أعاد لها شخصياً إيقاعها الداخلي بعدما كادت تفقده. كان هذا القادم لحناً في حياتها التي سكن كل شيء فيها ما عدا الوساوس والغضب من الظروف غير المواتية. زبون استحقّ بجدارة أن تطلق عليه «مستر ميلودي» أو M.M وتسمِّي كل ضيف منهم بهذا الاسم لأن روّاد منزلهم ينظّمون الإيقاع الداخلي لها، وهم في الوقت نفسه يشبهون الأنوار التي تضيء «الكاسا».

دارت مثل هذه الأحاديث بين المتسامرين الذين كانوا يظلون أحياناً حتى ما بعد منتصف ليالي الشتاء يستمعون إلى آل كارسون بدون ملل، بينما الرياح تزمجر في الخارج والأمطار تنهمر بغزارة، وبعض هذا المشهد الغاضب يُرى من خلال الحائط الزجاجي تحت أضواء «الكاسا» الخارجية، ويتجاهله المستمعون لاستغراقهم في الاستماع واحتساء النبيذ. وكما تبدّد رغبة الذهاب للنوم المجتمعين واحداً بعد الآخر، كان الصباح يحمل مشهداً جديداً أحياناً يختلف تماماً عما هو متوقع أن يكون على الشاطىء بعد ليلة كهذه، لأن الرياح كانت تكنّس الساحل ليلاً وتعيد رونق رماله بعد إزالة

كل آثار الأقدام ودواليب السيارات الموجودة عليها، كما كانت الأمواج تعيد رسم شكل الجزء الأمامي له، وتلقي بأشياء لا تخطر على البال أحياناً، مثل المربعات الخشبية المتناسقة الحجم مجهولة المصدر التي اصطادها جون ذات صباح، واستعملها بعد الظهر بمساعدة أحد الروّاد في بناء أرضية ملعب خشبي كبير في عقار خالٍ مجاور، سرعان ما جذب جميع أطفال الحي، الذين راحوا يلعبون فوقه ويأخذون بعضاً من خشبه وهم عائدون إلى منازلهم لنحت أو عمل أشياء يتسلّون بها يومي السبت والأحد، إلى أن اختفى الملعب تماماً.

كما كانت روح جون المُحبة للحرية تظهر بوضوح بعد هدوء العاصفة، إذ كان يتجوّل بعد الظهر على الشاطىء، ويداعب الفقمات ويلقي لها بقايا الطعام الموجودة في المنزل، ويراقب طيور النورس ويلقي للذي يقترب منها فتات الخبز. ورغم مرور السنوات الطويلة على اعتزاله قيادة الطائرات، طالما لمحته كات يقف جامداً وهو يتابع ارتفاع إحداها في الهواء، بعد إقلاعها من فوق أحد مدارج مطار لوس أنجلس الموجود جنوبي ماليبو، إلى أن تختفي فوق المحيط أو شمالي ماليبو. ثم يبدأ جون في الحركة وكأنه تمثال دبّت فيه الحياة. وكان يسأل ابنه ألن عندما كان يشاركه في رياضة المشي أحياناً عن نوع الطائرة التي تقلع

أمامهما ومواصفاتها الفنية، كنوع من الاختبار يتبارى فيه طيّار قديم وآخر متدرِّب يعمل كمساعد طيّار، كان جون يفخر به دائماً بين الناس.

اقترب طائر نورس ضخم من جون ذات يوم وهو يتمشّى على الشاطىء حاملاً كأس فودكا، وأطعم الطائر كبير الحجم من فتات الخبز التي معه، ولم يطر بعيداً كعادة النوارس بعد الأكل وظل يحوم فوق رأسه ويهبط على الأرض ويسير أمامه ولا يرفض ما يقدّمه له من طعام. ولسبب غير معروف خطر ببال جون أن يغمّس كسرة خبز في كأسه ليرى تأثيرها على الطائر، الذي عاد بعد دقائق وبدأ السير أمامه، وأعطاه جون كسرة أخرى مبلّلة بالفودكا كسابقتها، وحلّق الطائر ثم عاد بعد قليل ولاحظ جون أنه يتنقَّل منتشياً أمامه هذه المرة، فأعطاه كسرة مبلّلة ثالثة بالحجم نفسه ولم يحلّق الطائر إنما أخذ يتنقّل أمامه ببطء شديد، ثم استدار باتجاهه ووقف على ساق واحدة وهو مترنِّح ونظر إليه كأنه يطلب المزيد، لكن جون حمله وجعله ينام في «الكاسا» ريثما يستعيد نشاطه فجر اليوم التالي. وقد روت كات هذه الواقعة كثيراً، وكانت تقف على ساق واحدة مثل الطائر وتقلّده وسط ضحكات المتسامرين.

من روّاد آل كارسون شبه الدائمين الذين كانوا يأتون من أجل الاستجمام في عطلة آخر الأسبوع أحياناً، محامٍ متخصص في قضايا الطلاق والحوادث، أطلق عليه موكلوه

«سمكة القرش» نظراً للطرق الشرسة غير المألوفة التي يستخدمها في دعاوى الطلاق المستعصية، أو التي يكون من وراء إنجازها الكثير من الأموال لموكله وله شخصياً. وكان ذلك «القرش» على علاقة متينة ببعض قرّاء الكف والمستشارين الروحانيين الكبار المشهورين، من أجل معرفة الزبائن الذين يمكن أن يدفعوا أتعاباً كبيرة لأنهم يطلبون المستحيل. واللافت للنظر أن ذلك المحامي لم يكن يوحي مظهره الخارجي أثناء جلساته في الطابق العلوي خلف الحائط الزجاجي، بأنه من القماشة التي تعمل في قضايا حساسة تصل في بعض الأحيان إلى جلسات مغلقة، لا يحضرها سوى المعنيين لدقة وخصوصية الأسئلة التي تُطرح على طرفي قضية الطلاق، والإجابات العارية التي يقولها الطرفان.

ـ ما أصعب قضية طلاق واجهتها حتى الآن؟ سألته كات ذات ليلة.

ـ قضية تحالف فيها أبناء يعارضون طلاق أبيهم المتزوج مدنياً بعد وفاة أمهم. كادوا يحجرون عليه بسبب سفه عقله كما ادّعى محاميهم الداهية.

ـ أولاده؟ سأله أحد الحاضرين.

ـ لأن مزرعة في «فريزنو» كانت على وشك أن تطير مع حدوث الطلاق.

ـ وكم تبلغ قيمتها؟

ـ نصف مليون دولار لأنها مجهّزة وضخمة وذات إنتاجية زراعية كبيرة.

ـ وماذا فعل الرجل؟

ـ كان يريد التخلص من خيوط ورطة يحوكها أولاده وعهر زوجته، فهرب من هذه العذابات بالاستغناء عن بعض دولاراته.

ـ بعض دولاراته؟ سألته كات وهي تشهق.

تعلق ألن بابنة المحامي بيل روبنسون التي أحبتها أمه، لكنها كانت تفضّل أن تكون كارمن صاحبة هذا الاهتمام، وكانت كريستين ابنة المحامي تعمل نائب مدير أحد مكاتب شركات الطيران في مطار لوس أنجلس، ولم يكن كلاهما يعرف بأمر «الكاسا» التي تجمع والديهما إلا بعد شهور من بداية معرفتهما، وشجّع جون ابنه ليكوِّن عائلة، وكان يحثّه على هذا الأمر ويقول دائماً عن كريستين وهو يتحدث معه «خطيبتك»، وكان ألن يبتسم ويعلّق على هذه الكلمة بقوله: هل تعتقد ذلك؟ وهو يربت كتف أبيه.

ـ المشكلة يا طوم أنك لا تريد الاعتراف أنك تقدمت في العمر، إضافة إلى ما أنفقته هدراً ويكفي لشراء حي بكامله، وحياتك الآن على الديون وسمعتك السابقة. قالت كات لطوم ستيوارت وهي تجلس معه ومع آنيتا في الفناء الخارجي ذات مساء.

تقدّم طوم ستيوارت في العمر وبلغ السبعين وكانت موجة

مجده قد انحسرت تماماً بعد بلوغه الخمسين، لكن مشكلته كانت أنه لم يزل يعيش وكأنه أحد نجوم الشاشة الأوائل، ولم يزل بعض الجيوش الذي رافقه في أيامه الخوالي محيطاً به ويجعله يشعر بأهميته نفسها التي يعتقد أنها لم تزل موجودة فاعلة في الأوساط الفنية، وهي كانت كذلك لكن من حيث خبرته وماضيه كأحد الوجوه الكلاسيكية للسينما الأميركية. كذلك لم يزل ستيوارت محتفظاً برونقه، لدرجة أن أحداً من البعيدين عنه لا يمكن أن يقدِّر عمره بأكثر من خمس وخمسين سنة، بسبب عملية شدّ وجه ينكرها هو تماماً، وكثافة شعر طبيعية لا يلومه أحد على الصبغة التي يستعملها لطرد اللون الرمادي عنها، وقوام رشيق لأن الرجل يمارس الرياضة منذ إصابته بأوجاع قلبية بسبب كثرة العمل وهو في أربعينيات عمره، ويؤمن إيماناً راسخاً بأنها سبب ضخ الدم المنتظم لقلبه، ويمكن أن يموت لو توقف عنها.

أما رفيقة ذلك المشوار فقد أضيف إلى أعبائها الجديدة منذ دخول ستيوارت في دوامة الديون، إدارة أرصدة الاعتمادات التي يسحب منها للإنفاق، والتسديد من إيراداته القليلة حتى لا تعتبره البنوك متعثراً، وتحجر على ممتلكاته وهي آخر خط دفاع يملكه من الثروة التي أهدرها في شبابه ورجولته. لم تتغيّر آنيتا طوال مشوار السنوات مع ستيوارت، ولم تزل تذكِّره ببعض المواعيد الخاصة، لأن الرجل كان محبّاً للظهور بين الفتيات الصغيرات اللواتي لا يجدن غضاضة

في الجلوس إلى أحد مفاتيح السينما الأميركية، الذي يمكنه أن يطلب بثقة من صحافيي الصفحات الاجتماعية كتابة خبر عنهن، يزيد قدرهن في مجتمعاتهن.

ورغم براعة آنيتا في إدارة أرصدة الاعتماد والتسديد، أخذ بعض الدائنين المباشرين في تهديد ستيوارت بالحجز على فيلته في «بريتنوود» التي اشتراها في خمسينيات القرن العشرين، بعد أن لعب عدة أدوار في شركات الإنتاج السينمائية في كاليفورنيا، وكان لا بدّ له من الحضور في مجتمعات بيفرلي هيلز وبريتنوود وغيرهما. وكاد أمر التهديد بالحجز أن يفقده صوابه، وجعله ينعت دائنيه بالجحود والسفالة والخسة، لأنهم ربحوا من ورائه أكثر من الأموال نفسها التي يهدِّدونه بها أخيراً.

ـ إذاً يجب أن تجد حلاً. قالت له كات.

ـ أنا في انتظار فرصة مواتية.

ـ طوم.. طوم. لقد انتهى ذلك الأمر ولن يعود.

ـ أنا في انتظار دور لا يستطيع سواي أن يلعبه.

ـ هذه صدفة قد لا تأتي، لماذا ترفض الإعلانات التجارية المعروضة عليك؟

ـ وهل بعد كل هذا التاريخ...

ـ الرئيس كارتر نفسه ظهر في برنامج للطبخ في بداية حملته الانتخابية. قاطعته كات.

ـ لأنه وقتئذ لم يكن صاحب تاريخ أو معروفاً على مستوى أميركا.

ـ ما هو الحل برأيك يا آنيتا؟

ـ يوجد حلان يرفضهما طوم. قالت آنيتا.

ـ وما هما؟

ـ تأجير فيلا بريتنوود، والعمل كمستشار فني لأمير عربي عرض عليه أن يقيم في مونتي كارلو ويدير مكتبه هناك. الأمير يهتمّ بشؤون الفن والغناء.

ـ هل هذان العرضان موجودان فعلاً؟

ـ نعم. قالت آنيتا.

ـ طوم ستيوارت. أتمنّى فعلاً ألّا أسبّك وأصفك بالمجنون.

ـ هل أؤجر الفيلا وفيها مقتنياتي الثمينة لأناس لا أعرفهم.

ـ ضع ما تخاف عليه عندي.

ـ وهل تسبح امرأة بشعة في بركة السباحة الخاصة بعد أن لمس حوافها ومياهها النور المشعّ من إلّهات الجمال؟

ـ إذاً دع صقور المال يسبحون في هذه البركة العاهرة تحت ضوء القمر. وماذا عن ذلك الأمير يا طوم؟

ـ إنني أفكّر في الموضوع؟

ـ تفكّر؟ هل ما زلت تفكّر يا طوم ستيوارت؟

ـ أعرف ما ستقولينه تماماً يا كات وأقبل به، وأقطع عهداً

أمامك أن تنفِّذ آنيتا كل ما تتفوّهين به. لقد تعذّبت كثيراً ولا أريد سماع لسانك وهو يسوطني.

أدمن طوم ستيوارت شيئاً واحداً في حياته هو سماع كل الأمور من خلال آنيتا سبرنغر التي كانت تعرف كيف تقولها لها، فقد كانت تهمس الخبر له حتى لو كان مزعجاً بطريقة يحبها ولا تؤلمه، لأن طوم ظل طفلاً لا يفهم خطورة العواقب حتى بالنسبة لأسوأ الظروف المحيطة به. كانت آنيتا تمتصّ كل ذلك ولا تقول له سوى ما يجعله يصدِّق أن الغد سيحلّ المشكلة بطريقة ما. كما كانت في الأيام السابقة تقول له إن فلانة تنتظر اتصالاً هاتفياً منك على أحرّ من الجمر، ولا تقول ما قالته المرأة نفسها عن تأخره بالسؤال عنها رغم أنها فعلت كيت وكيت من أجله. ولم يستطع سوى جون نفسه أن يفسِّر العلاقة الملتبسة بين ستيوارت وآنيتا منذ أربعين سنة تقريباً، لأن كلاً منهما ظل ينتظر الآخر أن يأتيه في فراشه ذات ليلة ويقول له بطريقة شهوانية إنه يحترق شوقاً في انتظاره، رغم علاقة العمل المنتظمة للغاية بينهما.

حضرت دينيس ووينديي وعائلتاهما حفل زواج ألن في «كاسا تيت» بعد أن تمّت مراسمه القانونية في مكتب أبيها، الذي لم يحفل كثيراً بعدم اهتمام العروسين بإقامة مراسم كنسية لزواجهما ووجده أمراً «مودرن»، ومن المرجح أن تكون خلفية أساليب عمله هي التي كوّنت هذا الرأي البارد عنده، إضافة إلى معاصرته لأمور إنسانية دنيئة يحاول الناس

إخفاءها أو تجميلها، لكنها تظهر بوضوح في المحاكم ومضابط التحقيقات وأثناء دعاوى الإرث والطلاق ذات الحيثيات المخجلة أحياناً.

لاحظت كات أن هذا الحفل قد حضره محبوها الأوفياء الذين لبّوا دعوتها وبعض روّاد «الكاسا» الذين جاء بعضهم من خارج الولايات المتحدة، ومنهم محارب هاواي وصحافيان من السويد وصديقة من كندا وابنة كاسندرا التي تربطها بكات علاقة مودة، وجاءت كما قالت لتمثِّل روح أمها التي توفيت وهي ممتنة لها. وكان طبيعياً أن يحضر طوم ستيوارت وآنيتا من مونتي كارلو، ولا يكتفيان بإرسال فاكس تهنئة. وكان أسعد الحاضرين جون وكات اللذان شعرا بوطأة مرور العمر عليهما في هذه المناسبة، والأعمال التي أدّياها معاً طوال هذه السنوات، كما تذكّرا ناتالي التي توفّيت منذ بضع سنوات ودفناها وكأنهما أهلها، لأنها كانت جزءاً من حياتهما، وشكّلت صورة للإخلاص في ذاكرتيهما. ورغم وجود الحفل في الهواء الطلق طلبت كات من كارمن دراغون أن تعزف على آلة «الهارب»، التي أحضرها الغرسونات الذين طلبتهم كات لمساعدتها، وعزفت كارمن وغنّت هي كرمز يمثِّل تاريخ ماليبو منذ الخمسينيات، في ذاكرة الحاضرين الذين طلبوا من جون أن يشاركها في أغنيتها الثانية.

ـ من يصدِّق أننا نعمل منذ عقود بدون إجازة؟ قالت كات لجون وهما جالسان في الطابق الأول بعد ذهاب الجميع.

ـ حتى رحلات سفرك تعتبر عملاً. قال لها.

ـ عمل متواصل أحياناً، لأنني أرتاح هنا بين الصباح والمساء.

ـ وما هو الحل؟

ـ نسافر إلى هاواي لمدة ثلاثة أيام في جولة للاستجمام.

ـ ونغلق «الكاسا»؟

ـ ألم تشتق حتى إلى رحلة إلى فيغاس؟ لقد تغيّرت كثيراً عما كانت عليه أيام شهر عسلنا.

ـ سنوقف الحجز لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع بعد القادم ونذهب إلى هاواي، وسيكون المحارب مرشدنا. قال جون.

عاد جون وكات من هاواي وهما أكثر إشراقاً وحيوية، واستقبلهما سيل من الرسائل الصوتية المسجلة على مجيب هاتفهما، يتمنّى لهما أصحابها رحلة سعيدة رداً على الرسالة الصوتية التي تركها جون قبل سفرهما، وفسّر فيها سبب غيابهما. كما تضمّنت هذه الرسائل أمراً جعل كات سعيدة فعلاً، لأن لاري تانر طلبها لعمل إعلان تجاري للتلفزيون. وعندما التقيا في ماليبو شرح لها التعديل الذي أحدثه بنفسه على «حكاية إعلان» ليجعلها هي التي تلعبه. فقد كانت الفكرة الأساسية تدور حول امرأة خمسينية تستعمل نوعاً معيناً من كريمات البشرة المرطبة، تستخدمه ابنتها في الوقت نفسه ما يوحي بفكرة تواصل الأجيال في استعمال هذا المنتج المفيد للوجه والرقبة. وكان تعديله هو ظهور امرأة بعينها

كانت تستخدمه في عشرينيات عمرها، وما زالت تستعمله في ستينياته.

ـ وكيف ستحصل على لقطات لي وأنا صغيرة؟

ـ ما زلت أحتفظ بكل الأمور الارتجالية التي لم تعرض من لقطات صناعة فيلم «أغنية الفصول»، والباقي عمل تقني.

ـ وكيف حصلت عليها؟

ـ من المخرج وقتئذ، ولم يمانع.

ـ آه أيها الصديق الوفي.

ـ علّمتني الدناءة المتواصلة التي يعاملني معظم الناس بها أن أكون وفياً لمن يستحق، وإلّا أصبحت نذلاً أمام نفسي.

ـ ربما كانت المرارة من سمات التعامل في الحياة.

ـ كيف كانت رحلة هاواي؟

ـ شعرنا أننا توفينا وذهبنا إلى الفردوس.

ـ أوه.. تشبيه رهيب فعلاً. سأستخدمه في إعلان تجاري، وسأدفع لك ثمن الفكرة.

لم تصدِّق كارمن دراغون وهي تسمع ذات يوم من كات موضوع الإعلان التجاري، وسعدت للغاية بالخبر وتمنّت أن يكون بداية عودة جديدة لها في عالم الفن الذي قد يستعيد أحد منه ذكرى أفلامها ويعطيها دوراً يناسب عمرها، وكان رد كات غير متوقّع لكارمن التي تعمل سكرتيرة تنفيذية في شركة إنتاج تلفزيوني، وتعلم تماماً مدى انتظار الكواكب القدامى لهكذا فرصة. كانت كات في الواقع مبتهجة من

الثواني القليلة التي ستظهر فيها، ولم تكن تطمح إلى مزيد لأنها كانت مكتفية بحياتها، وتشعر أن ما تفعله له قيمة، وهذا الاقتناع جاء بعد مخاض عسير كما أسرّت لها.

ـ اعتقدت في البداية أن «الكاسا» أفضل مخرج اقتصادي لنا بعد الكوارث التي حدثت. شرحت كات لكارمن.

ـ وبعد ذلك؟

ـ كنت أعمل هنا وأذني تنتظر سماع هاتف يخبرني بدور سينمائي.

ـ ألم تحبي عملك في البداية؟

ـ لا. كنت أشعر أنني موظفة استقبال في فندق.

ـ وكيف تغيّر إحساسك؟

ـ أدركت في لحظة ما أننا نقدِّم خدمة وننشر ثقافة معينة ونساهم في إعمار المنطقة. كان ما نفعله قيمة تتخطّى وظيفة وأجراً.

ـ كان دوركما مهمّاً فعلاً. لا تنسي أننا هنا قبلكم.

ـ وساعدني نشر هذه الخدمة في العالم على عشقها والاكتفاء بها.

ـ سمعت مرة أحدهم يقول: خلف العناوين الكبرى في الصحف يوجد جنود مجهولون.

ـ والقلة النادرة من الناس تكون في الواجهة بينما الملايين في الظل.

ـ لكنك عشت تحت الأضواء.

ـ وهذه الوظيفة جعلتني أعيش ككواكب السينما لكن بعيداً عن الشاشة وتقلباتها المفزعة.

ـ وبدون خوف من انحسار موجة صعودك.

ـ هذا صحيح يا كارمن. لكنني كالمدمن السابق الذي يشتاق في لحظة مجنونة إلى استنشاق شمّة أو جرعة مما كان يتعاطاه.

كان بعض رواد «كاسا كارسون» خصوصاً السيدات، من هواة رؤية ألبومات الصور التي تحتفظ بها كات كتذكارات لزياراتها لأماكن كثيرة في العالم. وكانت تبتهج وهي تريهن بعضاً من تلك الصور وتشرح لهنَّ ماذا كانت تفعل أثناء اللقطة، أو تفسِّر لهنَّ ما في خلفية الصورة، لو كانت في مكان ذي أهمية معينة. وكانت تذهب إلى غرفتها أحياناً لتجلب شيئاً لهنَّ اشترته من هذا السوق أو ذاك في اللحظات التي التقطت فيها الصورة الفوتوغرافية، وتشير لهنَّ إلى تذكار خشبي أو نحاسي أو زجاجي وتقول لهنَّ من أين اشترته وماذا يعني إذا كان يمثِّل شيئاً لثقافة بلد زارته.

ـ لقد استمتعت كثيراً يا كات.

ـ هذا جزء مما شاهدته وأضفته إلى خبرتي.

ـ وكيف استطعت الجمع بين عملك هنا وأسفارك؟

ـ كانت تساعدنا امرأة نادرة فعلاً، لا بدّ أنكم تعرفونها.

ـ ناتالي؟

ـ كنت أعتمد عليها تماماً. ولا يمكنني نسيان جون أيضاً.

ـ لقد كنت محظوظة فعلاً يا كات.

اكتفت كات من رحلات عملها للخارج بزيارات لبعض الناس الذين تخجل من رفض طلب لهم، ويحتاجون لمساعدة مهنية لهم أو لأصدقاء مقرّبين، إضافة إلى سفر لبلد لم تزره من قبل لأنها لم تكن تقدر على تجاهل مثل هذا الإغراء، فلم تكن المرأة التي تساعدهما على مستوى ناتالي نفسه سوى في الأمانة، إضافة إلى تقدّمها مع جون في العمر، الأمر الذي لم يسمح بتركه شهرياً تقريباً كما كانت في السابق. كانت كات تذهب ليس بحثاً عن المال كما كان الأمر من قبل، لكن من أجل متعة إضافة لمسة أو فكرة أو وضع هيكلية عمل لخدمة «سرير وإفطار» جديدة ستنطلق في مكان ما، وهي سعيدة للغاية لانتشار هذا النوع الذي يساعد على نشر السياحة الداخلية بمصروف قليل، ويساعد هواة السياحة الخارجية على الذهاب إلى أماكن لا ترهق ميزانياتهم.

تعلّمت كات من خبرتها في ماليبو أن مذاق المكان والأسلوب الأميركي السهل في التعامل مع الرواد، هما من أسباب نجاح «كاسا كارسون»، فلم يكن جون أو هي يستقبلان الزبائن بملابس رسمية، أو يقدّمان صحوناً لا تمتّ للبيئة بصلة. كان القادم يأتي كضيف أو صديق ويتصرّف على هذا الأساس وهما أيضاً. ونقلت كات هذه الخبرة إلى الأماكن التي سافرت إليها، وكانت تصرّ على أن يقدِّم الناس ثقافتهم، كل في بلده، سواء الصين أو اليونان أو أستراليا من

خلال خدمة «إفطار وسرير» لزبائنهم. وقد اقتنع أصحاب هذه الخدمة وأصبحوا ممتنّين لها، كما اقتنعوا بعدم توسيع المكان في حال نجاحه، إنما شراء مكان آخر وبناء «سرير وإفطار» ثانٍ عليه. وكانت وجهة نظر آل كارسون أن المكان الكبير يفرض الزي الرسمي وربطة العنق وموظفي حجز واستقبال، الأمر الذي يهدم الفكرة الأساسية ويقيم مكانها موتيلاً.

ـ لقد توفي جون.

بهذه العبارة المقتضبة أجرت كات اتصالاتها بابنتيها وابنها، وأخبرتهم بوفاة والدهم ليحضروا إلى المنزل الذي أصرّ بعض روّاده في ذلك الصباح على البقاء حتى اليوم التالي، لمشاركتها في حزنها وإلقاء نظرة أخيرة على صديق عزيز كانوا يأتون لزيارته، وليس رب عمل لا علاقة إنسانية معه. كما أخبرت أصدقاءها بالعبارة نفسها النبأ الذي لم تكن تتوقّعه وتصدّقه وهي تقوله، لأن جون كان بصحة جيدة بشكل عام، لكن الموت أحياناً لا يحتاج للمرض ليوقف أعمال الناس، ويجعلهم يختفون عن الأنظار ويتحوّلون إلى ذكرى.

انشغلت كات بالأمور التي يفعلها الناس عادة في مثل هذه المواقف، مثلما كانت تنهمك في عملها كل صباح، لكن جون لم يفارق عقلها ولو لجزء من الثانية. كانت تجيب على الهاتف وتستقبل المعزّين وهو شاغل كيانها. استعادت كل الأمور بدقة غريبة منذ أن رأته تلميذ طيران بشعر قصير للغاية، حتى وقت متأخر من ليلة التاسع عشر من أيلول/

سبتمبر 1989، حين ذهب لينام كعادته بعد تأكده من سير كل شيء على ما يرام ولم يشكُ من أية أوجاع.

سألته مرة لماذا يضع زجاجة النبيذ التي يشربها في الفناء، وأجابها حتى تلمسها قوى الكون وتصبح أطيب وغير مؤذية، وعندما لم تفهم ما يقصده، شبّه لها الأمر بمن يجلسون تحت الشمس ليكتسبوا اللون البرونزي، وهكذا تلمس أشعة الكون ليلاً خمره وتجعله أرقى وأجمل. أما تفسيرها الخاص لما كان يفعله فهو تأثره الشديد بالفترة التي قضاها عاملاً في الجو، وعدم قدرته إطلاقاً عن نسيان تلك الزُرقة وحريتها التي سحرته وأسرته، إضافة إلى مطالعاته والآراء الخاصة غير المتداولة التي كان يتكلم عنها مع إدوار ومحارب هاواي كلما جاءا إلى زيارتهم.

لم تستطع كات أن تتناسى صور ذاكرتها عن جون بعد إصابته، والحالة النفسية التعيسة التي وقع فيها، وكيف انزوى بعد ذلك في «كاسا كارسون» واستطاع أن يكوّن أسرة ويربّي أولاده من فكرة بسيطة، كادت تطيح بتوازن عقله عندما لم تنجح بشكل طبيعي في بدايتها. وكان حضور دينيس كفيلاً بإثارة الجزء الأكثر اضطراباً وإثارة في حياتها، رغم مرور سنوات بعيدة على حدوثه، والسر الكبير الذي تحوّل إلى واقع في حياة هذه الأسرة التي لم يشعر أحد أفرادها وناتالي، أو غيرهم أن هذه الفتاة تنتمي جينياً إلى مصدر آخر. ولاحظت كات أن دينيس كانت أكثر أبنائها اضطراباً

وجزعاً لوفاة والدهم، ولم تبرح الغرفة المسجّى فيها، وبدت أنها لا تسمع أو ترى سواه.

ـ لقد جعلت حياتنا ونحن صغار سلسلة لا تنقطع من الدهشة والضحك والمرح، ولا أذكر مطلقاً أنك غضبت على أحدنا ولو لمرة واحدة. غضبت علينا الظروف والطبيعة وخانك الحظ، ولم تغضب أنت ولم تخن أحداً. هيّأتنا ونحن شباب لنتعامل مع الالتباس وهو سُنّة التعامل بين البشر بانفتاح ومبادرة ونخوة ومحبة. كنت رجلاً صاحب نخوة حقاً. علّمتنا أن نؤدّي أي شيء بشكل كامل ولا ننتظر كلمة شكر. لو كان من الأخلاق زرع شتلة ورد في رمادك لفعلت ذلك، لأنك شخصياً يجب أن تُدفن تحت مليون زهرة. همست دينيس في قلبها لوالدها وهي تبكي بصوت غير مسموع.

من الذكريات التي لم تبرح مخيلة دينيس صورة والدها وهو ينظّف ويلمّع أحذيتها وأحذية أفراد الأسرة، كرجل عسكري قديم لم يستطع تجاهل هذه العادة التي مارسها وهو تلميذ في كلية الطيران، واستمرّت معه حتى آخر العمر رغم أنه كان يمارسها بعد إصابته البالغة ببطء شديد. ولم تدرِ لماذا أحسّت وهي جالسة بجواره وهو مسجّى في تابوته، أنها تعيد اقتفاء خطواته معهم واكتشافه مرة أخرى، وكأن الموت أضفى عليه رونقاً آخر كان مختفياً طوال حياته، رغم أن الموت حدث غليظ مؤلم لا رومانسية فيه.

ـ كيف مرّ واحد وأربعون عاماً منذ رحلة لاس فيغاس حتى هذه اللحظة؟

سؤال ردّدته كات كثيراً في ما بينها وبين نفسها، وهي تستمع إلى المحيطين بها بعد ظهر ذلك اليوم، وهم يتحدثون عن أجمل لحظاتهم التي جمعتهم بآل كارسون، وعن جون الذي لم يكرهه أحد. لقد مرّت السنوات كأنها فترة زمنية واحدة، تخلّلتها بعض الأحداث المهمة التي قسّمتها تقسيماً شعورياً يختلف عن الرزنامة العادية.

ـ لقد رحل الذي يحب وتركني وحيدة بعد كل هذه السنوات.

هكذا استقبلت كات لاري تانر وهو يعانقها ويقبّل خديها ويعزِّيها، وبدا متأثراً للغاية ولم يستطع أن يمنع دموعه، وهو يؤكد بكلماته على صحة عبارتها تماماً وأنها ليست وحيدة في حزنها، ثم يجلس بجوارها بعد أن انتقلت كارمن دراغون إلى كرسي آخر بجوار ويندي صديقتها، ويسألها عن الكيفية التي توفّي بها، وما إذا كانت أخبرت محارب هاواي الذي يكنّ لجون محبة نادرة، وأجابته بأنه سيحضر صباح الغد.

رغم ساعات السفر المرهقة ووصول المحارب بثيابه العسكرية في الدقائق الأخيرة لجون في «الكاسا»، فقد أصرّ أن يصلِّي عليه بطريقته بعد صلاة الكاهن، ولم تستطع كات رفض طلبه، ورفع يديه أمام الجثمان وبدأ يصلِّي بلغته الوطنية، بطريقة مهيبة تكاد تقترب من أصوات الغابة الهامسة

المبهمة، وكان المحارب مغلق العينين طوال صلاته التي أرفقها بالدوران حول جون بعود بخور، والوقوف خلف رأسه في نهاية الصلاة، وهو عاقد اليدين منحني الرقبة وعود البخور بين أصابعه. ورغم أن عيني المحارب كانتا مغلقتين إلّا أن الدموع كانت تنساب منهما، والكلمات تخرج من شفتين مرتجفتين طوال الصلاة، وملامح وجهه تسبح في تسليم وحزن عميقين.

ـ «جون..

انهض فلن تفنى

لقد نوديت باسمك.

لقد بُعثت».

همست كات وهي تقف بجوار زوجها ويدها على قلبه، بينما كانت دينيس تقبّله للمرة الأخيرة وهو في تابوته وهي تنوح عليه، وكان جون قد طلب من زوجته إذا مات قبلها أن تقول هذه الجملة، وعندما سألته عن مصدرها أجابها بأنها من «كتاب الموتى» الفرعوني الذي قرأه وأعجب به كثيراً. ثم ذُهب بالجثمان بعد ذلك إلى المحرقة، ونثروا رماده فوق رمال ماليبو في جهة لم تودّ كات معرفتها، لكنها طلبت تنفيذ ما طلبه منها زوجها.

طلبت كات من ابنها ألن بإلحاح أن ينتقل مع زوجته الحامل إلى مسكنها لأنها ستغلق «كاسا كارسون»، على الأقل في الفترة الأولى بعد رحيل والده حتى تتعوّد المنزل

الخالي، الذي لم ينقطع الناس عنه منذ وجوده. ووافق ألن ووعدها بأنهما سيمكثان معها حتى تلد زوجته. وبدون وجودهما كان من الممكن أن تصاب هي بمرض عصبي يؤذيها، لأن ردّة فعلها على ما حدث لم تكن الحزن الذي اعتصرها فقط، بقدر ما كانت عدم تصديق رحيل جون عن المنزل. الأمر الذي لم تستوعبه على الإطلاق.

طالما تمشّت كات على الشاطىء وراقبت الطائرات التي تهبط وتغادر مطار لوس أنجلس الدولي كما كان يفعل جون، وتعجّبت من الفكرة التي راودته وجعلته يغمس كسرة خبز في الفودكا ويعطيها للنورس، ويكرِّر ما فعله حتى بات الطائر ليلته منتشياً في «الكاسا». ولم تدرِ لماذا وضعت زجاجة مارتيني في المكان نفسه الذي تعوّد أن يضع فيه خمره، ورأت أن المشروب أطيب فعلاً بعد أن لمسته القوى الكونية، وسألت نفسها لماذا لم تجرِّب ولو مرة واحدة هذه الخبرة معه، بدلاً من تذكيره أحياناً بأن الخمر على وشك أن تغلي خارجاً تحت أشعة الشمس. هل لأنها كانت تفضل كأس مارتيني؟ جواب لم يبدُ مقنعاً لها بعد كل هذه السنوات على شاطىء الكربون. تماماً كعدم اقتناعها أن جون أصبح من مكوّنات رمال الشاطىء الذي أحبه، وكثيراً ما لعبا الكرة الطائرة فوق حُبيباته.

كان لا بدّ أن يعيد إدوارد عليها درس التأقلم، الذي ذكّر به جون نفسه بعد حادث الباص الرهيب، حتى تخفّ حدّة

توتر كات وضيقها الكبير، وطلب منها أن تنسجم مع الواقع ليتحوّل الأمر إلى قناعة لا تزعجها وإن أحزنتها. فلا بأس من حزنها لو تخطّت أمر عدم التصديق. وساعدها وجود ابنهما وزوجته على ذلك، إضافة إلى تخفيفهما من وحشة المنزل الواسع لو كانت فيه بمفردها، والطابق العلوي الذي لم تطأه منذ أن غادر جون المنزل للمرة الأخيرة، لأن رهبة مخيفة لقلبها كانت تمنعها من الصعود، إضافة إلى التلفونات التي لم تنقطع لأن طالبيها لم يعرفوا خبر رحيل جون، وتأسفهم على النبأ المباغت وإغلاقها «كاسا كارسون». لكن كات كانت مقتنعة وجدانياً وعملياً أن المشروع فكرة جون، وهي لن تستطيع أن تنهض بأعبائه وحدها أو مع مساعدة ومدبرة منزل، فقد كانت تشعر أنه كان ميزان هذا العمل، وتيقّنت بعده أن جميع الأمور فقدت توازنها، وأنها على أقل تقدير يجب أن تعيش كما هي مطمئنة إلى قدرتها المالية، وأنها ليست بحاجة لأي إنسان.

ـ ما معنى أن تعيشي بهدوء؟ سألها طوم ستيوارت أثناء زيارة له بعد شهور من إغلاق «كاسا كارسون».

ـ أفكّر بالعودة للرحلات التي كنت أقوم بها؟

ـ لكن هذه الرحلات ليست أسلوبك... أو أنت.

ـ لقد كبرت يا طوم.

ـ يجب أن تتخطّي مشكلتك الداخلية وليس موضوع التقدم في العمر. أنا أعرفك.

ـ قد يكون ما قلته صحيحاً.

ـ سبق ونصحتني وأنقذت حياتي من الإفلاس. إفلاس الروح أخطر.

ـ سأفكِّر. أعدك بذلك يا طوم.

ـ بلّغيني على الهاتف، لأن الأمير من هواة الأشياء الغريبة، وأعلم أن «الكاسا» ستسحره.

ـ وهل يمكن أن يسافر كل هذه المسافة من أجل «الكاسا»؟

ـ أنا أكفل ذلك. أعيدي فتحها يا كات.

ـ المهم. هل أنت راضٍ في عملك؟

ـ لقد أعادني إلى جزء من حياتي الماضية، رغم أنني أصبحت غير قادر على أداء كل ما كان فيها مثلما كنت سابقاً. قالها وهو يضحك.

ـ هل ما زلت تفكّر في هذه الأمور يا طوم؟

ـ ما أراه يجعلني أفكّر. يصيبني عري الحياة الحديثة بدوار أحياناً والتطور الطبي يساعد على علاجه.

ـ هل أجريت عملية شدّ لوجهك مرة ثانية؟

ـ مرة ثانية؟ مَن أخبرك أنني فعلتها مرة أولى؟

ـ أنا سعيدة لأنك تعيش حياتك. ما هي أخبار آنيتا؟

ـ أصبحت شخصية مهمة جداً.

ـ هل تتكلم جدّياً؟

ـ هل تعتقدين أن الخبرة التي اكتسبتها معي كانت بدون قيمة؟

ـ بالعكس.

ـ لقد سافرت كسكرتيرتي، وانتهت كمديرة فنية بحكم خبرتها والأرشيف الذاكري الرهيب الذي تحتفظ به.

ـ لا تنسَ أنني اعتبرتها أهم إنسان ممن كانوا يحيطون بك من زمان.

رأت كات في ما يرى النائم أنها تتمشّى على شاطىء الكربون، ولاحظت أنه عاد كسابق عهده في بداية خمسينيات القرن العشرين؛ شبه خالٍ من المنازل ولا إنسان غيرها فيه، ولفت نظرها أن الوقت نهار رغم عدم وجود شمس تنير المكان، أو أي مصدر ثانٍ للضوء. وفجأة سمعت صوت جون يناديها، ورأته آتياً نحوها وفرحت جداً برؤيته، لكنها تذكّرت أنه قد توفّي فاضطرب وجدانها للغاية، رغم تمنّيها من كل قلبها أن تراه ولو لعدة ثوانٍ بعد أن رحل.

ـ أعرف ما تفكّرين فيه. بادرها جون.

ـ لكن كيف جئت إلى هنا؟

ـ المهم ليس كيف، بل حضوري.

ـ اشتقت إليك كثيراً.

ـ أرجو أن لا تحزني. إن ذلك يضايقني.

ـ وهل تتضايقون هناك أيضاً؟

ـ أتضايق من أجلك.

ـ هل رأيت اللَّه يا جون؟ لقد كلّمتني عنه أحياناً في فناء «الكاسا».

ـ لم أره. لكن كل شيء هنا يؤكد وجوده.

ـ ما معنى «هنا» يا جون؟ هل أنا متُّ أيضاً؟

ـ لا... ليس بعد.

ـ قل لي يا جون كيف تأكدت من وجود اللَّه؟

ـ لا تسأليني هذا السؤال وإلّا رحلت.

ـ أجبني لكي لا أكرِّره.

ـ ما أريد أن أقوله هو ألّا تحزني، لأن ذلك يزعجني فعلاً.

ـ لماذا لا تجيب عن سؤالي؟

ـ اذهبي يا كات. اذهبي... لا أستطيع الإجابة عن سؤالك.

قامت كات من نومها وهي تبكي وكانت مندهشة مما رأته وسمعته، وأنارت ضوء الغرفة وهي تمسح دموعها من على عينيها وخدّيها وتتحسّس قميص نومها المبلّل بالعرق الغزير، ونهضت من سريرها لأنها لم تعد تستطيع العودة للنوم مرة أخرى، وصبّت كأس مارتيني وصعدت إلى الطابق العلوي لأول مرة منذ شهور، وهي ما زالت تبكي، وجذبت أحد الكراسي ووجَّهته نحو الحائط الزجاجي وراحت تراقب الشاطىء والمحيط وأضواء السيارات النادرة التي تسير على «بي. سي. آتش»، وهي تتذكّر جون وتفكّر في حلمها

العجيب، ولأول مرة لا تشعر بالرهبة التي تسيطر عليها ليلاً، وتجعلها تشعر بالانقباض دائماً، والألم أحياناً في ضلوع قفصها الصدري، منذ اللحظة التي وجدت فيها جون متوفياً أثناء نومه، أو بالخوف والوحشة من كونها وحيدة في «كاسا كارسون»، وفي الطابق العلوي ليلاً بوجه خاص.

لم تجد كات أفضل من محارب هاواي لتستفسره عن حلمها، لأنه الرجل الوحيد الأقرب للطبيعة الذي رأته في حياتها، وفعل أموراً قد تبدو مضحكة أحياناً، لكنها كانت تحبّه وتحترم الحياة البسيطة التي يعيشها، واعتماده على حواسه الخمس التي كان يقول إن الإنسان في العصر الحديث قد فقد جزءاً كبيراً من فعاليتها، وهو على يقين حتى من فقدانه قدرة الرؤية العادية التي كان يتمتّع بها أسلافنا.

ـ هل أنت متأكدة أن الوقت لم يكن فجراً؟ سألها وهي تتحدث معه هاتفياً.

ـ نعم.

ـ وما الذي يجعلك متأكدة بهذه الطريقة الحاسمة؟

ـ لأن الإضاءة كانت أقوى بكثير من إضاءة فجر.

ـ هل تتذكّرين ماذا كان يرتدي جون؟

ـ قميصاً وبنطلوناً لم أرهما من قبل. وكان يضع حمّالة للبنطلون، وهذا أمر كان يفعله أحياناً وهو ما زال على قيد الحياة.

ـ هل كان حافياً؟

ـ نعم. قالت بعد لحظات.

ـ وهل كانت يده اليمنى تعمل بصورة طبيعية؟

ـ يده اليمنى؟! نعم كانت تعمل بشكل عادي. قالت بعد تفكير.

ـ لا تبكي يا سيدة كاترينا، لأنني بحاجة لسؤال آخر.

ـ وما هو؟

ـ هل أنت مرتاحة نفسياً منذ تلك الليلة؟

ـ ولم أعد أفزع بسبب وجودي وحيدة ليلاً، وصعدت إلى الطابق العلوي لأول مرة منذ وفاته بدون هاجس يخيفني.

ـ ما رأيته كان رؤيا وليس حلماً يا سيدة كاترينا.

ـ وما الفرق؟

ـ الرؤيا أمر حقيقي والحلم صور وهمية.

ـ هل يعني ذلك أنني رأيت جون نفسه؟

ـ بكل تأكيد.

ـ كيف؟

ـ لا أعلم الكيفية، لكن ما أعرفه أنك شاهدت جون في رؤيا.

ـ هل يمكن أن تتكرّر؟

ـ مستحيل، لأنها قد لا تحدث أبداً لأي إنسان.

ـ أشكرك من صميم قلبي أيها المحارب. متى سأراك في ماليبو؟

ـ أعدك بزيارة مع ابنتي، لأنها تودّ أن ترى لوس أنجلس.

ـ اعتبر أنك من أهل البيت. تعالا وناما عندي.

ـ اتفقنا، انتبهي إلى نفسك.

تمنّت كات أن تعيد افتتاح «كاسا كارسون» لكن العمل والأعباء التي تعرفها تماماً لم تعد تقوى عليها وحدها، إضافة إلى زواج أولادها وبُعد ابنتيها عنها في مكانين مختلفين، وعدم اهتمام أي منهم بمشروع «سرير وإفطار» حتى على صعيد تجاري بحت، كل ذلك كان يقلّل من حماستها لفكرتها. وسألت كات كارمن دراغون عن رأيها في المشكلة التي تواجهها وتعرقل تنفيذ إعادة «كاسا كارسون» للحياة مرة أخرى، وكان رأي كارمن أن تطلب مدبرة منزل ومساعدة في إعلان مبوّب، وتقابل من يتقدّم وخبرتها سوف تدلّها على أصلحهن لمساعدتها. ورأت كات أن الفكرة سديدة، وأحبت أن تستشير محارب هاواي أيضاً، فوجدت تشجيعاً منه على إعادة فتح «الكاسا»، وطلب منها استشارة عشرة من روّادها هاتفياً، والبدء بالعمل فوراً إذا وافق سبعة منهم.

ـ أنا متخوّفة فعلاً من فكرة عمل مساعدين لا أعرفهما معي أيها المحارب.

ـ أعلم أن الأمر صعب لحساسية المكان وطبيعة العمل.

ـ ماذا أفعل؟

ـ هل لديك أصدقاء يمكنهم المساعدة؟

ـ لديَّ أصدقاء لكن لا يمكنهم المساعدة.

ـ عندي عرض أخجل من قوله لك.

ـ وما هو؟

ـ أنا من عشاق المكان كما تعلمين ويمكنني المساعدة.

ـ هل تتكلم جدّياً؟

ـ أكيد.

ـ متى تستطيع الحضور؟

ـ بعد شهرين لأتدبّر بعض الأمور هنا قبل السفر.

ـ فكرة جيدة فعلاً.

ـ لكل منا. وأنا متقاعد عن العمل كما تعلمين.

ـ يبقى البحث عمن ستساعدنا.

ـ الأمر أصبح سهلاً. يمكننا الاهتمام بها وتعليمها أصول الخدمة.

ـ اتفقنا أيها المحارب. سأقدِّم أسبوعاً مجاناً لابنتك وزوجها. هل ما زالت تريد رؤية لوس أنجلس؟

ـ نعم.

ـ بلِّغها دعوتي. على الرحب والسعة في أي وقت.

ـ لم تعتقد كات أنها ستعيد افتتاح «كاسا كارسون» بعد وفاة جون مطلقاً، وما فكّرت فيه هو تأجير الطابق العلوي ليس من أجل المال لكن بسبب الوحدة المملّة والهدوء المقبض ليلاً، بعد أن رفض ابنها العيش معها لبُعد المكان عن عمله وعمل زوجته، التي تعتبر ماليبو مكاناً للاصطياف ولا للعيش فيه.

الفصل الثامن

عاصرت كات منذ أن كانت فتاة عشرينية العقار الرملي المعروف باسم شاطىء الكربون، وزارته كثيراً مع تلميذ كلية الطيران الحربي آنذاك جون كارسون، ولم يكن في خلدها أنها ستشاهد ميلاد الشاطىء سكنياً وتكون مع جون نفسه من أوائل روّاد هذه الولادة. لم تكن تقدّر مطلقاً أنها على بقعة ما منه، وطوال سنوات ناهزت عمر جيل، ستقدم مع زوجها لنزلاء مشروعهما المبتكر إحساس أيام الشاطىء الخوالي، وكأس ضيافة من المارتيني لهواة ركوب أمواج المحيط، وستنتشر هذه الخدمة في قارات العالم، لكن بطريقة تناسب كل بلد وأصناف مطبخه ومشروباته المفضلة.

قاومت «كاسا تيت» المبنية من الخشب، كمعظم بيوت ولاية كاليفورنيا، عواصف كثيرة طوال عمرها، بلغ بعضها من القوة درجة إزالة فنائها الخارجي، المعدّ للعشاء والحفلات في أيام الصيف، عدة مرات بكامله وابتلع المحيط كراسيه وطاولاته وأدوات الشّواء وأغراضاً أخرى. كما نجت من حريقين كاد أحدهما أن يزيل «الكاسا» تماماً ذات صباح، ودفع كات التي صودف وجودها وحدها إلى الخارج، وهي

تحمل سلّة غسيل مملوءة بالصور والإيصالات وأوراق مهمة، بينما وقفت والدة كارمن دراغون وهي ترشّ شعرها بالماء من خرطوم لتمنعه من الاشتعال بشكل كلّي. ومكثت كات أربعة أيام في المستشفى بسبب التهابات الحريق الجلدية التي حدثت لها.

ـ عليك أن تتذكّر أن أحداً لم يكن يملك 25 ألف دولار يوم أن اشترينا العقار. كانت دائماً تقول لمحدِّثها لو سألها عن ثمنه بدون البناء.

وعندما سألت زوجها بعد خروجهما من مكتب السمسار العقاري، بعدما وقّعا عقد الشراء وأخذ السمسار الشيك المصرفي منهما، بطريقة الذي يقرص نفسه لكي يتأكد أن ما يراه ليس حلماً، عن سبب دفع مثل هذا المبلغ لهذه الملكية في تلك المنطقة المعزولة.

ـ لأنه قد يجعلنا مستثمرين مهمين في المستقبل. أجابها جون.

ـ لكنه كل ما نملك.

ـ لم نقامر به، لقد وضعناه في شيء مفيد.

ـ كان يمكننا شراء مجمع سكني في بريتنوود بالمبلغ نفسه.

ـ مجمع يتكوّن من خمس عشرة شقة.

ـ ونجمع إيراداً محترماً كل آخر شهر.

ـ هل تشعرين بالندم الآن؟

ـ مطلقاً. إننا نتحدث فقط.

صدق حدس جون لأن العقار أصبح يساوي خمسة ملايين دولار في أواخر الألفية الميلادية الثانية. وبعد مرور ما يقارب نصف قرن من الطراز الماليبي الذي ساهما في إضفائه على المنطقة، شاهدت كات احتضار طراز ذلك البناء المتميّز، ويقينها يزداد يومياً بميلاد عصر جديد تساهم فقط في مشاهدته ولا تنتمي إليه، فسكان الحي لم يعودوا كما كانوا في السابق، ولا أجواء الشاطىء نفسها، أو حتى قيمة العملة الأميركية التي أضحت مقياس العملات في الكوكب. لم يبقَ شيء كما هو منذ أن افتتحت «كاسا كارسون»، سوى بعض روّادها المشغوفين بعالمه الداخلي وحكايات صاحبته.

جدّد محارب هاواي شباب الخدمة اليومية التي تُقدَّم للضيوف وهواة ركوب أمواج المحيط، والحفلات المقامة في المنزل سواء في فصل الشتاء أو الصيف الذي كان يقف فيه على الشواء بزيِّه الوطني التقليدي، ترافقه ألحان الجزيرة الفردوسية مع اللون الغنائي والموسيقى اللاتينية التي تعشقها كات، وأغاني مطربها المفضّل باري مانيلو الذي بدأت تسمعه بشغف منذ السبعينيات، ولم تدرِ لماذا أحبته من أول أغنية.

أضاف محارب هاواي الفواكه الاستوائية أو عصيرها ذا النكهة الثقيلة مع إفطار الصباح، والصحن الخاص الذي ابتكره لتقدّمه «الكاسا»، لكن الأهم من ذلك هو الحيوية وروح المودة التي كان يؤدِّي بهما والتفاعل مع الروّاد بطريقة

لطيفة، تشعرهم بأنهم من أهل البيت. وإذا كان زوّار الشتاء يسهرون في ما سبق على فقاعات حكايات كات التي يتوالى ظهورها في عقول المتسامرين، فقد أضاف المحارب طعماً آخر هو تنبيه الناس إلى أهمية العودة للطبيعة، والبعد قدر الإمكان عن الأطعمة والوجبات التي تزيد نسبة الكولسترول، وترفع مؤشر خطر الإصابة بالسرطان عند الإنسان. كما كان على دراية لا بأس بها بقراءة خطوط الكف، الأمر الذي رفع شعبيته بصورة ملحظة، خصوصاً بين النساء اللاتي يزرن «الكاسا» مع أزواجهن.

لم تعد كات تتذكّر على وجه الدقة من الذي أطلق لقب «محارب هاواي» على هيتو كاواساكي، لكن المؤكد أن جون رسّخ هذا النداء عند الروّاد لأنه كان يستعمله دائماً بدلاً من اسمه. وقد أطلق أحدهم اللقب في بدايات حضور هيتو إلى «الكاسا»، عندما عرفوا ذات ليلة أنه كان جندياً من الذين حضروا القصف الياباني على بيرل هاربور وعمره ثمانية عشر عاماً، ونجا بأعجوبة أثناء القصف الذي صودف حدوثه وهو في أحد مخازن الذخيرة. وذكر هيتو لجون ذات مرة أنه رأى جهنم وجهاً لوجه أثناء تلك الدقائق التي بدت أنها لن تنتهي، بينما الطائرات الانتحارية اليابانية تهوي فوق قطع الأسطول بمحض إرادة طياريها، وبعضها يقصف القاعدة العسكرية في الميناء الذي كان فيه، بدون ردة فعل سريعة من القاعدة البحرية التي كانت في حالة استرخاء عسكري بسبب عدم

توقّعها أي هجوم في تلك الفترة لأسباب سياسية بين الدولتين، على الجزيرة التي تسكنها عدة إثنيات منها اليابانية التي ينتمي إليها كاواساكي نفسه.

ـ هل رأيت باب جهنم أيها المحارب؟ سأله جون وهو غارق في ذكرياته.

ـ وكنت أظن أن شيئاً ما سيدفعني داخلها. قال المحارب.

ـ هل نسيت المشهد أيها المحارب؟

ـ تناسيته ولم أنسه. لقد مرّت الدقائق كدهر لا يريد أن ينتهي.

ـ هل تعتقد بوجود باب للفردوس؟

ـ نعم. لأن التناقضين لا بدّ أن يلحقا بنا إلى هناك!

لم تنسَ كات الموقف الغريب الذي حضره محارب هاواي بين جون وأحد رجال الدين الذين يبشّرون في البيوت. وهي عادة منتشرة في ضواحي المدن في المجتمع الأميركي، وتعرفها الأقليات التي تسكن في أحياء يطغى عليها مذهب ديني معين، والوافدون الجدد إلى الولايات المتحدة أينما حلّوا. ذلك الموقف الذي أدهش كات نفسها أيضاً وجعلها تسأل في ما بينها وبين نفسها، متى يقرأ جون الإنجيل ليعرف كل المعلومات التي يقولها.

ـ على فكرة. أنا لست عضواً في أي من كنائس كاليفورنيا حتى قبل حضوري إلى شاطىء الكربون.

ـ من أجل ذلك أنا هنا. قال الكاهن.

ـ أذهب أحياناً إلى أي كنيسة تحلو لي، لأن اللّه موجود في كل مكان.

ـ لكن يُفترض أن ينتمي الإنسان مذهبياً إلى جانب محدّد.

ـ هذا صحيح من الناحية القانونية، لكنني من جهة أخرى لو ذهبت إلى كنيسة أذهب للقاء مع المسيح، لا لكي أسمع كلاماً عنه، لذلك لا أهتم كثيراً بالبناء أو المذهب أو القسيس الذي فيه.

ـ لكن نحن الذين نبشِّر به.

ـ معظمكم يبشِّر بكلام معلمه لكنه يفعل عكس أعماله. هذا ما دفعني دفعاً لأكون بعيداً.

ـ كيف؟

ـ يقولون لصاحب أي مصيبة أو حاجة: المسيح جُلد.. المسيح صُلب.. المسيح تعذّب.. اصبر. ونادراً ما يقدّمون يد المعونة للمحتاج بدلاً من هذه الكلمات، وهذا أخبث ما يفعلون.

ـ لكن ما نقوله لا كذب فيه.

ـ هذا صحيح. لكن المسيح لم يقل مطلقاً لصاحب حاجة أتاه أو مريض صاحب أمل في شفاء: انظر؛ أنا سأتعذّب وأُصلب فخُذ هذه الأمور عبرة واصبر على عماك أو جوعك أو مرضك أو برصك. كان المسيح يساعد لأنه صاحب نخوة

ومبادرة. هل ما زلنا نعرف معنى النخوة؟ هل ما زالت هذه الكلمة تُردَّد في الكنائس؟ لقد أصبحنا لامبالين.

ـ نحن نساعد. الكنيسة تملك مشاريع تقدِّم الخير.

ـ بشروط... بشروطكم وداخل حدودكم الضيّقة البغيضة. هل يساعد الأسقف اللوثري الكاثوليكي المحتاج؟ هل يطعم الكاثوليكي الأرثوذكسي الجائع؟ هل يعين هذا الأخير الأنغليكاني المسكين؟

ـ نحن مضطرون لعمل ذلك لمحدودية المال بين أيدينا، وعدم معرفتنا بمدى مصداقية البعيدين عن رعيتنا.

ـ حتى لو كان ما تقوله صحيحاً، يساعد معظم الكهنة الدائرة التي تمجّدهم، ويقدّمون التعازي للباقين.

ـ ....

ـ هذا لم يقله المسيح مطلقاً، ولم يفعله. أنا أعرفه يا سيد ولم أسمع عنه.

كان محارب هاواي يشارك جون في بعض الحوارات الفكرية غير المألوفة، ويكنّ كل منهما للآخر مودة عميقة، ويذهبان أحياناً لصيد السمك على جسر ماليبو، ويعودان أحياناً وهما يضحكان على خيبة أملهما الكبيرة في ذلك النهار، ويسهران حتى ساعات متأخرة من الليل وهما يتسامران في أمور وآراء لم يكن يشاركهما فيها غير إدوارد زوج أختها، وقد كان المحارب سبباً في إقلاع جون عن عادة التدخين التي بدأ يمارسها بشراهة بعد إصابته البالغة،

لأن شيئاً لا يمكن أن يبتلعه حسب ما كان يفسّر الأمور، لكن المحارب أقنعه بطريقته.

ـ لماذا تريدون العيش هنا؟ هل تعرف من قال هذه العبارة أيها المحارب؟ سألته كات.

ـ سمعت الكثير منك لكن لم أسمع هذا التساؤل من قبل.

ـ ألم أقله لك؟

ـ لا.

ـ المقاول الذي بنى المنزل. كان يقولها بينما ينظر حوله وهو واقف على رمال العقار والعمال يعملون.

ـ قال لي جون ذات مرة إنه يسجّل كل شيء ليدوِّنه مع الصور في كتاب يروي تاريخ ماليبو.

ـ أحتفظُ بكل ما دوّنه، لكن الأمر يحتاج إلى صبر ووقت.

أطلقت كات اسم «جناح جون ترافولتا» على القسم الغربي من الطابق العلوي، لأن المطرب الكبير زارها مع صديقين له، وباتوا ليلتهم في غرفتين متجاورتين، ليمارسوا ركوب الأمواج فجراً، وبناء على نصيحة من ترافولتا جعلت كات تكييف الغرف مركزياً، وزيّنت الحائط الذي يفصل هاتين الغرفتين بصورة كبيرة للمغني المعروف وبجواره قطعة محارب هاواي، التي وقفت تنظر للكاميرا وكأنها تدرك قيمة الممثل الاستعراضي الذي يجلس بجانبها. وكان ترافولتا ممتنّاً لما

فعلته صاحبة «الكاسا» كتحية له، بدون أن تعلم أنه سيعود مرة أخرى.

تناست كات عادات كثيرة كانت تمارسها، ربما بحكم تقدُّمها في العمر، لكن العادتين اللتين حافظت على ممارستهما حتى وهي في سبعينياتها، هما استغلال وقت الظهيرة من آن لآخر لو لم يكن لديها ما تفعله، في تلوين أظفار قدميها وهي ترتدي البنطلون وتحتسي كأس مارتيني، ثم تبدأ في تلوين أظفار أصابع يديها، فقد كانت تبدأ من الأصعب إلى الأسهل كا قالت لكارمن. كما لم تستطع منع نفسها من السفر إلى بلد لم تزره، بعد أن اطمأنت لحسن سير العمل بوجود «المحارب». امرأة برية سافرت إلى أكثر من مائة مدينة، وزارت دولاً كثيرة منها من يحمل اسماً ربما كان قليلون فقط سمعوا به مثل تيمبوكتو، ولم تزل تحلم حلماً مزمناً بزيارة مائة مدينة أخرى.

رأت «كاسا كارسون» الساحل الممتد من شرقي جسر ماليبو منذ أن كان ميلاً ونصف ميل من الرمال، عليه بيوت لا يتخطّى عددها أصابع اليد الواحدة، ولاحظت هذه الأبنية وهي تتزايد وتتناثر بين العقارات الخالية والقليل من أكواخ الشاطىء، وكانت تلك الأبنية تنسجم مع طراز «الكاسا» الخارجي، ثم تحوّلت الأكواخ إلى فيلات فمنازل ذات طابقين يملكها أصحاب الملايين من الدولارات، أو نجوم السينما الذين يأتون من بريتنوود مرات نادرة في أيام

العطلات، أما الأكواخ الصيفية الباقية فيملكها رسامون تشكيليون وكتّاب سيناريو وروائيون، ويقبلون ببيعها عند عرض مبلغ محترم.

وكان يحلو لكات أحياناً الجلوس تحت شجرة ليمون تركية دائمة الخضرة يفوح أريجها في موسمها، وتروي التاريخ الماليبي لمن يرغب من روّادها، وتستعيده بالصور ذات اللونين الأبيض والأسود والملوّنة، ومشاهدة صور روّادها على الشاطىء أو في فناء المنزل وفي الحفلات المرحة التي جمعت العديد من الأصدقاء. وكان بعضهم يطلب منها مجموعة صورها الخاصة برحلاتها، فتريهم إياها مع قصاصات صحف كتبت عنها وعن خدمة «سرير وإفطار» ودوريات سياحية، إضافة إلى بعض الأحجار من هنا وهناك، وأقراط عاجية من الصين، وعقد من أسنان النمر من مانيلا، وتماثيل من جمهورية جنوب أفريقيا، وصور من تركيب الكمبيوتر من اليابان.

ـ يا لها من حياة عشتها يا كات.

ـ ما رأيته كان جزءاً منها فقط.

ـ على فكرة.. هل سمعت أغنية «مستر ميلودي»؟

ـ مطلقاً. هل هناك أغنية بهذا العنوان؟

ـ لقد سمعتها على شريط أغانٍ كان يسمعه حفيدي.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ نعم.

ـ من يغنِّيها؟

ـ لا أعلم. سمعتها موزّعة بطريقة راقصة بواسطة فرقة «آندي روس».

ـ أنا سعيدة للغاية فعلاً. مَن كان يصدّق؟ سأشتري هذا الشريط.

تساقطت أوراق كثيرة من شجرة علاقات كات الاجتماعية التي زرعتها، وكان من هذه الأوراق روّاد جاءوا إلى «كاسا كارسون»، إضافة إلى أوراق أخرى كان وقع سقوطها عنيفاً عليها مثل لاري تانر الذي تدين له بأهم أداء سلوكي وعصبي في حياتها، إضافة إلى المجالات التي جعلها تعمل فيها، واسمها الفني الذي اختاره لها. كما لم تستوعب في البداية فكرة رحيل طوم ستيوارت الذي رافقت تاريخه منذ كان في عنفوان شبابه وأقصى بريق نجوميته، ورأته عن قرب شديد كأنسان بكل ما فيه من صفات حميدة وعيوب، إلى أن عاصرته مديناً وعلى حافة الإفلاس قبل أن تنصحه بالعمل كمستشار فني في مونتي كارلو لدى أمير عربي.

ـ كيف توفِّي يا آنيتا؟ سألتها كات.

ـ بمرض الإيدز.

ـ الإيدز؟! ماذا كان يفعل ستيوارت؟

ـ لم يكن حتى إصابته يمنع نفسه عن الركض وراء النساء، حتى أصابته عابرة سبيل على ما بدا لي من أحاديثه.

ـ لكنني سمعت أنه توفّي بالتهاب رئوي.

ـ سيارة الإسعاف التي نقلته وهو يصارع سكرات الاحتضار من فشل في التنفس، أخذته إلى مستشفى آخر كان همّهم فيه معالجة فشل التنفس، لكنه توفّي بعد عشر دقائق من وصوله.

ـ فهمت. لم يجروا أي فحص فكتبوا تقريرهم عن حالة الالتهاب الرئوي التي ذكرتها الصحف.

ـ هذا صحيح لأن أمر إصابته بالإيدز ظلَّ سرّاً عند طبيبه المعالج الأساسي.

ـ هل ستبقين في مونتي كارلو؟

ـ نعم.

ـ انتبهي إلى نفسك وحاولي أن تكوني على اتصال.

قال لها طوم ستيوارت ذات يوم إنها إذا تعلّمت أن تؤدِّي البانتومايم ببراعة، فمعنى ذلك أنها أصبحت قادرة على توصيل المعنى المطلوب منها للمشاهد. وطالما تذكّرته بعد رحيله وهو يؤدِّي أمامها كإنسان يأكل البوشار، أو كعجوز يسير، ومرة كخجول يتلعثم في مقابلة شخصية لعمل، وإنسان يشعر بالملل وهو يجلس وحيداً في المقهى. وتذكّرت كم ضحكت كثيراً وهو يقف ويتحدث بتحريك الشفتين فقط كالعاهرات الرخيصات على نواصي الشوارع ليلاً، أو كامرأة تؤجِّج مشاعرها الشهوة بينما تتكلم مع عشيقها، وتحرِّك شفتيها ولسانها بطريقة معينة لتحاول أن تثيره. وكادت كات أن تجزم بأنه من ذوي الميول المثلية عندما أدّى لها شخصية

لوطي، وهو يعلّمها ويطلب منها أن تخمّن الشخصية التي يؤدِّيها.

تقبّلت كات تغيير الصورة العامة لماليبو من حولها كأمر واقع، وكانت تودّع جيرانها الذين يبيعون منازلهم بأسعارها الحالية الكبيرة، لشراء بيوت غيرها ربما لا تبلغ ربع ما حصلوا عليه من أموال، وتتلقّى أخبار سقوط أوراقها المحبوبة بحزن وتسليم تام لواقع غيابهم من حياتها، وتشعر في نفسها أنها تقدّمت في العمر، لكن قوة الدفع الذاتي لخمسين سنة وراءها، إضافة للروح القوية التي وضعها «المحارب» في العقد الأخير من نصف قرن من الخدمة اليومية المتصلة، كانت تجعلها تستمر في استقبال الصباح والمساء والسنة الجديدة، وهي تقابل روّادها بالابتسامة الودودة نفسها، والمحبة للمخلصين منهم. وتسافر أحياناً وتسأل مستقبليها ما إذا كانوا فعلاً بحاجة إليها، وكانوا لدهشتها يجيبون بنعم.

ـ هل تنوي فعلاً أن تترك «الكاسا» سألت كات محارب هاواي.

ـ قلت لك عام 1990 سأستمر حتى الموت معك أو لمدة عشر سنوات.

ـ لكنك لم تمت.

ـ أصبحت في أواخر سبعينيات عمري وأشعر بأن عطائي بدأ يقلّ.

ـ كانت عشر سنوات رائعة أيها المحارب.

ـ أحياناً لا أصدِّق أن هذه الأعوام مرّت وأنا هنا.

ـ هل أزعجتك الخدمة المتواصلة هنا؟

ـ مطلقاً. كنت في غاية السعادة والمرح، لم أكن أعمل إذا جاز التعبير بل كنت أعيش وأتسلّى هنا. سأتذكّر كل يوم بتفاصيله ولن أنسى هذه السنوات الرائعة.

ـ لماذا لم تعرض علينا المساعدة بعد وفاة ناتالي؟

ـ اعتقدت أنكم بحاجة لامرأة.

ـ هل كنت تنوي ذلك فعلاً؟

ـ فكّرت في الأمر، ثم تناسيته.

ـ أنا سعيدة فعلاً بهذه المساعدة القيِّمة التي بدونها كانت ستُغلق «الكاسا» بعد رحيل جون.

ـ ماذا تنوين عمله قريباً؟

ـ أنت لن تتركني غداً. عندي بعض الوقت لأفكِّر.

ـ اتفقنا سيدة ميلودي.

ـ حتى أنت يصيبك الإيقاع أحياناً؟

ـ أنا مصاب به دائماً.

احتفلت كات بعيد ميلادها الثمانين في الثلاثين من تموز/ يوليو سنة 2000 ودعت أولادها وأسرهم وخمسة عشر شخصاً من روّادها المخلصين الموجودين في الوقت نفسه في ولاية كاليفورنيا، إلى الحفل الذي أطلقت عليه بهذه المناسبة «اليقظة»، كان من بينهم كارمن دراغون وزوجها. كما صودف

حضور ساندي وكريستيان روبرت في ذلك النهار للنوم في «الكاسا» ليلاً وممارسة ركوب الأمواج فجراً، وهما زوجان من ميسان هيل ومن زوّارها منذ خمس سنوات، كان لهما فيها أكثر من عشرين زيارة وحضرا حفلتين من الحفلات الأسطورية الحديثة التي عُقدت في الفناء الخارجي.

كان أقصى ما فكّرت كات فيه عندما طلبت منها كارمن عدم الصعود إلى الطابق العلوي، لأنها مع بعض الحاضرين والمحارب سوف ينسّقون مائدة الاحتفال، هو تكريمها بالتوقف عن تحضير أي شيء، ريثما يحضِّرون مفاجأة لها بتزيين القاعة ذات الحائط الزجاجي، وجلب بعض الطعام وقوالب الكاتو من مطعم قريب، وربما إذاعة شريط عليه أغنية عيد الميلاد. لكن كات لم تتوقّع وهي تصعد مع المحارب الذي نزل إلى الطابق الأرضي ليحضرها وهو يرتدي زيَّه الوطني، أن يستقبلها الحاضرون بتصفيق وصفير متواصل لمدة دقيقتين تقريباً، وأن تقترب كارمن منها وتضع على رأسها تاجاً فضياً، يتدلّى منه نجوم صغيرة، تتناسب مع النجوم الكبيرة المتدلية من السقف، ثم تقف كارمن بجوارها وتصفّق ما جعل التصفيق يمتد حوالى دقيقة أخرى، بينما كانت كات تضع يدها اليسرى على رأسها، وتستند بيدها اليمنى إلى حافة مدخل القاعة، وتبكي من التأثر بسبب الاستقبال غير المتوقع.

ـ سيداتي وسادتي.. أقدِّم لكم كاترينا أرهارد أميرة ماليبو. قالت كارمن بعدما هدأ التصفيق.

ـ ونتذّكر أيضاً زوجها جون كارسون أحد مؤسِّسي شاطىء الكربون. أضافت كارمن التي احتضنتها كات وهي تقبّلها.

ـ لم أتوقّع هذه التحية اللطيفة ولا هذا اللقب الذي لا أستحقّه. قالت كات.

لم يكن من الممكن أن تمر مناسبة «اليقظة» بدون أن تعزف كارمن دراغون على آلة «الهارب»، وألّا تغنِّي كات لضيوفها ويصفّقوا لها طالبين الإعادة مرة واثنتين وثلاث مرات. وفاجأها المحارب بهدية فيها الكثير من الرمزية والمحبة، فقد اشترى لها «سي دي» لآندي روس عليه أغنية «مستر ميلودي» التي سمعها الحاضرون وغنّوا مع الفرقة التي تعزف في المرة الثانية، وثلاثة أشرطة فيديو عليها أفلامها فغرت كات فاها دهشة عندما رأتها.

ارتدت كات لهذه المناسبة بنطلوناً ذهبي اللون وقميصاً بلون الليلك عليه فراشة كبيرة نصفها الأعلى لونه أسود ونصفها الأسفل مجرد تطريز باللون الليلكي نفسه، وعن طريق الصدفة تناغم ما ارتدته بشكل رائع مع النجوم الفضية الكبيرة المتدلية من السقف، التي وضعها ضيوفها كزينة للمناسبة، كما قصّت شعرها قصيراً على غير العادة، لأنها كانت دائماً تحافظ على طوله المتوسط. وقالت كارمن في هذه السهرة، التي لم يختفِ منها مذاق ماليبو القديم بتوقيع كات، عن

الزوجين كارسون أنهما كانا لا يفترقان، وكانا الزوجين الأكثر رومانطيقية من جميع الذين رأتهم في حياتها.

ـ أعتقد أن الوقت قد حان لتغيير أسلوب حياتي. قالت كات.

ـ ماذا تعنين بقولك؟ سألتها كارمن.

ـ أودّ أن أجعل بيتي مكان تسلية، لكن الأمر يحتاج إلى عمل كبير.

ـ وما هو الحل؟ سألتها دينيس.

ـ تربطني بهذا المكان علاقة خاصة، ليس سهلاً التخلي عنها. لنرَ ما سيكون نتيجة تفكيري في الأمر.

كانت كارمن دراغون من القلّة القليلة التي تعرف مشاعر كات الحقيقية تجاه ماليبو و«كاسا كارسون»، لأنها شخصياً لديها المشاعر نفسها تقريباً نحو شاطىء الكربون، وقد تركت كارمن المنزل الذي ورثته عن والديها سنة 1995ـ لتعيش مع زوجها الذي انتقل للعمل في سان فرانسيسكو ـ ويعتبر من المنازل الأولى التي شُيِّدت في المنطقة، وإذا كان أهالي لوس أنجلس يعتبرون ماليبو آخر الدنيا في الخمسينيات، فإنها لم تكن موجودة على الخريطة نفسها في عشرينيات القرن، عندما بنى أبوها المنزل الوحيد الذي نجا من عاصفة عظيمة ضربت المنطقة سنة 1930، لكنه لم ينجُ من معاول الهدم بعد بيعه في أواخر القرن، عندما هدمته عائلة ريوردان بعد شرائه من كارمن لتبني مكانه قصراً. وعندما زارت كارمن

كات بعد سنتين، ورأت القصر الجديد الذي حلَّ محل بيتها، شعرت أن جزءاً من ماليبو القديمة قد ذهب إلى غير رجعة، وسيطر على قلبها شعور مستهجن جعلها تهمس لكات:

ـ الشاطىء لم يعد لنا. أصبح مشاعاً.

لم تصل كات إلى قرارها الأخير بسهولة، إنما شارك في اتخاذه عدة عوامل لم تستطع الوقوف أمامها، تجاه المنزل الذي يعتبر بالنسبة لها كل حياتها ولروّاده من الأعمار كافة جسر الذكريات الذهبي الذي يربطهم بشاطىء الكربون. أما أولئك الذين لم يكن لهم أي علاقة به فهو مجرد منزل يشرف على «بي سي آتش»، يختلف في طرازه وتصميمه عن باقي الأبنية، ولا يعلمون سبب هذا الاختلاف.

في آخر صباح لها كمضيفة، نهضت كات باكراً وجهّزت مع المحارب ثلاث سلال للإفطار مثقلة بالفواكه الاستوائية، ثم جلست تنتظر أن يستيقظ ضيوفها وهي تشرب القهوة في الفناء الخارجي، وذهبت مع ضيوفها الثلاثة للمشي على الشاطىء بعد أن تناولوا إفطارهم. ورغم أنه كان يوماً من أيام كانون الأول/ديسمبر 2000، كانت كات حافية القدمين وترتدي بنطلوناً بلون الليلك، وتحمل مظلة سوداء قديمة تغرسها في الرمال التي تتدحرج عليها أمواج المحيط، التي ترتطم بكاحليها وأسفل ركبتيها.

بدا شاطىء الكربون في ذلك الصباح ببيوته التي تناهز المائة والعشرين كخريطة نجوم تعرف كات كل أبراجها،

وبدأت جولتها بعبارة من وحي طبعها البرّي لا تُرد عن الأغنياء والمشهورين، ثم بدأت تحكي حكايات موجزة منسّقة عن حياتهم، دار معظمها حول صبواتهم والشغف والمال، بينما كانت رائحة خشب التدفئة الطازج تفوح من بعض المنازل التي لا يستيقظ أصحابها سوى بعد العاشرة صباحاً وتملأ المكان، وتذهب أبعد من «كاسا كارسون» حيث انتصبت بضعة هياكل خرسانية لمنزل أحد أصحاب الملايين، قالت إنها تعرف حكايته بالتفصيل منذ أن جاء مع عائلته إلى المنطقة.

ـ كانت كانديس برغن تعيش هنا. قالت كات وهي تشير إلى منزل برتقالي اللون ضخم الحجم.

ـ وما هو انطباعك عنها؟ سألها أحد ضيوفها.

ـ أحبها كثيراً وهي بنظري أجمل امرأة تعبِّر عن الحُسن الأميركي. كانت الأريحية تفوح منها.

ـ هل كانت صديقتك؟

ـ لا. لكن جلست معها عدة مرات.

وقالت كات بعد مسيرة سبعة منازل مجاورة:

ـ كانت جين راسل تسكن هنا، ثم اشترت دوريس داي البناء منها، وكانت تتمشّى مع كلابها على الشاطىء صباحاً.

ـ متى بدأ النجوم يأتون إلى هنا؟

ـ منذ السبعينيات.

وعند أحد المنازل قالت كات:

ـ أنا متأكدة أنا هنري فوندا وبيتي دايفز كانا ينامان هنا. لكنهما لم يأتيا معاً ولا مرة.

وقالت عن منزل جيفري كاتزبرغ إن الرئيس بيل كلينتون كان يقيم فيه عندما يزور لوس أنجلس، وبينما كانت تسير ذات مرة بجوار فناء المنزل، همست لها صديقة كانت تتمشّى معها:

ـ انظري. كلينتون يلوِّح لك بيده.

ـ ألا تلاحظين أنني امرأة؟ ونجمة قديمة أيضاً.

ـ أهم ما في الأمر أنك امرأة.

يتعلّم الناس طقوس السكن في أي حي بعد فترة، مهما كانت محبتهم التي جعلتهم ينتقلون إليه، لأن المكان لا يعطي خبرته سوى لساكنيه بعد فترة، وكان أهل شاطىء الكربون منذ خمسين سنة يقولون عن السكان الجدد إنهم جاءوا من أجل المشهد البديع، وصلاحية المنطقة للسكن فيها في الفصول الأربعة، وقربها من لوس أنجلس، وأورانج كاونتي إلى حدٍّ ما، لكنهم لا يعرفون معنى السكن على حافة المحيط، والتعرض للهزّات الأرضية المباشرة وردّات فعلها إذا كانت تحت مياه الباسيفيك، أو انجراف التربة والحرائق، والأعاصير التي لا يقف شيء أمامها وتبتلع مياه المحيط الغاضبة أثناءها كل ما هو على الشاطىء، ولا مهرب من رفع المنازل المشيّدة على الساحل فوق أعمدة خرسانية، تجعلها في مأمن معقول من اندفاع الأمواج ذات الشهية العارمة.

نادى آل روبرت أحد جيرانهم الجدد الذي ترك قارباً مطاطياً على الشاطىء طوال الليل، وجاء المد وجرفه إلى المحيط. وصارع آل روبرت والمرحوم جون الأمواج حتى أعادوا المركب إلى الشاطىء ووضعوه بجوار منزل الرجل الذي لم يدرِ بما حدث، ولم يسمع صياحهم عليه لأنه كان نائماً. وعند العاشرة جاء الجار الجديد وطلب من جون بألفاظ خشنة أن يبعد أولاده عن منزله ويمنعهم من اللعب بمركبه. وكان على كات أن تعطيه درساً في المدّ والجزر على طريقتها، لدرجة أن الرجل انسحب ولم يجد كلمة اعتذار يقولها للدرس الجغرافي العنيف الذي ذكّره بسنوات دراسته.

ـ يسكن بروس ويليس في أول منزل أبيض اللون هناك، وخلال إحدى العواصف تحرّك قاربه وانغرس في الرمال أمام منزلي. قالت كات.

ـ وهل احتاج لدرس في عوامل الطبيعة أيضاً؟ سألها ضيف من الذين يتمشّون معها.

ـ يا سيد ويليس. أي شيء لا يُربط جيداً هنا يموت موتاً قاسياً. قلت له وأنا أقف أمام فناء منزلي.

ـ وماذا كان ردّه عليك؟

ـ أي شيء؟ سألني وهو يضحك.

ـ حتى أنت بطل سلسلة أفلام «الموت القاسي». قلت له.

وبعد مسيرة نحو عشر دقائق كان الجميع يتبادلون الحوار فيها، وقفت كات وأشارت إلى أحد البيوت وهي تتنهّد.

ـ أمضى روبرت كيندي آخر ليلة في حياته هنا، قبيل إطلاق الرصاص عليه في اليوم التالي في فندق السفير.

كان الشاطىء في ذلك اليوم الشتوي خالياً تماماً على غير عادته، وبشكل يثير الريبة، وكانت أشكال معظم المنازل تبدو كأنها محاجر عيون مفرغة، بينما صور الخدم في بعضها تتحرّك خلف ستائر النوافذ، وبدت كات والمتجولون معها وكأنهم الكائنات الوحيدة المتحركة في المشهد.

ـ يبني الناس هذه البيوت الضخمة ويأتون إليها ربما في العطلات الأسبوعية. قالت كات.

ـ ويملك بعضهم خمسة بيوت أو أكثر أحياناً، وقد يأتون إلى هنا لأهداف أخرى. قال أحد المتجولين معها.

ـ جنسية تقصد؟ سألها شخص ثانٍ.

ـ وغيرها. قد يأتون لعقد صفقات بعيداً عن العيون.

ـ لماذا يضعون أموالهم هنا يا كات حسب رأيك؟

ـ موضة مستمرة منذ عقدين. كفستان معلّق في خزانة اشترته صاحبته بدافع شهوة التملك.

ـ يبدو أن الحق معك.

ـ وبدلاً من رؤية الأطفال يلعبون، والهواة يمارسون ركوب الأمواج، نرى الكلاب تتمشّى مع الخدم وعربات أطفال يدفعها الحرس الخاص للملّاك. قالت كات.

احتفت كات بآخر ضيوفها في تلك الليلة بإقامة حفل كوكتيل بسيط لهم، وتذكّر الجميع الأيام الرائعة للمنزل لأن أحدهم وهو والتر رايان كان منذ حوالي خمسة وثلاثين عاماً مع الزوّار الدائمين، وتحدّث الجميع عن التغيرات التي حدثت للشاطىء، وما يمكن حدوثه إذا باعت كات «الكاسا».

ـ أريد قطعة من هذا المنزل. هل يمكنني أخذ أحد مقابض أبواب الطابق الأعلى، أو لوحة من على الحائط؟ قالت زوجة رايان.

ـ نعم يا عزيزتي. قالت كات.

ـ لماذا تبدو نهاية كل شيء أمراً سخيفاً لا يُحتمل؟ سأل كروفر وهو الضيف الثالث.

ـ رغم أنها من طبيعة الأمور. عقّب رايان.

ـ ربما لأنها قد لا تحمل الأمل. قالت زوجة رايان التي رفعت يدها وهي تبكي لتعلن أنها ستشرب نخب كات.

ـ وأنتِ يا كات ماذا تقولين؟ سألها كروفر بعد لحظات من الصمت.

ـ يجب أن يبحث الإنسان عن الأمل دائماً، يا مستر ميلودي.

شعرت كات أن عليها واجباً هو توصيل محارب هاواي إلى مطار لوس أنجلس الدولي في صباح الحادي والثلاثين عام 2000، بدلاً من سيارة أجرة تنقله إليه، فقد كان عليه

أن يعود ليحتفل بهذه المناسبة مع ابنته الوحيدة، وكانت هي على موعد مع أولادها وأحفادها في «الكاسا» للاحتفال بنهاية الألفية الميلادية الثانية.

ـ ماذا ستقول عني لأهل هاواي أيها المحارب؟

ـ كل ما رأيته. سأحاول أن أكون أميناً.

ـ أشكرك فعلاً أيها المحارب. كانت سنوات عظيمة.

ـ لقد أخذت أجرتي.

ـ وأنت تستحقها وتستأهل الشكر أيضاً. أنا أعرف الناس تماماً.

ـ هل ستتذكّرينني الليلة؟

ـ نعم أيها المحارب. وأنت؟

ـ لن أنساك.

تمنّى جميع ضيوف كات عليها عدم بيع «كاسا كارسون»، وكتب أحدهم لها رسالة قصيرة من أريزونا يشبِّه فيها بيع المنزل ببتر جزء من يدها، لأن كات هي المنزل والمنزل هو كات. أما كات نفسها فتنوي أن تؤجِّره لمدة سنة بالسعر الجاري دفعه في هذه المنطقة وهو عشرون ألف دولار شهرياً، وستفعل ذلك لتختبر قدرتها على إمكانية العيش بدونه، وفي حال قدرتها على ذلك ستبيع عقارها لأحد نبلاء هوليوود الذين يتنافسون على شراء أي مكان خالٍ في شاطىء الكربون أو بناء قديم. وهي تعلم أنها لو باعت منزلها فسيُهدم، لأن المنازل التقليدية الباقية في شاطىء الكربون

ثلاثة، والباقي جُرف ليحلّ محله قصور وحدائق وبرك سباحة وحتى صالات عرض سينمائية.

غادرت كات «الكاسا» بعد إغلاقها نهائياً لتزور أولادها في بيوتهم ضيفة لبضعة أيام، وبعد ذلك شاركت في عرس في سان فرانسيسكو بناء على إلحاح من كارمن دراغون، وعادت إلى شاطىء الكربون لتستعدّ لزيارة أختها لورا المريضة في اليابان. وأثناء إقلاع الطائرة من مطار لوس أنجلس، نظرت من الشباك بجوارها وحاولت أن تحدِّد مكان ماليبو، التي تنوي تأليف كتاب عنها من خلال خبرتها، يضمّ كل ما دوّنه جون، وما كُتب في قصاصات الصحف ومنشورات السياحة ودورياتها والصور الخاصة والشخصية التي تحتفظ بها.

المحتويات